

تهذيب السيرة النبوية
للدكتور علي محمد الصلابي

عرض وقائع وتحليل أحداث

تهذيب

د. محمد قطيشات

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونصلي ونسلم على قائدنا وقودتنا
وقرة أعيننا، محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله المقربين الأطهار، وصحبه
الأخيار الأبرار، وتابعيهم بإحسان على طريق الصبر، ابتغاء رضوان الله ورجاء عقبي الدار ،
وبعد..

فإن من أعظم نعم الله -تعالى- على الإنسانية، أن أكرمها بخاتم الرسل، محمد ﷺ نعمة
مسداة، ورحمة مهداة، بنص جازم على سبيل الحصر والقصر، حدد غاية الإرسال: ﴿وما
أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء-107] فهدى الله -جل وعلا- به البشرية بعد ضياع،
واستنقذها بعد ضلال، وتخطت وتيه، وفتح به: «أَعْيُنًا عُمْيًا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» .

فاجتمع له من الناس، على عقيدة التوحيد، و التنزيه والتمجيد، فهداهم بعد الضلالة
وزكاهم بعد التّدسّي وعلمهم بعد الجهل، فكان عليه الصلاة وأتم السلام، أسوة يقتدى،
ونموذجا يحتذى، يقتبس منه كل مصلح غيور، وقائد فذٍّ، وسياسي بارع، وتاجر عَفٍّ، ومرب
ومعلم ومؤدب: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [سورة الأحزاب-21] ، فكان حقا على
قول شوقي، سيد البرية، وهادي البشرية:

أنت الذي نظم البرية دينه * ماذا يقول وينظم الشعراء
المصلحون أصابع جمعت يدا * هي أنت، بل أنت اليد البيضاء

فاستحق المدح من بارئه، واستوجب الثناء: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ [سورة القلم-4]
وهنا تكمن أهمية دراسة سيرة الحبيب ﷺ، وحاجة البشرية إليها، في كل وقت، لتكون
النور الذي يستضاء به، والهدي الذي يتبع، ففيها يعيش معه الدارس حين يربي ويبنى، ويغرس
ويعلي؛ يربي الإنسان، ويهذبه ويهيئه للاستخلاف، فيبني المجتمع والدولة، ويضع أسس
الحضارة، ويمضي بنهج السماء.

ومن خلال تدريسي لمادة السيرة النبوية، وعودتي للمراجع الثّرة الكثيرة، استوقفني ما كتبه
فضيلة الدكتور علي الصلابي، في كتابه القيم: (السيرة النبوية عرض وقائع، وتحليل أحداث)،
فقد كان محققا مدققا، جامعا لأهم النفائس من قديم الكتب وحديثها، معتنيا بتحليل
الأحداث واستنباط الدروس والعبر، وتطبيقها على واقعنا المعاصر.

ولأن طول الكتاب يثقل القارئ وطالب العلم (فقد زادت صفحاته عن الألف وأربعمئة

صفحة) قمنا باستذان المؤلف في تهذيبه، وبعد موافقته قمنا ومجموعة من الإخوة العلماء، بوضع معايير ومؤشرات، لأهم ما يلزم المسلم معرفته، من سيرة الحبيب ﷺ، وقمت بتهذيب الكتاب ليحقق هذه المعايير والمؤشرات والمفاهيم والقيم، كما قمت بإضافة بعض الأحداث والدروس والأنشطة التي تحقق هذه المعايير.

والله أسأل أن يتقبل منا هذا العمل ويجعله في صحائف أعمالنا، وأن ينفع به كل قارئ، وأن يزيدنا قربا من الحبيب ﷺ، واقتداء به، واتباعا لسنته وهديه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

د. محمد عبد الحليم قطيشات

5 رمضان 1442هـ

17 نيسان 2021 م.

مُقَدِّمَةُ الدُّكْتُور عَلِي الصَّلَاحِي

لماذا ندرس السيرة النبوية

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

يا ربِّ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانتك. لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أَمَّا بَعْدُ:

ماذا نعني بالسيرة النبوية (1):

تُعَرَّفُ السيرة النبوية بالاصطلاح: بأتمَّ الأحداث المتعلقة بالرسول -عليه السلام- دون غيره من البشر، حيث تشمل ولادته وغزواته وأخلاقه وصفاته الخلقية وتحركاته الدعوية، أي كل ما يتعلق بالرسول الكريم منذ ولادته وحتى وفاته، ومن الجدير بالذكر أنَّ السيرة النبوية هي المصدر الثالث للدعاة بعد القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأنَّها من أوسع المصادر للدعاة، حيث يغلب فيها الطابع العملي ممَّا يعني قربها لقلوب الناس وتقبلها بصورة سريعة، لأنَّ الرسول الكريم هو القدوة الأول والأخير، لذلك يجب على العالم أن يستنبط هذا العلم بالتحري والدقة المطلقة والاستنباط المبني على الاستقراء والتحليل، فمن المعلوم أنَّ أفعال الرسول يختلف حكمها من حالٍ إلى آخر.

(1) الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني (2014)، المدخل إلى علم الدعوة دراسة منهجية (الطبعة 3)، سوريا: الرسالة، صفحة 140. بتصرف.

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهميَّتها لكلِّ مسلمٍ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ؛ من أهمِّها:

(1) الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيَّته صلى الله عليه وسلم ، وأعماله، وأقواله، وتقريراته، فقد كان زوجاً و أباً وقائداً ومحارباً وحاكماً وسياسياً ومريئاً وزاهداً وقاضياً وعلى كل هذا فكل مسلم يجد بغيته في سيرته الشريفة كما يجد المربي في سيرته دروساً نبوية تربوية . ويجد القائد المحارب نظاماً محكماً ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش . ويتعلم منها السياسي كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع اشد خصومه السياسيين المنحرفين . ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى لانها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي .

(2) اكساب المسلم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(3) التعرف على حياة الصحابة الكرام.

(4) إنَّ دراسة الهدي النبوي في تربية الأُمَّة وإقامة الدَّولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السُّقوط.

(5) دقَّة التَّخطيط، ودقَّة التنفيذ حيث ان التخطيط جزء من السُّنة، وهو جزء من التَّكليف الإلهي في كلِّ ما طُلب به المسلم.

(6) إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويَّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع.

قال الشَّيخ مُحَمَّدُ الغزاليّ: قد تظنُّ: أنَّك درست حياة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغٌ. إنَّك لن تفقه السَّيرة حقّاً إلا إذا درست القرآن الكريم، والسُّنة المطهَّرة، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم (1) .

(1) انظر: فقه السَّيرة ، للغزاليّ ، ص (476).

وللسيرة النبوية العديد من الخصائص، منها ما يأتي⁽¹⁾⁽²⁾:

- 1- الوضوح في جميع مراحلها، وهذا لم يكن في غيرها من سير الأنبياء والمرسلين قبله، فقد ذكر أهل التاريخ ولادة النبي، وطُفولته، وجميع مراحل حياته بأدق تفاصيلها، مما يجعله قدوة للناس، ومثلاً للتأبع.
- 2- المثالية في جميع نواحي حياته، بعيداً عن العُلو أو إخراجهِ عن إنسانيته، فقد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- كاملاً ومثالياً في سيرته، أباً، أو زوجاً، أو قائداً، وذلك في جميع حياته الشخصية والاجتماعية، فهو أحق أن يُتبع.
- 3- الشمول والتكامل، من حيث تضمّنها لجميع جوانب حياته، كإنسان، أو داعية، أو حاكماً، فقد وُصفت حياته وصفاً دقيقاً في جميع الجوانب.
- 4- الدليل العملي على صدق رسالته ونبوته، من خلال تدرّجه عند بدء الدعوة في حياته، ومُلاقاته للأذى، وصبره على ذلك، حتى أصبح له أنصاراً وأتباعاً.

⁽¹⁾ سعد المرصفي (2009)، الجامع الصحيح للسيرة النبوية (الطبعة الأولى)، الكويت: مكتبة ابن كثير، صفحة 92-100، جزء 1. بتصرف.

⁽²⁾ محمد بن محمد العواجي، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، صفحة 7-10. بتصرف.

أهمُّ الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

الفصل الاول

المبحث الأوَّل

الحضارات السائدة قبل البعثة ودياناتها

أولاً: الإمبراطوريَّة الرومانيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسف على الشُّعوب التي حكمتها، كما في مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّيني، والاستبداد السِّياسي، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً، يحسنون حلبها، ويسئون علفها. وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم، والرَّقيق، اضافة الى كون المجتمع الروماني مليئاً بالتناقض، والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالاتي:

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدِّينيَّة في أذهانهم، وعَمَّتِ الرِّهانيَّة، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللُّهو، واللَّعب، والطَّرب، والتَّرف، فقد كانت هناك ميادينٌ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر، لقد كانوا يحبُّون الجمال، ويعشقون العنف، والهمجيَّة، وكانت ألعابهم دمويَّة ضاريةً أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعةً تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون، والتَّرف، والمؤامرات، والمجاملات الرَّائدة، والقبايح، والعادات السيئة»⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق ، ص 31.

ثانياً: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية أكبر، وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة؛ كالزرادشتية، والمانيّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثالث الميلادي، ثمّ ظهرت المزدكيّة في أوائل القرن الخامس الميلادي التي دعت إلى الإباحيّة في كلّ شيءٍ

ثالثاً: الهند:

اتّفقت كلمة المؤرّخين على أنّ أخطأ أدوارها ديانةً، وحلقاً، واجتماعاً، وسياسةً ذلك العهد الذي يتبدّى من مستهلّ القرن السادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتّى في المعابد؛ لأنّها أصبحت مقدسة!! وكانت المرأة لا قيمة لها، ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفّي زوجها. وكان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

- 1 - طبقة الكهنة، ورجال الدّين، وهم «البراهمة».
- 2 - رجال الحرب، والجنديّة، وهم «شترى».
- 3 - رجال الفلاحة، والتجارة، وهم «ويش».
- 4 - رجال الخدمة، وهم «شودر» وهم أخطأ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون - كما يعتقدون - من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاثة.

رابعاً: أحوال العالم الدّينيّة قبل البعثة المحمّدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم، تعيش مرحلة من أخطأ مراحل التّاريخ البشريّ، وتعاني فوضى عامّة في جميع شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهليّ على العقائد، والأفكار، والتّصورات، والنّفوس، وأصبح الجهل، والهوى، والانحلال، والفجور، والتّجبر، والتّعسف من أبرز ملامح المنهج الجاهليّ المهيمن على دنيا النّاس⁽¹⁾.

وضاع تأثير الدّيانات السّماوية على الحياة - أو كاد - بسبب ما أصابها من التّبديل، والتّحريف، والتّغيير، الذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصّراعات العقديّة النّظريّة التي كان سببها دخول الأفكار البشريّة، والتّصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتّى أدّى إلى الحروب الطّاحنة بينهم، ومنّ بقي منهم لم يحرف، ولم يبدّل قليل

(1) انظر: الغرباء الأولون، لسلمان العودة، ص 57.

نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة، والعزلة طمعاً في النجاة بنفسه بأساً من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف، والأجناس البشرية، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء، ففي الجانب الدينيّ تجد الناس إمّا أنهم ارتدّوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية، وتبديلها. وأمّا في الجانب التشريعي، فإنّ الناس نبدوا شريعة الله وراءهم ظهرياً، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل، وتخالف الفطرة.

وتزعّم هذا الفساد زعماء الشعوب، والأمم من القادة، والرهبان، والقساوسة والدّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ، وليلٍ بهيمٍ، وانحرف عظيم عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعة من الطُّقوس، والتقاليد لا روح فيها، ولا حياة، وتأثّرت بعقائد الأمم التي جاورتها، واحتكّت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيراً من عاداتها، وتقاليدها الوثنيّة الجاهليّة، وقد كان المجتمع اليهوديّ قبل البعثة المحمّدية، قد وصل إلى الانحطاط العقليّ، وفساد الذّوق الدينيّ، فإذا طالعت تلمود بابل؛ الذي يبالغ اليهود في تقدّسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحيّ؛ فستجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل، وسخف القول، والاجترار على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين، والعقل⁽¹⁾.

أمّا المسيحيّة: فقد امُتحت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، واختفى نور التّوحيد، وتأثّرت بالوثنية .

وأما المجوس: فقد عُرفوا من قديم الزّمان بعبادة العناصر الطّبيعيّة، وأعظمها النّار. وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النّار، وقد حلف «يزدجرد» - آخر ملوك السّاسانيين - بالشّمس مرّة، وقال: «أحلف بالشّمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثنويّة في كلّ عصرٍ، وأصبح ذلك شعاراً لهم، فأمنوا بإلهين اثنين: أحدهما: النّور، أو إله الخير، والثاني: الظّلام، أو إله الشرّ⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 21.

(2) انظر: البتيرة الثبوتية ، لأبي الحسن التّدويّ ، ص 27.

أمّا البوذيّة: فقد تحوّلت إلى وثنيّةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلّت، ونزلت⁽¹⁾.

أمّا البرهميّة: دين الهند الأصليّ، فقد امتازت بكثرة المعبودات، والالهة.

⁽¹⁾ المصدر السابق نفسه ، ص 28.

المبحث الثاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسّم المؤرّخون أصول العرب ثلاثة أقسام، بحسب السُّلالات التي انحدروا⁽¹⁾ منها:

1 - العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالق، وطسم، وجديس، وأُميم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتّصل بهم، وهذه دَرَسَتْ معالمها، واضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتدّ ملكهم إلى الشّام، ومصر⁽²⁾.

2 - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان، وتسمّى بالعرب القحطانيّة⁽³⁾، ويعرفون بعرب الجنوب⁽⁴⁾، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحِمْيَر⁽⁵⁾.

3 - العرب العدنانيّة: نسبة إلى عدنان، الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما الصّلاة والسّلام - وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دُمّ ليس عربياً، ثمّ اندماج بين هذا الدّم وبين العرب، وأصبحت اللّغة العربيّة لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكّة، وهم: إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة هم الذين تعلّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيّة، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً مثلهم، ومن أهم ذريّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعْدُ، ثمّ نزار، ثمّ جاء بعده ولداه مُضَر، وربيعة.

(2) انظر: السيرة النبويّة، لأبي شهبه (46/1).

(3) فقه السيرة، للغضبان، ص 45.

(4) مدخل لفهم السيرة، ص 98.

(5) السيرة النبويّة، لأبي شهبه (47/1).

المبحث الثالث

الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية

والاجتماعية، والأخلاقية عند العرب

أولاً: الحالة الدينية:

ابتلي العرب بتخلف ديني شديد، ووثنية سقيمة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء، الذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلق بها من الأحكام، والنحائر، وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة .

ثانياً: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة،

وزعيم القبيلة فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المربع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطه) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، يعشقونها، ويأبون الضيم والدل، وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محققاً، أو مُبطلاً، وكان شاعرهم يقول:

لا يسألون أحاهم حين يندبهم
في النابات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دُرَيْد بن الصَّمَّة:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ
غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدُ⁽¹⁾

ثالثاً: الحالة الاقتصادية:

في مجال الصِّناعة فقد كانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبضيّ نجا من السفينة التي غرقت بجُدَّة، ثم أصبح مقيماً في مكَّة⁽²⁾.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، واشتهر اليمنيون بالتِّجارة، وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة.

رابعاً: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التَّقاليد، والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب، والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها، والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي:

1 - الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولمَّا جاء الإسلام قضى على ذلك، وبيَّن لهم: أنَّ التفاضل إنما هو بالتَّقوى، والعمل الصالح.

2 - الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيَّما الشِّعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجلاً مفخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجْم فيهم الخطباء

(1) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شُهبة (61/1).

(2) انظر: فقه السِّيرة النبويَّة، لمنير الغضبان، ص 60.

المصاقع، والشُعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة.

3 - المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع، فقد كانت لا تورث، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حَقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضُلها عن النِّكاح، وحرمت من ميراث أبيها. وكانوا لا يورثون البنات، ولا النساء، ولا الصِّبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة. وكان العرب يعيرون بالبنات.

4 - النكاح:

(1) تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، فقالت: «إِنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّته، أو ابنته، فيُصَدِّقها، ثم يَنْكِحُها. (2) ونكاحٌ آخر: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمَثِها⁽¹⁾: أرسلني إلى فلانٍ فاستبضعي⁽²⁾ منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسُّها أبداً، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضع منه، فإذا تبَيَّن حملها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ، وإلَّا يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

(3) ونكاحٌ آخر: يجتمع الرَّهْط⁽³⁾ ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصِيبها⁽⁴⁾ ثم تختار أبا لابنها.

(4) يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها⁽⁵⁾، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن

(1) الطَّمَث: الحيض.

(2) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.

(3) الرَّهْط: الجماعة دون العشرة.

(4) يصيبها: يجامعها.

(5) جاءها: دخل عليها.

على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهنّ؛ دخل عليهنّ، فإذا حملت إحداهنّ، ووضعت حملها جُمِعوا لها، ودَعُوا لهم القافّة حيث يختار الاب بناء على شبهه بابه.

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها؛ كنكاح الخِذْن، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُتَّخَذَاتِ أُمَّهَاتُكُمْ وَابْنَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُ أَسْرَائِكُمْ﴾ [النساء: 25] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الرّبي أقرب منه إلى النّكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل. ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشّغار، وهو أن يزوّج الرّجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق⁽¹⁾.

وكانوا يُحلّون الجمع بين الأختين في النّكاح، وكانوا يبيحون للرّجل أن يجمع في عصمته من الرّوجات ما شاء دون التقيّد بعدد.

5 - الطّلاق:

كانوا يمارسون الطّلاق، ولم يكن للطّلاقات عندهم عددٌ محدّد. ومّا كان يُلحق بالطّلاق عندهم الظّهار.

6 - الحروب، والسّطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشنّ الحروب، وإزهاق الأرواح في سبيل الدّفاع عن المثل الاجتماعيّة، التي تعارفوا عليها، وقد كثر فيها الرّق.

7 - العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ، وعلمٍ كاليهود، والنّصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل، والأميّة، والتّقليد، والجمود على القديم وإن كان باطلاً، وكانت أمّة العرب لا تكتب، ولا تحسب.

(1) انظر: السّيرة النبويّة، لأبي شهبه (90/1).

خامساً: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت، وأولعوا بالخمير، والقمار، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصبية، والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالرِّبا، والسَّرقة، والزَّنى. وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا، لقد كان فيهم من لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء، ولا يظلمون، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا⁽¹⁾ وكانت فيهم سماتٌ، وخصالٌ من الخير كثيرة، أهَّلَتْهم لحمل رسالة الإسلام.

ومن تلك الخصال، والسمات:

1 - الذكاء، والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية لم تدخلها الفلسفات، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن. واتَّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم، وذاكرتهم

2 - الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقتة، فيأتيه الضَّيف، فيسارع إلى نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يُطعم الوحش، والطَّير، وكرم حاتم الطَّائي سارت به الرُّكبان، وضُربت به الأمثال⁽²⁾.

3 - عشقهم للحرِّية، وإباؤهم للضَّيم والذل:

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّية يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً، لا سلطان لأحدٍ عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يُمَسَّ في شرفه، وعرضه؛ ولو كلفه ذلك حياته

(1) المصدر السابق نفسه ، (94/1).

(2) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شعبة (95/1).

4- قوّة البدن، وعظمة النّفس:

واشتهروا بالقوة مع عظمة النّفس، وقوّة الرّوح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيّة صنعنا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

5 - العفو عند المقدرة، وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم، وخصومهم، حتّى إذا تمكّنوا منهم عفوا عنهم، وتركوهم، ويأبون أن يُجهزوا على الجرحى، وكانوا يراعون حقوق الجيرة، ولا سيّما رعاية النّساء، والمحافظة على العرض. قال شاعرهم:

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا
وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه، وربما ضحّوا بالنّفس، والولد، والمال في سبيل ذلك.

المبحث الرابع

أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشرية ويكرم الإنسانية، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب صلى الله عليه وسلم . وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم، ونشأته العزيزة، ورعاية الله - عزَّ وجلَّ - له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدَّث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة؛ التي سبقت ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح.

إنَّ من سنن الله في الكون: أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة، والصَّيِّء يكون بعد الظَّلام، واليسر بعد العُسْر⁽¹⁾.

ومن أهمِّ هذه الأحداث:

أولاً: قصَّة حفر بئر زمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيم (صحيح السيرة النبوية)، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطلب لزمن من حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آتٍ، فقال لي: احفر طيبة⁽²⁾. قلت: وما طيبة؟ قال: ثمَّ ذهب عني.

قال: فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر برة⁽³⁾، قال: قلت: وما برة؟ قال: ثمَّ ذهب عني.

فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر المزنونة⁽⁴⁾. قال: قلت: وما المزنونة؟ قال: ثمَّ ذهب. فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه،

(1) انظر: هذا الحبيب محمَّد صلى الله عليه وسلم يا محبُّ، للجزائريِّ، ص 51.

(2) طيبة: مشتقة من الطَّيب ، وبه سمَّيت المدينة.

(3) برة: مشتقة من البرِّ ، والبرُّ: هو الخير والطَّهارة.

(4) المزنونة: الغالية النَّفيسة التي يَضُّ بِمَثَلِهَا؛ أي: يُبْخَل.

فجاءني، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنزِفُ أبداً، ولا تُدْمُ⁽¹⁾، تسقي الحجاج الأعظم، وهي بين القَرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم⁽²⁾، عند قرية التَّمَل⁽³⁾.

قال ابن إسحاق: فلمَّا بُيِّنَ له شأُّها، ودُلَّ على موضعها، وعَرَفَ أنَّه قد صُدِقَ؛ غدا بِمَعْوَلِهِ⁽⁴⁾ ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره، فحفر فيها، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ⁽⁵⁾؛ كَبَّرَ، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل، وإنَّ لنا فيها حقًّا، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِّصْتُ به دونكم، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد بن هُذَيم. قال: نعم، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب، وأصحابه، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم، فأبوا عليهم، وقالوا: إنَّا بمفازة⁽⁶⁾ وإنَّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطلب: إنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرة لنفسه بما لكم الآن من القوَّة، فكلُّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرة، ثم وَاَرَوْه؛ حتَّى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فَضَيَعَةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نَعَمْ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفسه حفرةً، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا

(1) لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها، ولا يلحق قعرها.

(2) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.

(3) قرية التَّمَل: المكان الذي يجتمع فيه التَّمَل.

(4) المعوَل: الفأس.

(5) الطَّيُّ: حافة البئر.

(6) المفازة: الصَّحراء، والجمع: مفاوز.

لَعَجْزٌ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد، ارتحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث⁽¹⁾ عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ، فكَبَّرَ عبد المطلب، وكَبَّرَ أصحابه، ثمَّ نزل، فشرب، وشرب أصحابه، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم، ثمَّ دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال - فقال: هَلُمُّوا إلى الماء ؛ فقد سقانا الله ، فجاؤوا ، فشربوا ، واستسقوا كلُّهم، ثمَّ قالوا: قد - والله - قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع، ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخبُّوا بينه وبين زمزم».

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل:

جاء في السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم ما يلي: «كان من شأن الفيل: أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة، يقال له: أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء، فسَمَّاهَا القُلَيْس، وزعم: أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب، وحلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر، فقاتله؛ فهزمه أبرهة، وأخذه، فلمَّا أتى به؛ قال له ذو نفر: أيها الملك! لا تقتلني؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة، حتَّى إذا دنا من بلاد حَنَم؛ خرج إليه التُّفَيْل بن حبيب الحثعمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه، فهزمهم، وأخذ التُّفَيْل، فقال التُّفَيْل: أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع، والطَّاعة، فاستبقاه، وخرج معه يدُلُّه، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتَّب في رجال ثقيف، فقال: أيُّها الملك! نحن عبيدٌ لك، ليس لك عندنا خلافٌ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد - يعنون اللَّات - إنما تريد البيت الذي بمكَّة، نحن نبعث معك من يدُلُّك عليه.

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمُعَمَّس⁽²⁾ مات أبو

(1) بعث راحلته: أقامها من بروكها.

(2) المُعَمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال.

رغال، وهو الذي رُجم قبره، وبعث أبرهة من المَعَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدّمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم، وأصاب لعبد المطلب مئتي بغير بالأراك، ثمّ بعث أبرهة حُناطة الحميريّ إلى أهل مكّة، فقال: سل عن شريفها، ثمّ أبلغه: أيّ لم آت لقتال، إنّما جئت لأهدم هذا البيت.

فانطلق حُناطة حتّى دخل مكّة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إنّ الملك أرسلني إليك؛ ليخبرك: أنّه لم يأت لقتال، إلا أن تقاتلوه، إنّما جاء لهدم هذا البيت، ثمّ الانصراف عنكم. فقال عبد المطلب: ما عندنا له قتال، سنخلّي بينه وبين البيت، فإن خلّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوّة. قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتّى قدم المعسكر، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غنائٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً، أو عشيّةً، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فأمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويُعظم خطرَكَ، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس، فأتاه، فقال: إنّ هذا سيّد قريش، صاحب عير مكّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهْل، والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بغير، فإن استطعت أن تنفعه؛ فانفعه؛ فإنّه صديقٌ لي.

فدخل أنيس على أبرهة، فقال: أيُّها الملك! هذا سيّد قريش، وصاحب عير مكّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهْل، والوحوش في الجبال، يستأذن عليك، وإنّه أحبّ أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصبٍ لك، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له، وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً، جسيماً، وسيماً، فلمّا رآه أبرهة، عظّمه، وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره، وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط، فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيُّها الملك! إنّك قد أصبت لي مالاً عظيماً، فاردده عليّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيْتُكَ، ولقد زهدت فيكَ. قال: ولم؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ آبائك، وعصمتُكم، ومنعتُكم؛ لأهدمه، فلم تُكلِّمني فيه، وتكلِّمني في مئتي بغيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربُّ سيمنعه. قال: ما كان

ليمنعه مَيِّ. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله، فزُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطلب، وأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشَّعاب.

وأصبح أبرهة بالمعَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول، وعبأ جيشه، وقرب فيله، وتحمل عليه ما أراد أن يحمل، وهو قائم، فلمَّا حرَّكه: وقف، وكاد أن يرمز إلى الأرض، فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه، فأبى، فأدخلوا المحاجن تحت أقرانه، ومرافقه، فأبى، فوجَّهوه إلى اليمن، فهورول، فصرفوه إلى الحرم، فوقف، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان⁽¹⁾، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجله، وحجر في منقاره، وتحمل أمثال الحِمَصِ والعدس من الحجارة، فإذا غشيت القوم أرسلتها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل القوم أصيب، فذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفيل].

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كلِّ بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلَّما سقطت أُملة؛ أتبعها مدَّة من قيح، ودمٍ، فانتهى إلى اليمن، وهو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه، ثمَّ مات⁽²⁾.

دروسٌ وعبرٌ وفوائدٌ من حادثة الفيل:

- 1 - بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس.
- 2 - حسد النَّصارى، وحقدهم على مكَّة، وعلى العرب الذين يعظِّمون هذا البيت، وسظهر ذلك من محاولة أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيس.
- 3 - التَّضحية في سبيل المقدَّسات
- 4 - حَوَنَةُ الأُمَّة مخدولون

(1) البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرزير).

(2) السِّيرة النَّبَوِّية لأبي حاتم البستي، ص 34. 39، وانظر: السِّيرة النَّبَوِّية، لابن كثير (37. 30/1).

5 - حقيقة المعركة بين أعداء الله والمؤمنين

6 - تعظيم النَّاسِ للكعبة المشرفة.

7 - قصَّة الفيل من دلائل النبوة:

قال بعض العلماء: إنّ حادثة الفيل من شواهد النبوة، ودلالاتها ومن ذلك ان آية الرّسول صلى الله عليه وسلم في قصّة الفيل: أنّه كان في زمانه حملاً في بطن أمّه بمكة، لأنّه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل، وبعد موت أبيه، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل، فكانت آية في ذلك من وجّهين:

أحدهما: أنّهم لو ظفروا؛ لسبوا، واسترقوا، فأهلكهم الله - تعالى - لصيانة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجري عليه السّبي حملاً، ووليداً.

والثاني: أنّ الوثنية كانت منتشرة في مكة مما جعل أهلها لا يستحقّون رفع أصحاب الفيل عنهم لولا تعظيم الله للكعبة. وبهذا هيأ الله قريشاً والعرب لتعظيم الكعبة .

8 - حفظ الله للبيت العتيق

نشاط: (1) كيف تستدل من قصة اصحاب الفيل على كل درس من الدروس

والعبر المذكورة سابقاً؟

(2) استنتج دوراً أخرى من قصة اصحاب الفيل؟

المبحث الخامس

من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النبي صلى الله عليه وسلم :

إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفَ النَّاسِ نَسَبًا، وَأَكْمَلَهُمْ خُلُقًا، وَخُلُقًا، وَقَدْ وَرَدَ فِي شَرَفِ نَسَبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَادِيثٌ صَحَاحٌ مِنْهَا: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بْنِ هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»

وقد ذكر الإمام البخاري - رحمه الله! - نسب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: «هو أبو القاسم، محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مُرَّة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كِنَانَةَ، بن خُزَيْمَةَ، بن مُدْرِكَةَ، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن مَعَدٍّ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (205/7) - (206)]. ومما يستفاد من إصطفاء الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بهذا النسب الشريف: (1) أهمية حسن إختيار الزوجين لبعضهما، وأن تربية الطفل تبدأ من إختيار الزوجين. (2) النسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور، ويجعله يهتم بمعاليتها، وفضائلها. (3) مقتضى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة القوم الذين ظهر فيهم (العرب) فالله تعالى إختياره نبياً عربياً.

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب، ورؤيا آمنة أم النبي صلى الله

عليه وسلم:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه، ولمَّا نجا من الذَّبْح، وفداه عبد المطلب بمئة من الإبل، زوجه من أشرف نساء مكَّة نسباً، وهي آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب⁽¹⁾.

(1) انظر: وقفات تربوية مع السيرة، لأحمد فريد، ص 46.

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به صلى الله عليه وسلم آمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عدي بن النجار».

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي صلى الله عليه وسلم . قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أول بدء أمرك؟⁽¹⁾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام» [أحمد (262/5) والمعجم الكبير (7729) ومجمع الزوائد (221/8)] .

قال ابن كثير: «وتخصيص الشام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه، وثبوت به بلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام، وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشَّام» [البخاري (3641) ومسلم (1923/م)] .

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين بلا خلافٍ، والأكثر على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول⁽²⁾. والمجمع عليه: أنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل⁽³⁾، وكانت ولادته في دار أبي طالب، بشعب بني هاشم⁽⁴⁾ وتحديدًا في الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل.

رابعاً: مرضعته عليه الصلاة والسلام:

كانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أمّ أيمن بركة الحبشية أمةً أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمّه أبي لهب⁽⁵⁾.

وكان من شأن أمّ أيمن، أمّ أسامة بن زيد: أنها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعدما توفي أبوه، فكانت

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي ، ص 47. وينظر الشكلاّن (6 و 7) في الصفحتين (742 و 743).

(3) انظر: السيرة النبوية ، لابن كثير (203/1).

(4) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، ص 47.

(5) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، ص 48.

أُمِّ أَيْمَنَ تَحْضَنَهُ، حَتَّى كَبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَعْتَقَهَا، ثُمَّ أَنْكَحَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، ثُمَّ تُوفِّيَتْ بَعْدَ مَا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ. [البخاري (2630) ومسلم (1771)]

1. حليلة السَّعْدِيَّةِ مرضعته في بني سعد:

وهذه حليلة السَّعْدِيَّةِ تَقْصُّ عَلَيْنَا خَبْرًا فَرِيدًا عَنْ بَرَكَاتِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ الَّتِي لَمَسَتْهَا فِي نَفْسِهَا، وَوَلَدَهَا، وَبَيْتَهَا، وَأَتَانَهَا وَغَنَمَهَا.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: لَمَّا وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قَدِمَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، فِي نَسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ يَلْتَمَسْنَ الرُّضْعَاءَ بِمَكَّةَ. قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَخَرَجْتُ فِي أَوَائِلِ النَّسْوَةِ عَلَى أَتَانٍ لِي، قَمَرَاءُ⁽¹⁾، وَمَعِيَ زَوْجِي الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَّى، أَحَدِ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَاضِرَةَ، قَدْ أَدَمَّتْ⁽²⁾ أَتَانَنَا، وَمَعِيَ بِالرَّكْبِ شَارَفُ⁽³⁾ وَاللَّهُ مَا تَبِضُّ⁽⁴⁾ بِقَطْرَةٍ لَبَنٍ! فِي سَنَةِ شَهْبَاءَ⁽⁵⁾، قَدْ جَاعَ النَّاسُ حَتَّى خَلَصَ إِلَيْهِمُ الْجُهْدُ، وَمَعِيَ ابْنُ لِي، وَاللَّهُ مَا يَنَامُ لَيْلَنَا! وَمَا أَجِدُ فِي يَدَيَّ شَيْئًا أَعْلِلُهُ بِهِ، إِلَّا أَنَا نَرْجُو الْغَيْثَ، وَكَانَتْ لَنَا غَنَمٌ، فَنَحْنُ نَرْجُوهَا.

فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ، فَمَا بَقِيَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَرِهَتْهُ، فَقُلْنَا: إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الظُّئْرَ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهَا الْوَالِدَ، فَقُلْنَا: مَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ بِنَا أُمُّهُ، أَوْ عَمُّهُ، أَوْ جَدُّهُ، فَكُلُّ صَوَاحِبِي أَخَذَتْ رَضِيعًا، فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ؛ رَجَعْتُ إِلَيْهِ، وَأَخَذْتَهُ، وَاللَّهُ مَا أَخَذْتَهُ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ! فَقُلْتُ لَصَاحِبِي: وَاللَّهُ لَا أَخَذَنَّ هَذَا الْيَتِيمَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهِ، وَلَا أَرْجِعُ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَا أَخَذَ شَيْئًا، فَقَالَ: قَدْ أَصَبْتُ!.

قَالَتْ: فَأَخَذْتَهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّحْلَ، فَوَاللَّهِ! مَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَتَيْتُ بِهِ الرَّحْلَ، فَأَمْسَيْتُ؛ أَقْبَلَ ثَدْيَايَ بِاللَّبَنِ، حَتَّى أَرَوَيْتُهُ، وَأَرَوَيْتُ أَحَاهُ، قَامَ أَبُوهُ إِلَى شَارَفْنَا تِلْكَ يَلْمِسُهَا، فَإِذَا هِيَ حَافِلُ⁽⁶⁾،

(1) قَمَرَاءُ: الْقُمْرَةُ: بِالضَّمِّ لَوْ يَمِيلُ لِلْخَضِرَةِ ، أَوْ بَيَاضٌ فِيهِ سَمَرَةٌ ، أَوْ كَدْرَةٌ.

(2) أَدَمَّتْ: أُخْزَتْ.

(3) الشَّارَفُ: النَّاقَةُ الْمُسَنَّةُ.

(4) لَا تَبِضُّ بِقَطْرَةٍ لَبَنٍ: لَا تَرْتَحِقُ قَطْرَةَ لَبَنٍ.

(5) شَهْبَاءُ: سَنَةٌ مَجْدِبَةٌ لَا خَضِرَةَ فِيهَا ، وَلَا مَطَرَ.

(6) حَافِلٌ: كَثِيرُ اللَّبَنِ.

فحلبها، فأرواني، وروي، فقال: يا حليلة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً⁽¹⁾ مباركةً، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً، وكُنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا. ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحي، فركبت أتاني القمرءاء، فحملته معي، فو الذي نفس حليلة بيده؛ لقطعت الرُّكْبَ⁽²⁾! حتَّى إِنَّ النِّسوةَ ليقُلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتِي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدها الله في كلِّ يومٍ خيراً، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثمَّ يريحون، فتروح أغنام بني سعدٍ جِباعاً، وتروح غنمي بطاناً⁽³⁾، حُقْلاً⁽⁴⁾، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى، وغنم حليلة تروح شباعاً حُقْلاً، وتروح غنمكم جِباعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعاتهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جِباعاً، كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب السنة، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّةَ، أنا وأبوه، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه، قلنا: والله! ما رأينا صبيّاً قط أعظم بركة منه، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء⁽⁵⁾ مكَّةَ، وأسقامها، فدعاه نرجع به حتَّى تبرئ من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا شهراً ثلاثاً، أو أربعةً، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا⁽⁶⁾؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره)، فقال: إِنَّ أَخِي القرشيَّ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأخذهما، وأضجعهما، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا، وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه⁽⁷⁾، فلمَّا رآنا؛ أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضمَّناهما إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال: أتاني رجلان، وأضجعاني، فشقَّا بطني، ووضعوا به شيئاً، ثمَّ ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا

(1) نسمة: نفس.

(2) قطعت الرُّكْبَ: سبقت الركب.

(3) بطاناً: الممتلئة البطون.

(4) حُقْلاً: كثيرات اللبن.

(5) الوباء: المرض.

(6) البهيم: صغار الضأن والماعز.

(7) انتقع لونه: تغير.

وقد أصيب، الحقي بأهله، فردّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمّه، فلمّا رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنّ قضى الله الرّضاعة، وسرّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبّون أحبّ إلينا. وهذه كانت حادثة شق صدره عليه السلام.

قال: فقالت: إنّ لكما شأنًا فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتّى أخبرناها، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به، إنّ لابني شأنًا، أفلا أخبركما خبره، إنّّي حملت به، فو الله! ما حملت حملاً قطّ، كان أخفّ عليّ منه، ولا أيسر منه، ثمّ أريت حين حملته خرج منّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل ببُصرى - أو قالت: قصور بُصرى - ثمّ وضعته حين وضعته، فو الله! ما وقع كما يقع الصّبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض، رافعاً رأسه إلى السّماء، فدعاه عنكما! فقَبَضْتُهُ، وانطلقنا» [أبو يعلى (7163) وابن حبان (6335) والمعجم الكبير (212/24 - 215) ومجمع الزوائد (220/8) - (221) ودلائل البيهقي (133/1 - 136)].

1- دروسٌ وعبرٌ:

أ - بركة النّبّي صلى الله عليه وسلم على السيّدّة حلّيمة

ب - كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له

ج - خيار الله للعبد أبرك وأفضل

د - أثر فصاحة اللسان على الشخصية وقوّتها

هـ - البركة التي حلت ببنت حلّيمة السعدية جعلتها وأهل بيتها يحبون النّبي صلى الله عليه وسلم ويحنون عليه ويحسنون معاملته ورعايته وحضائنه وهذه العناية والرعاية لأي طفل تجعله ينمو نمواً نفسياً سليماً بعيداً عن العقد وهذا ما ينبغي ان نحرص عليه عند تربية ابنائنا

1) كيف تستدل من قصة رضاعة النبي عليه السلام في بني سعد على كل درس من الدروس والعبر المذكورة سابقاً؟

2) استنتج دورسا أخرى من القصة.

2 - ما يستفاد من حادثة شقِّ الصِّدر:

- 1) انها من إرهابات التُّبُوَّة، ودلائل اختيار الله إِيَّاهُ لأمرٍ جليل (1).
- 2) التَّطْهير من حظِّ الشَّيْطان هو إرهابٌ مبكِّرٌ للتُّبُوَّة، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ، فهي عملية تطهيرٍ معنويٍّ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع النَّاس، وأبصارهم (2).
- 3) أهمية الجانب المادي والإهتمام بالمحسوسات في العملية التربوية.

خامساً: وفاة أمِّه، وكفالة جدِّه، ثُمَّ عَمِّه:

توفيت أمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النُّجَاج ثريه إِيَّاهم، فماتت، وهي راجعةً به إلى مكَّة (3)، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثِّره على أبنائه، أي: أعمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقد كان جدُّه مهيباً، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له، وكان أعمامه يتهيَّئون الجلوس على فراش أبيهم، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجدُّ بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ (4). ويظهر هنا أهمية تعزيز الطفل وإظهار مكانته وتقديره في بناء شخصيته.

(1) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 47.

(2) انظر: فقه السيرة النبوية، ص 47.

(3) ابن هشام في السيرة (168/1) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(4) انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 101.

ثُمَّ تَوَفَّى عَبْدَ الْمَطْلَبِ وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الثَّامِنَةِ مِنْ عَمْرِهِ⁽¹⁾، فَأَوْصَى جَدَّهُ بِهِ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ، فَكَفَلَهُ عُمُّهُ، وَحَنَّنَ عَلَيْهِ، وَرَعَاهُ⁽²⁾.

أَرَادَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَنْشَأَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتِيمًا، تَتَوَلَّاهُ عَنَايَةَ اللَّهِ وَحْدَهَا، بَعِيدًا عَنِ الذَّرَاعِ الَّتِي تُثَمِّنُ فِي تَدْلِيلِهِ، وَالْمَالِ الَّذِي يَزِيدُ فِي تَنْعِيمِهِ؛ حَتَّى لَا تَمِيلَ بِهِ نَفْسُهُ إِلَى مَجْدِ الْمَالِ، وَالْجَاهِ، وَحَتَّى لَا يَتَأَثَّرَ بِمَا حَوْلَهُ مِنْ مَعْنَى الصَّدَارَةِ، وَالزَّعَامَةِ، فَيَلْتَبَسَ عَلَى النَّاسِ قَدَاسَةَ الثُّبُوتِ بِجَاهِ الدُّنْيَا، وَحَتَّى لَا يَحْسِبُوهُ يَصْطَنِعُ الْأَوَّلَ ابْتِغَاءَ الْوَصُولِ إِلَى الثَّانِي⁽³⁾، وَكَانَتْ الْمَصَائِبُ الَّتِي أَصَابَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ طِفْلُوته؛ كَمَوْتِ أُمِّهِ، ثُمَّ جَدِّهِ بَعْدَ أَنْ حَرَّمَ عَطْفَ الْأَبِ، وَذَاقَ كَأْسَ الْحُزْنِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، كَانَتْ تِلْكَ الْمَحَنُ قَدْ جَعَلَتْهُ رَقِيقَ الْقَلْبِ، مَرَهْفَ الشُّعُورِ، فَلَا حِزَانَ تَصْهَرُ النَّفُوسَ وَتَخْلِصُهَا مِنْ أَدْرَانِ الْقَسْوَةِ، وَالْكَثْرِ، وَالْغُرُورِ، وَتَجْعَلُهَا أَكْثَرَ رَقَّةً، وَتَوَاضِعًا كَمَا تَجْعَلُ النَّفْسَ أَكْثَرَ ارَادَةً وَأَكْثَرَ قُوَّةً .

فوائد :

1- هذه الصفات من أهم الصفات التي ينبغي غرسها في شخصية الطفل

2- تفيدنا هذا الصفات كعامل مساعد في اختيار القادة

3- الترف تلف للنفوس

سادساً: عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي:

كَانَ أَبُو طَالِبٍ مُقْبِلًا فِي الرِّزْقِ؛ فَعَمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَعِي الْغَنَمِ مُسَاعِدَةً مِنْهُ لِعَمِّهِ.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدّة خصال تربويّة منها:

1 - الصَّبْر

2 - التَّوَاضُع

(1) انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 101.

(2) انظر: مدخل لفهم السيرة، لليحيى، ص 119.

(3) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 46.

3 - الشَّجَاعَة

4 - الرَّحْمَة، والعطف

5 - حُبُّ الكسب من عرق الجبين

و إنّ صاحب أيّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاسِ، إذا ما كان كسبه، ورزقه من وراء دعوته، أو على أساسٍ من عطايا النَّاسِ، وصدقاتهم.

فإقبال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمّةٍ في شخصيّته المباركة؛ منها: الذوق الرّفيع، والإحساس الدّقيق للذّان جَمَل الله تعالى بهما نبيّه صلى الله عليه وسلم اضافة الى ان خير مال الانسان ما اكتسبه بكد يمينه .

فوائد:

1- أهمية تربية الأولاد على تحمل المسؤولية حتى ينشأ قوي الإرادة لا يعتمد على

والديه في كل شؤونه

2- أهمية توفير البيئة المناسبة التي تساعد الأطفال على العمل والحركة وتحمل

المسؤولية وصفاء الذهن

3- أهمية المخيمات التربوية في التربية

4- كلف ابنك بأعمال تزيد تواجداً

5- أهمية التربية العملية وتقديمها على التربية الوعظية

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة:

1) إنّ الله تعالى صان نبيّه صلى الله عليه وسلم عن شرك الجاهليّة، وعبادة الأصنام.

2) وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشّباب، ودواعيه البريئة، الّتي تنزع إليها

الشُّبُويّة بطبعها، ولكنّها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين⁽¹⁾.

(1) انظر: محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحمّد الصادق عرجون (51/1).

فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهْمُون به، إلا مرّتين من الدَّهر، كليهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهله يرهاها: أبصر إليّ غنمي حتّى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوّج فلانة - لرجلٍ من قريش تزوّج امرأة من قريش - فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصّوت حتّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرّ الشَّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثمّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس، ثمّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممّا يعمل أهل الجاهلية، حتّى أكرمني الله بنبوّته» [أبو نعيم في الدلائل (128) والبيهقي في السنن الكبرى (33/2 - 34) والبخاري (2403) ومجمع الزوائد (226/8)].

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانب كبيرٍ من الأهمية:

- 1 - إنّ النّبّي صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً بخصائص البشريّة كلّها.
- 2 - إنّ الله - عزّ وجلّ - قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كلّ ما لا يتفق مع مقتضيات الدّعوة الّتي هيّأه الله لها⁽¹⁾.

ثامناً: لقاء الرّاهب بَحِيرَا بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلامٌ:

خرج أبو طالب إلى الشّام، وخرج معه النّبّي صلى الله عليه وسلم في أشياخٍ من قريش، فلمّا أشرفوا⁽²⁾ على الرّاهب⁽³⁾، هبطوا، فحلّوا رحالهم⁽⁴⁾، فخرج إليهم الرّاهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

(1) انظر: فقه السيرة النبويّة، للبوطي، ص 50، 51.

(2) أشرفوا: اطلعوا من فوق.

(3) الرّاهب: زاهد النّصارى.

(4) حلّوا رحالهم: أي: أنزلوها، وفتحوها.

فبينما هم يَحُلُّونَ رحالهم؛ جعل الرَّاهِب يتخلَّلهم⁽¹⁾، حتَّى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجرٌ، ولا حجرٌ إلا خرَّ⁽²⁾ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبِّي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف⁽³⁾ كتفه مثل الثُّفاحة.

ثمَّ رجع، فصنع لهم طعاماً، فلمَّا أتاهاهم به، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رعية الإبل⁽⁴⁾، قال: أرسلوا إليه، فأقبل، وعليه غمامة⁽⁵⁾ تظُّله، فلمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلمَّا جلس مال فيء الشَّجرة⁽⁶⁾ عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه. وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ منها:

1 - أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب، يعلمون: أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم هو الرُّسول للبشريَّة، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

2 - إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشَّجرة عليه.

3 - أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم استفاد من سفره، وتجوَّاله مع عمِّه، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلَعَ على تجارب الآخرين، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمرَّ بها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في سِنِّه تلك.

4 - حدَّر بحيرا من النَّصارى، وبين أنَّهم إذا علموا بالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فإنَّهم سيقتلونه.

4 - رحلة النبي صلى الله عليه وسلم الى بلاد الشام للتجارة ساهمت في إعدادة فأصبح يعرف البلدان وطبائع أهلها

(1) يتخلَّلهم: يمشي بينهم.

(2) خرَّ: سقط.

(3) الغضروف: رأس لوح الكتف.

(4) رعية الإبل: رعايتها.

(5) غمامة: السَّحابة.

(6) مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.

تاسعاً: حلفُ الفضُول:

كان حِلْفُ الفضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد⁽¹⁾ قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقّه، فاستعدى عليه الزبيديُّ أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة، فقام الزبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تميم بن مرة في دار عبد الله بن جُدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهرٍ حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا، وتحالفوا بالله ليكوننَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صوفةً، وما بقي جبالاً ثبير وحراء مكانهما⁽²⁾.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيديِّ، فدفعوها إليه. وسمَّت قريش هذا الحلف حلف الفضول و قد حضر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم، ورفعوا به منار الحقِّ، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان⁽³⁾، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْر النَّعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البهقي في السنن الكبرى (367/3) وابن هشام (141/1 - 142)].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

- 1 - إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ، وليست نسبيّةً، وإنَّ الرّسول صلى الله عليه وسلم يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليّة⁽⁴⁾.
- 2 - كان حلف الفضول واحّةً في ظلام الجاهليّة، وفيه دلالةٌ بينةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظام، أو مجتمع لا يعني خلوّه من كلّ فضيلةٍ.
- 3 - إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون

(1) زبيد: بلد باليمن.

(2) انظر: السيرة النبويّة، لأبي شهبه (213/1).

(3) انظر: السيرة النبويّة، لأبي شهبه (214/1).

(4) انظر: السيرة النبويّة الصّحيحة، للعمرى (112/1).

من الدُّعاة إلى الله، بل مواجهة الظَّالِمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أَقلِّ الناس⁽¹⁾.

4 - جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير.

5- على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً.

6 - أحد طرق غرس القيم الإيجابية هو الشَّاء عليها حتى لو صدرت من جاهل أو كافر.

* * *

⁽¹⁾ المصدر السابق نفسه.

المبحث السادس

تجارته لخديجة وزواجه منها وأهم الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة، وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة⁽¹⁾ ذات شرفٍ، ومالٍ، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلمَّا بلغها عن محمد صلى الله عليه وسلم صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل، وسافر معه غلامها ميسرة، وقداً الشام، وباع محمد صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلمَّا رجع إلى مكة، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصل الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة التي هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزاً لدعوته، وبالبلاد التي فتحها، ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحتها، وصدقه، وكريم أخلاقه⁽²⁾، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة⁽³⁾، فرضي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب، فخطبها إليه، وتزوَّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بكرةً، وكانت أول امرأة تزَّوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى مات رضي الله عنها⁽⁴⁾، وقد وَلَدَتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلامين، وأربع بنات. وابناه هما: القاسم، وبه كان صلى الله عليه وسلم يُكنى، وعبد الله، ويلقَّب بالطَّاهر، والطَّيِّب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدَّابة، ومات عبد الله وهو طفل،

(1) تزوجها عتيق بن عائذ، ثمَّ مات عنها، فتزوَّجها أبو هالة، ومات عنها أيضاً.

(2) انظر: رسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر (27/3).

(3) انظر: مواقف تروية، ص 56.

(4) انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 122.

وذلك قبل البعثة. أمّا بناته فهنّ: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن، وهاجرن إلى المدينة، وتزوجن رضي الله عنهن⁽¹⁾. هذا وقد كان عُمرُ الرّسول صلى الله عليه وسلم حين تزوّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً، وكان عمرها أربعين سنةً⁽²⁾.

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

- 1 - إنّ الأمانة، والصّدق أهمّ مواصفات التّاجر النّاجح.
- 2 - إنّ التّجارة موردٌ من موارد الرّزق . وهذه المهنة مهمّة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم.
- 3 - كان زواج الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم للسّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله - سبحانه وتعالى - لنبيّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرّسالة، وتعيش همومه⁽³⁾.

فائدة: تأملي أختي الداعية هذه الصفات وعيشيها مع زوجك لتكون قدوتك السيدة

خديجة رضي الله عنها

قال الشّيخ محمّد الغزالي - رحمه الله! -: وخديجة مثلاً طيّباً للمرأة التي تكمل حياة الرّجل العظيم. إنّ أصحاب الرّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبناً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهّد حياتهم الخاصّة بالإنسان، والترفيه، وكانت خديجة سبّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمّد صلى الله عليه وسلم أثرٌ كريم⁽⁴⁾.

- 4 - إنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - ألا يعيش له صلى الله عليه وسلم أحدٌ من

(1) انظر: رسالة الأنبياء (28/3).

(2) انظر: السّيرة النبويّة، لأبي فارس، ص 122.

(3) انظر: السّيرة النبويّة، لأبي شهبه (122/1، 123).

(4) انظر: فقه السّيرة، للغزالي، ص 75.

الذُّكُور، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم، وادِّعائهم لهم النُّبوة، فأعطاه الذُّكُور تكمياً لفطرته البشرية، وقضاءً لحاجات النَّفس الإنسانيَّة، ولئلاَّ يتنقَّص النَّبيُّ في كمال رجولته شائئ، أو يتقوَّل عليه متقوِّل، ثمَّ أخذهم في الصِّغر، و ليكون ذلك عزاءً وسلوى للذين لا يرزقون البنين أو يرزقون ثم يموتون وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا ينجحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة، والأثرة، وعاشت في أفرح لا يخامرها كدر، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الآلام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين، ومداواة المجروحين⁽¹⁾.

5 - يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من السَّيدة خديجة، عدم اهتمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأسباب المتعة الجسديَّة، ومكملاتها، فلو كان مهتماً بذلك - كبقية الشُّباب - لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً، أو فيمن لا تفوقه في العمر، وإمَّا رغب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لشرفها، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

6 - في زواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوَّروا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته، وشهوَّاته، فنجد: أنَّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهليَّة عفيف النَّفس، دون أن ينساق في شيءٍ من التَّيارات الفاسدة؛ الَّتِي تموج حوله، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله، وإنَّ ما حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشُّباب، ثمَّ الكهولة، ويدخل في سن الشُّيوخ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفَّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسة وستين عاماً، وقد ناهز النَّبيُّ صلى

(1) المصدر السابق نفسه، ص 78.

الله عليه وسلم الخمسين من العمر، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفكر في هذه الفترة في أن يضم إلى خديجة مثلها من النساء، زوجة، أو أمة، ولو أراد؛ لكان الكثير من النساء، والإماء طوعً بنانه. أمّا زواجه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من السيدة عائشة، وغيرها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فإن لكلٍ منهن قصّة، ولكلٍ زواج حكمه وسبباً، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم، ورفعة شأنه، وكمال أخلاقه⁽¹⁾.

ثانياً: اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق، وسيل جارٍ؛ صدّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً⁽²⁾ فوق القامة. وكانوا قد جزّؤوا العمل وخصّوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش، وشيوخها في نقل الحجارة، ورفعها، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم، وعمّه العباس في بناء الكعبة.

فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك؛ دخل محمد صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا. فلما أخبروه الخبر، قال: «هلمُّوا ثوباً»، فأتوه به، فوضع الركن فيه بيديه، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً» فرفعوه، حتّى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده، ثم بنى عليه. [الحاكم (458/1 - 459) وعبد الرزاق (100/5 - 101) والبيهقي في الدلائل (56/2 - 57)].

(1) انظر: فقه السيرة النبوية، للبوطي، ص 53، 54.

(2) الرَضْم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخل إليها كلُّ أحد، فيدخلوا من شأؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها، لأنَّهم شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةً طيِّبةً، ولا يدخلها مهرٌ بغيٍّ، ولا بيع رباً، ولا مظلمةٌ أحدٍ من النَّاس⁽¹⁾. **وتقصيرهم في النفقة على الكعبة يدل على كثرة المال الحرام وقلة المال الحلال عند قريش .**

دروس، وعبر، وفوائد:

- 1 - أهيمَّة الكعبة، وقد استهت عند قريش.
- 2 - طريقة فضِّ التنازع كانت موقَّعةً، وعادلةً، ورضي بها الجميع وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسديده قبل بعثته.
- 3 - إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة شرفان: الأدبيَّة في الوسط القرشي⁽²⁾، وحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وأدَّخره الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه، ووضعُه في مكانه من البيت⁽³⁾.
- 4 - إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهيِّ، وكمال التَّوفيق الرِّبائيِّ وذلك معلَّم من معالم رسالته، فرسلته إيصالٌ للحقائق بأقرب طريق، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوب، وأكمل⁽⁴⁾.

(1) انظر: وقفات تربويَّة ، ص 57 ، وانظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (29/3 ، 30).

(2) انظر: السيرة النبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (116/1).

(3) انظر: السيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص 125 ، 126.

(4) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها . السيرة النبويَّة (175/1).

ثالثاً: هَيئَةُ النَّاسِ لاسْتِقْبَالِ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

شاءت حكمة الله تعالى، أن يُعَدَّ الناس لاستقبال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأمورٍ منها:

1 - بَشَارَاتُ الْأَنْبِيَاءِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمداً إجابةً لدعوته. وبشّر به عيسى عليه السلام، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى . وقد وقع التّحريف في نسخ التّوراة، والإنجيل، وحُذِفَ منهما التّصريح باسم محمد صلى الله عليه وسلم، إلا توراة (السّامرة)، وإنجيل (برنابا) .

استدل من كتاب الله تعالى على أهم بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله

نشاط:

عليه وسلم.

2 - الْحَالَةُ الْعَامَّةُ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ :

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السّادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون.

ولكنّ القضية كانت (1) قضية إزالة أنقاض الجاهليّة، ووثنيّة تخريبيّة (2) قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ. (3) قضية اقتلاع جرثومة الفساد.

3- إِرْهَاصَاتُ نَبْوَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أ) تسليم الحجر عليه قبل النّبوة، فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يَسْلِمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الْآنَ»

[أحمد (89/5) ومسلم (2277) والترمذي (3624)]

ب) الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدئ له من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل

فلق الصُّبح [البخاري (3) ومسلم (160)]

ت) وُحِّبَ إليه صلى الله عليه وسلم العزلة، والتَّحَنُّثُ «التَّعَبُدُ»، فكان يخلو في غار حراء - وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّمالِيِّ الغربيِّ من مكَّة - ويتعَبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارةً عشرة، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر، ثمَّ يعود إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى، ويعود إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك⁽¹⁾.

(1) انظر: فقه السيرة النبويَّة، للبوطي، ص 60.

الفصل الثاني

نزول الوحي والدعوة السريّة

المبحث الأوّل

نزول الوحي على سيّد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم

كان النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكّر في هذا الكون، وخالقه، وكان تعبّده في الغار يستغرق ليالي عديدة؛ حتّى إذا نفذ الرّزاد؛ عاد إلى بيته، فتزوّد لليلٍ أخرى⁽¹⁾، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوّل مرّة داخل غار حراء⁽²⁾، وقد نقل البخاريّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاريّ «أبو الصّحاح، وكتب الشّنن، والمسانيد، وكتب التاريخ»، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أوّل ما بُدِيَءَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح، ثمّ حُبِبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه - وهو التّعبّد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى جاءه الحوق؛ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني، فغطّني حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»⁽³⁾

[العلق: 1 - 5].

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فزَمَّلُوهُ حتّى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خَشِيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنّك لتصل الرّحم، وتحمل الكل⁽³⁾،

(1) انظر: صحيح البّيّرة، للعلي، ص 67.

(2) انظر: السّيّرة النبويّة الصّحيحة، للعمري (125/1).

(3) تحمل الكل: تنفق على الضّعيف، واليتيم، والعيال، والكل أصله: الثّقيل، والإعياء.

وَتُكْسَبُ المَعْدُومُ⁽¹⁾، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ⁽²⁾. فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النّاموس⁽³⁾ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يا ليتني فيها جذعاً⁽⁴⁾! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَوْ مُخْرِجِيّ هُم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإن يدركني يومك؛ أنصرك نصراً مؤزراً⁽⁵⁾، ثمّ لم ينشأ ورقة أن تُؤفِّي، وفتر الوحي⁽⁶⁾» [سبق تخرجه].

عندما نتأمل في حديث السيّدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمّة تتعلّق بسيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أهمّها:

أولاً: الرؤيا الصّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنّ أوّل ما بُدئ به محمّد صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصّالحة، وتسمّى أحياناً بالرّؤيا الصّادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبة ينشرح لها الصّدر، وتزكو بها الرّوح⁽⁷⁾. ولعلّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي بالمنام: أنّه لو لم يتدبّر بالرّؤيا، وأتاه الملك فجأة، ولم يسبق له أن رأى ملكاً من قبل، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولاً في المنام ليتدرب عليه، ويعتاده⁽⁸⁾.

(1) وتكسب المَعْدُوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.

(2) نوائب الحق: الكوارث، والحوادث.

(3) النّاموس: هو جبريل. عليه السّلام. صاحب سرّ الخير.

(4) جذعاً: شاباً قوياً.

(5) مؤزراً: قوياً بالغاً.

(6) فتر الوحي: تأخّر نزوله.

(7) انظر: طريق النّبوة والرّسالة، لحسين مؤنس، ص 21.

(8) انظر: منامات الرّسول صلى الله عليه وسلم، لعبد القادر الشيخ إبراهيم، ص 57.

ثانياً: ثمَّ حُبُّ إِلِيهِ الْخَلَاءِ، فَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حَرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكْر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك؛ لتنوير قلبه، وإزالة ظلمته، وإخراجه من غفلته، شهوته، وهفوته، ومن سنن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَّةُ الاعتكاف في رمضان⁽¹⁾.

الخلوة تعين على التفكير (بمعنى أن ينظر إلى المألوفات وكأنه يراها أول مرة فيدرك

أسرارها)

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفسهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّاملة، والتَّوبة، والتَّأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ، أو ضعفٍ، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشرِّه. ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد، وأصبحت الدُّنيا مؤثِّرةً، ومتابعة الهوى مطلباً، ولا بدَّ أن تكون إيجابيةً وليست سلبية، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقِّ⁽²⁾.

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء:

جاء الملك، فقال: اقرأ، قال: «قلت: ما أنا بقارئ... فأخذني فغطَّني الثالثة، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾» [العلق: 1 - 4] .

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم، وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب، والأمم، وفيها إشارة واضحة بأنَّ من أخصَّ خصائص الإنسان العلم والمعرفة⁽³⁾. وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة، ومنزلة العلم في الإسلام، فأوَّل كلمةٍ في النُّبُوَّة تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأمر بالقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].

(1) انظر: الأساس في السنَّة وفقهها . السِّيرة النَّبَوِيَّة ، لسعيد حوَّى (1/195).

(2) انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لحَمَّاد العبد.

(3) انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة ، لأبي شُهبة (1/260).

إنَّ مصدر العلم النافع من الله - عزَّ وجلَّ - فهو الَّذي علَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالأعلى عليها، وسبباً في إبادة(1).

رابعاً: الشَّدة:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مراراً حتَّى أجهدته، وأتعبه، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي من الوحي شدةً، وتعباً، وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: 5] كان في ذلك حكمة عظيمة؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين، وعظمته، وشدة الاهتمام به، وبيانُ للأمة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدةٍ، وكرب(2).

خامساً: معنى الوحي :

الوحي يطلق على التفهيم وعلى الإعلام بالشيء في خفاء سواء كان هذا التفهيم والإعلام بكلام أم بكتابة أم بإشارة أم بإلهام أم برؤيا. ومن الوحي بالإشارة قوله تعالى في شأن زكريا عليه السلام: ﴿فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا﴾ [مريم 11] ومن الوحي بالإلهام قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ [القصص 07]. ومعنى الوحي في اصطلاح أهل الشرع: كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه.

سادساً: أنواع الوحي(3): تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي، فذكروا منها:

1 - الرُّؤيا الصَّادقة:

وكانت مبدأً وحيه صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌّ»، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102] .

(1) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص 34.

(2) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص 30 ، 31).

(3) انظر: كتاب تبسيط العقائد الإسلامية — حسن أيوب (ت ١٤٢٩)

2 - الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في رؤوِّه - أي: قلبه - من غير أن يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ روح القدس نَفَثَ في رُؤُعي» أي: إِنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها، وأجلها؛ فاتَّقوا الله، وأَجْمِلُوا في الطَّلَب» [البغوي في شرح السنة (304/13) برقم (4112) وابن عبد البر في التمهيد (284/1)].

3 - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:

أي مثل صوته في القوَّة، وهو أشدُّه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليّ، فيُفْصَمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً، فيكَلِّمُني، فأعي ما يقول» [البخاري (2) ومسلم (87/2333)].

4 - ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة مَلَكٍ:

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنصِّ القرآن، وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء⁽¹⁾.

5 - أنه يرى المَلَك في صورته الَّتِي خلق عليها:

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

6 - أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثَّل له المَلَك رجلاً:

فيخاطبه حتَّى يَعْي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً⁽²⁾.

هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

(1) انظر: الرؤى والأحلام في التَّصَوُّص الشَّرْعِيَّة، لأسامة عبد القادر، ص 108.

(2) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (33/1 . 34).

سابعاً: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدعاة، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيء؛ إنَّه صاحب همٍّ، ورسالةٍ، همٌّ على ضياع أمته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهمٌّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض، ومغاربها، من مؤامراتٍ، وظلمٍ، وجوعٍ، وإذلالٍ، وما يصيب الدَّعاة منهم من تشريدٍ، وتضييقٍ، وتنكيلٍ، وبعد ذلك هو صاحب رسالةٍ واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه، وراحته، وأوقات زوجته، وأبنائه، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت، والدُّنيا بأسرها، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق، والتَّقوى، والجمال، والحسب ما أوتيت، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة، وأهمَّيتها، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج، وما يتحمَّله من أعباء، وما يعاينه من مشاقٍّ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقاً، وشوكةً في طريقه⁽¹⁾.

ثامناً: فتور الوحي:

تحدَّث علماء السيرة قديماً، وحديثاً عن فترة الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدَّةً من الزَّمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الرُّوع، وليحصل له التَّشَوُّف⁽²⁾ إلى العود⁽³⁾.

اذكر بعض الدروس والعبر المستفادة من نزول الوحي.

نشاط:

* * *

(1) انظر: وقفات تربوية من البيرة النبوية، للبلاي، ص 40.

(2) التَّشَوُّف: التطلُّع.

(3) فتح الباري (36/1).

المبحث الثاني

الدعوة السريّة

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة اليقين: أنّه أصبح نبياً لله الرحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 1 - 4].

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذاناً للرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الماضي قد انتهى بمنامه، وهدوئه، وأنّه أمامه عملٌ عظيمٌ، يستدعي اليقظة، والتّشهير، والإنذار، والإعذار، فليحمل الرّسالة، وليوجّه الناس، وليأنس بالوحي، وليقو على عنائه؛ فإنّه مصدر رسالته، ومدد دعوته⁽¹⁾.

وتعدّ هذه الآيات أوّل أمرٍ بتبليغ الدّعوة، والقيام بالتّبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدّعوة المحمّدية، والحقائق الإسلاميّة؛ الّتي بُني عليها الإسلام كلّها، وهي: الوحدةانيّة، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النّفع⁽²⁾.

ثانياً: بدء الدّعوة السريّة:

بعد نزول آيات المدثر، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، وإلى الإسلام سرّاً، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب النّاس إليه وهم :

أولاً بيت النبوة :

إسلام السيّدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوّل من آمن بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم من النّساء، بل أوّل من آمن به على الإطلاق، السيّدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أوّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكانت أوّل من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت

(1) انظر: فقه السيّرة، للغزالي، ص 90.

(2) انظر: دولة الرّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة، ص 181.

الرَّسُولَ الْعَظِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكانت كذلك أَوَّلَ مَنْ تَعَلَّمَ الصَّلَاةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَيَّئُهَا هُوَ أَوَّلَ مَكَانٍ ثَلَاثِي فِيهِ أَوَّلُ وَحْيٍ نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ بَعْدَ غَارِ حِرَاءَ⁽¹⁾.

كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ فَرَضَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ، إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ حَدِيثُ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْجَهُ خَدِيجَةَ الْوَضُوءِ، وَالصَّلَاةَ، حِينَ افْتَرَضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: أَتَاهُ جَبْرِيلُ وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ، فَهَمَزَ لَهُ بِعَقْبِهِ فِي نَاحِيَةِ الْوَادِي، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ عَيْنٌ، فَتَوَضَّأَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ لِيُرِيَهُ كَيْفِيَةَ الطُّهُورِ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا رَأَى جَبْرِيلُ تَوَضُّأً، ثُمَّ قَامَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى بِهِ، وَصَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَلَاتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَوَضَّأَ لَهَا يَرِيهَا كَيْفَ الطُّهُورِ لِلصَّلَاةِ، كَمَا أَرَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَوَضَّأَتْ كَمَا تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ صَلَّى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَمَا صَلَّى بِهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَلَّتْ بِصَلَاتِهِ. [ابن هشام (260/1 - 261)].

إِسْلَامُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَبَعْدَ إِيمَانِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ، دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الصَّبِيَّانِ، وَكَانَتْ سَنَهُ إِذْ ذَاكَ عَشْرَ سِنِينَ عَلَى أَرْجَحِ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ قَوْلُ الطَّبْرِيِّ، وَابْنِ إِسْحَاقَ⁽²⁾، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَنْ جَعَلَهُ يَتَرَّبِي فِي حَجَرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، حَيْثُ أَخَذَهُ مِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ⁽³⁾، وَكَانَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَالِثَ مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَعْدَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا⁽⁴⁾.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؛ خَرَجَ إِلَى شَعَابِ مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُسْتَخْفِيًّا مِنْ أَبِيهِ، وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ،

(1) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، ص 36.

(2) السيرة النبوية، لأبي شعبة (284/1).

(3) ابن هشام (246/1).

(4) عيون الأثر، لابن سيد الناس (115/1).

وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا ليضمّهما ذلك البيت الطاهر التقي بالإيمان، المفعم بصدق الوفاء، وكرم المنبت⁽¹⁾.

إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أول من آمن بالدعوة من الموالي⁽²⁾، حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولاه، ومُتَّبَناه: زيد ابن حارثة الكلبي، الذي أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم على والده، وأهله؛ عندما جاؤوا إلى مكة لشرائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر لزيد، فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، وأنت مَيِّ بمنزلة الأب، والعَمِّ، فقال له والده، وعمُّه: ويحك! تختار العبودية على الحرية، وعلى أهلك، وعمك، وأهل بيتك! قال: نعم! وإني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً⁽³⁾.

أهمية الأسرة والإعتناء بها ودورها :

بنات النبي صلى الله عليه وسلم :

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي صلى الله عليه وسلم ، كلٌّ من: زينب، وأمّ كلثوم، وفاطمة، ورقية، فقد تأثرنَ قبل البعثة بالدهنّ صلى الله عليه وسلم في الاستقامة، وحسن السيرة، والتزُّهُ عَمَّا كان يفعلُه أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام، وقد تأثرنَ بالدهنّ؛ فأسرعن إلى الإيمان⁽⁴⁾. وبذلك أصبح بيت النبي صلى الله عليه وسلم أول أسرة مؤمنة بالله تعالى، منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبويّ الأول مكانة عظيمة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ لما حباه الله به من مزايا، وخصّه بشرف الأسبقية في الإيمان، وتلاوة القرآن، وإقام الصلاة.

وإنَّ التَّأْمُلَ في نقطة البدء بهذه الدعوة التي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها، ومولَى كزيد بن حارثة، وصبيّ كعليّ بن أبي طالب، وبقية أسرة النبي صلى الله عليه وسلم ،

(1) انظر: المرأة في العهد النبويّ. د. عصمة الدين ، ص 42.

(2) يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أعتق ، وهو المراد هنا.

(3) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، د. محمّد قلنجي ، ص 191.

(4) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبه (284/1).

ليدلّ دلالة واضحة على أنّ الدعوة الإسلامية موجهة لكلّ الناس - صغيّريهم، وكبيريهم، ذكرهم، وأنثاهم، وسيديهم، ومولاهم - فكلّ هذه الشرائح الاجتماعية من الرجال والنساء، والأطفال، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعي، وإقامة الدولة، وانتشار الحضارة⁽¹⁾.

ثانياً من الصحابة

إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أوّل مَنْ آمَنَ بالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرِّجَالِ الأحرار، والأشراف، فهو من أخصّ أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة، وفيه قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كِبُوَّةٌ، وتردّدٌ، ونظرٌ، إلا أبا بكر، ما عَظَمَ⁽²⁾ حين دعوته، ولا تردّد فيه» [البهقي في الدلائل (2/164)] ، فأبو بكر صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو حسنةٌ من حسناته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ، بل كان إسلامه إسلام أُمَّةٍ وكان من صفاته رضي الله عنه انه :

. كان رجلاً مألُفاً⁽³⁾ لقومه، محبباً، سهلاً.

. وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍ.

. وكان رجلاً تاجراً، ذا خلقٍ، ومعروفٍ.

. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته⁽⁴⁾.

وهذه أبرز الصفات فيمن تربّهم الدعوة

ومن أول من اسلم من الصحابة ايضاً :

. عثمان بن عفّان رضي الله عنه، في الرّابعة والثلاثين من عمره.

(1) انظر : دولة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التكوين إلى التمكن ، ص 208.

(2) ما تلبّث ، بل سارع.

(3) مألُفاً لقومه أي: محبباً فيهم.

(4) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (371/1).

. وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، في الثلاثين من عمره.
. وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان في السابعة عشرة من عمره.
. والزبير بن العوام رضي الله عنه، وكان في الثانية عشرة من عمره.
. وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وكان في الثالثة عشرة من عمره⁽¹⁾.
ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصارٍ للدعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثر من غيره⁽²⁾.
ثم على مراحل مختلفة اسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم (بنة بنت عبد المطلب) .
وكذلك أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامراته أسماء بنت عُميس وضُهيّب بن سنان، هو (سابق الروم).
ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذرّ الغفاريّ، وأخوه أنيس، وأُمّه⁽³⁾.
ومن أوائل السابقين: بلال بن رباح الحبشيّ.
وهؤلاء السابقون: من جميع بطون قريش، عدّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا⁽⁴⁾.
ويَتَضَح من عرض الأسماء السابقة: أنَّ السابقين الأوّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا - كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للناس - من حثالة الناس، أو من الأرقاء؛ الذين أرادوا استعادة حرّيتهم، أو ما شابه ذلك.
إنَّ البحث الدقيق يثبت: أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء، والمستضعفين، والموالي والأرقاء والأخلاق من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلّي من الدّاخلين في الإسلام لا يقال عليه: «أكثرهم»، ولا «معظمهم»، ولا «عامّتهم» من اصل أربعين من السابقين الى الإسلام.

(1) انظر: التَّربية القياديّة (116/1).

(2) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى البحى ، ص 62.

(3) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبه (287/1).

(4) انظر: سيرة ابن هشام (245/1 إلى 262).

من اهم معالم هذه المرحلة :

1 - الحسُّ الأمنيُّ:

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان، والسِّرِّيَّة، حتَّى عن أقرب النَّاس، وكانت الأوامر النَّبَوِيَّة على وجوب المحافظة على السِّرِّيَّة واضحةً، وصارمةً، وكان صلى الله عليه وسلم يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا)، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ، وتدريبٍ، لا اختفاء جبنٍ، وهروبٍ، حسب ما تقتضيه الخطَّة الرَّبَّانِيَّة، فبدأ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرة، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين؛ إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّة، وسعة من المال، فيكونان معه، ويصبيان منه فضل طعامه، ويجعل منهم حلقاتٍ، فمن حفظ شيئاً من القرآن؛ علِّم مَنْ لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوَّة، وحلقات تعليم.

2 - دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تذكُر كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مقرّاً لقيادة الرَّسول كان بعد المواجهة الأولى الَّتِي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشَّعب، فاستخفُّوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعبٍ من شِعب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون، فناكروهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقَّاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي (1) بعيرٍ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أريق في الإسلام» [ابن هشام (1/281 - 282)].

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون، ويتلقَّون عن رسول الله عليه السلام كلَّ جديدٍ من الوحي، ويستمعون له عليه السلام وهو يذكِّرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم؛ فيريهم صلى الله عليه وسلم على عينه كما تربَّى هو على عين الله - عزَّ وجلَّ - وأصبح هذا الجمع هو قوَّة عين النَّبيِّ عليه السلام (2).

(1) اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللَّحية، ومن الحيوان العظم الَّذي على الفخذ.

(2) انظر: التربية القياديَّة (1/198).

الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب؛ منها:

- 1 - أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه.
 - 2 - أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضد بني هاشم.
 - 3 - أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه.
- قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبداً: أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز، وكشفت مكان اللقاء⁽¹⁾.

ثالثاً: انتشار الدعوة في بطون قريش، وعالميتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السريّة، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون ثقل كبير لأبي قبيلة، ولعلّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيّة العديدة دون تحفّظات متّصلة بالعصبية.

إن استسرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته أوّل الأمر إنّما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصّة، وهي ظروف بداية الدعوة، وضعفها، وغربتها، وينبغي أن يفهم ضمن هذا الإطار.

* * *

(1) انظر: المنهاج الحركي، للغضبان (49/1).

المبحث الثالث

الجهر بالدعوة وأساليب المشركين في محاربتها

أولا الجهر بالدعوة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت صَعِدَ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صلى الله عليه وسلم على الصَّفا، فجعل ينادي: يا بني فُهْر! يا بني عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجتمعوا، فجعل الرَّجُل إذا لم يستطع أن يخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو هُبَيْرٍ، وقُرَيْشٌ، فقال: أَرَأَيْتُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ: أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تَرِيدُ أَنْ تَغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقاً، قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فقال أبو هُبَيْرٍ: تَبَّأَ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ! أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 1 - 2] [البخاري (4971) ومسلم (208)] وفي رواية: ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار.....»، ثم قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» [البخاري (4771) ومسلم (204)]

كان القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين، فلمَّا رأوا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم ، - وهو الصَّادِقُ الْأَمِينُ - قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم، وذكأؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تَمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبُوَّة، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة، والعلوم الوهيبيَّة، وموعظةً، وإنذاراً، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات، والنُّبُوَّات، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّرِيق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم⁽¹⁾، ولكنَّ أبا هُبَيْرٍ قال: تَبَّأَ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قد وضع للأُمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً - وهو الجبل - ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعي، ثمَّ اختار لدعوته

(1) انظر: البَيِّنَةُ النَّبُوَّةُ لِأبي الحسن التَّدْوِي ، ص 138.

الأساس المتين لينبني عليه كلامه وهو الصِّدْق، وبهذا يكون صلى الله عليه وسلم قد علّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم، أو دعوتهم يجب أن يعتمد - وبصفةٍ أساسية - على الثِّقة التَّامة بين المرسل، والمستقبل، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه⁽¹⁾.

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرِّسول صلى الله عليه وسلم دعوته العلنيَّة بإنداز عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة، فبدء الدَّعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثر خاصٌّ.

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع النَّاس في أنديتهم، ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواسم، ومواقف الحجِّ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍ، وقويٍّ، وضعيفٍ، وغنيٍّ، وفقير⁽²⁾؛ حين نزول قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: 94 - 97] .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ، والإعراض، والسُّخرية، والإيذاء، والتَّكذيب، والكيد المدبَّر المدروس، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة، ساهم فيه فأشدُّ، وألَّد أعدائها، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها، فليس كلُّ النَّاس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر، والشِّرك.

أهم اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم الَّذي أنزل عليه من ربِّ العالمين.

(1) انظر: الحرب التَّنسيئة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 121 .

(2) انظر: دراسة في السيرة ، لعلماد الدين خليل ، ص 66 .

دوافع انكار دعوة الاسلام في العهد المكي:

- 1 - ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب
- 2 - العصبية لتراث الاباء، والأجداد
- 3 - موقف أهل الكتاب المساند للوثنية
- 4 - سيطرة الأعراف، والعوائد القبلية
- 5 - حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب

ثانيا سنة الابتلاء:

الابتلاء - بصفة عامة - سنة الله في خلقه، وهذا واضح في تقارير القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7] ، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2] .

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يُمكن لأمةٍ إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف.

حكمة الابتلاء، وفوائده: للابتلاء حكم كثيرة؛ من أهمها:

- 1 - تصفية النفوس
- 2 - تربية الجماعة المسلمة
- 3 - الكشف عن خبايا النفوس
- 4 - الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة
- 5 - معرفة حقيقة النفس
- 6 - معرفة قدر الدعوة

7 - الدّعاية لها

8 - جذب بعض العناصر القويّة إليها

9 - رفع المنزلة والدّرجة عند الله، وتكفير السيّئات

ثالثاً: اساليب المشركين في محاربة الدّعوة :

أجمع المشركون على محاربة الدّعوة الّتي عرّت واقعهم الجاهليّ، وعابت الهتهم، وسقّفت أحلامهم - أي: آراءهم، وأفكارهم - وتصوّراتهم عن الله، والحياة، والإنسان، والكون؛ فاتّخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدّعوة، وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة، وحماية رسول الله صلى الله عليه

وسلم

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم :

قام مشركو مكّة بتشويه دعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك نظّمت قريش حرباً إعلاميّة ضدّه لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر موسم الحجّ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

. فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقل، وأقم لنا رأياً نقول به.

. قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

. فقالوا: نقول: كاهنٌ.

. فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهانَ، فما هو بزممة⁽¹⁾ الكاهن، ولا سَجْعَه.

(1) الزّممة: كلام خفيّ لا يسمع.

. فقالوا: نقول: مجنونٌ.

. فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنونَ، وعرفناه، فما هو بخنْقه، ولا تخالْجِه، ولا وسْوسَته.

. فقالوا: نقول: شاعرٌ.

. فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشَّعرَ برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشَّعر.

. قالوا: فنقول ساحرٌ.

. قال: ما هو ساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ، فما هو بنفْثِهِم، ولا عَقْدِهِم.

. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

. قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً، وإن أصله لَعَذَقُ⁽¹⁾، وإن فرعه لَجَنَاةٌ⁽²⁾، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنَّه باطلٌ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ، فقولوا: ساحرٌ يفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته⁽³⁾.

وأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا *⁽⁴⁾ وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا * سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا⁽⁵⁾ * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ⁽⁶⁾ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ⁽⁷⁾ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ⁽⁸⁾ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿ [المدر: 11 - 26] .

ويَتَضَح من هذه القصة: أنَّ الحرب النَّفْسِيَّة المضاة للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن

(1) العذق: النخلة.

(2) الجناة: ما يجنى من القمح.

(3) السَّير والمغازي، لابن إسحاق، ص 150، 151، وتحذيب السيرة (64/1، 65)، والبيهقي في دلائل النبوة (200/2)، وابن هشام في السيرة النبوية (288/1 - 289).

(4) واسعاً.

(5) أي: سأصليه عذاباً شديداً.

(6) أي: تروى ماذا يقول في القرآن.

(7) أي: قبض بين عينيه، وكلَّح، وقطَّب.

(8) أي: هذا سحرٌ ينقله محمد عن غيره ممن قبله، ويحكيه عنهم.

توجّهه اعتباطاً، وإنما كانت تعدُّ بإحكام ودقّة بين زعماء الكفّار، وحسب قواعد معيّنة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسيّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمّع النَّاس في موسم الحج، والاتّفاق وعدم التّناقض، وغير ذلك من هذه الأسُس حتّى تكون حملتهم منظّمة، وبالتّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجّيج، فتؤثّر ثمارها المرجوّ منها، ومع اختيارهم للزّمان المناسب، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتّى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكّة⁽¹⁾.

ثالثاً: ما تعرّض له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى والتّعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدلُّ على ذلك - مبلغ هذا الأذى - تلك الآيات الكثيرة الّتي كانت تنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصّبر، وتدله على وسائله، وتنهيه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [الزمل: 10]، و ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]، و ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 70]، و ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43].

وهذه أمثلة تدلُّ على ما تعرّض له النّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الإيذاء:

1 - قال أبو جهل: هل يُعقّرُ محمدٌ وجهه⁽²⁾؟ قال: فقل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك؛ لأطأَنَّ على رقبته، أو لأعقرَنَّ وجهه في الثّراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم⁽³⁾ منه إلا وهو ينكص على عقبيه⁽⁴⁾ ويتقي يديه. قال: فقل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخنقاً من نارٍ، وهولاً، وأجنحةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (2797)].

(1) انظر: الحرب النفسيّة ضدّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص 103.

(2) التاريخ الإسلامي، للحميدي (1/144).

(3) فجئهم: بغتهم.

(4) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.

2 - وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يُصَلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور ال فلان، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِهَا، ودمها، وسلاها، فيجِيءُ به، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاها، فلَمَّا سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وضعه بين كتفيه، وثبت النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحْكِ، فانطلق مُنْطَلِقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ - وهي جُوبِرِيَّةٌ فأقبلت تسعى، وثبت النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً حتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وأقبلت عليهم تُسَبِّحُهُمْ، فلَمَّا قضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصَّلَاةَ، قال: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقَرِيشٍ! اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقَرِيشٍ! اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقَرِيشٍ! ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرٍو بن هشام، وَعُتْبَةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمِّية بن خلف، وعقبة بن أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بن الوليد، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ، ثُمَّ سَحَبُوا إِلَى الْقَلْبِ (1) - قليب بدرٍ - ثُمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلْبِ لَعْنَةً» [البخاري (520) ومسلم (1794)] .

3 - كان أبو لهبٍ عُمُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم من أَشَدِّ النَّاسِ عداوةً له، وكذلك كانت امرأته أُمُّ جَمِيلٍ، من أَشَدِّ النَّاسِ عداوةً لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاسِ بالنَّميمة، وتضع الشُّوكَ في طريقه، والقدر على بابه، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: 1 - 5]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن؛ أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهرٌ من حجارة؛ فلَمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أَنَّهُ يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثُمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عني، وكانت تنشد: مذمَّمُ آبِينا، ودينه قَلِينا، وأمره عَصِينا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح؛ لأنَّ المشركين يسُبُّونَ مَذْمَمًا يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش، ولعنهم، يشتمون مذمَّمًا ويلعنون مذمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ» [البخاري (3533)] .

(1) القليب: البئر المفتوحة.

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنّه كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذّبه⁽¹⁾.

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى والتّعذيب:

1 - ما لاقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

تحمل الصحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرّواصي الشّامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه الثّراب، وضرب في المسجد الحرام بالنّعال حتّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وحُمِل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت⁽²⁾، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنّه لمّا اجتمع أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظّهور، فقال: «يا أبا بكر! إنّنا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحّ حتّى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، كلُّ رجلٍ في عشيرته، وقام أبو بكر في النّاس خطيباً ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ، فكان أوّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطّأى أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسقُ عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، حتّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تميم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكّون في موته، ثمّ رجعت بنو تميم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتّى أجاب، فتكلّم آخر النّهار، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فمسّوا منه بالسنّتهم، وعذّلوه، وقالوا لأُمّه أمّ الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إِيّاه، فلمّا خلت به؛ ألحّت عليه، وجعل يقول: ما فعل

(1) انظر: السّيرة النبويّة، لأبي شهبه (293/1).

(2) انظر: التّمكن للأمة الإسلاميّة، ص 243.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، وإن كنت تحيِّين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصَّياح، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهل فسقٍ وكفرٍ، إنَّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: هذه أمكتسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سامم، صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكى عليهما، حتَّى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقَبَله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقَّةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبي، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الله فأسلمت⁽¹⁾.

دروس، وعبر، وفوائد:

- 1 - حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفَّار، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه، وشجاعته، وقد تحمَّل الأذى العظيم، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.
- 2 - مدى الحبِّ الَّذي كان يُكُنُّه أبو بكرٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة، يسأل عنه، ويُلحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل، ولا يشرب حتَّى يراه، كيف يتمُّ ذلك، وهو لا يستطيع المشي، بل التَّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصَّعاب، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله صلى الله عليه وسلم هيَّئ، ويسير.
- 3 - إنَّ العصبية القبليَّة، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (1/439 . 441) ، والبداية والنِّهاية (30/3).

الأفراد، حتّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر⁽¹⁾.

4 - الحسُّ الأمنيُّ لأُمِّ جميلٍ رضي الله عنها، فقد برز في عدّة تصرُّفاتٍ.

5- إخفاء الشَّخصيّة، والمعلومة عن طريق الإنكار.

6- استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

7- استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

8- الاحتياط والتأبّي قبل النُّطق بالمعلومة:

9- تحيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمّة:

10 - قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر، بسبب رغبة الصّديق في إدخال أمّه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرّسول صلى الله عليه وسلم الدّعاء لها؛ لِمَا رأى من برّها به، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟!⁽²⁾.

11 - إنّ من أكثر الصّحابة الذين تعرّضوا لمحنة الأذى، والفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبا بكرٍ الصّديق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصّة له، والتّصاقه به في المواطن التي كان يتعرّض فيها للأذى من قومه، فينبري الصّديق مدافعاً عنه، وفادياً إيّاه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفهمهم، هذا مع أنّ الصّديق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل، والإحسان⁽³⁾.

استدل من القصة التي ذكرناها عن الأذى الذي لحق بأبي بكر رضي الله

نشاط:

عنه على كل درس من الدروس التي استنتجناها

(1) انظر: محنة المسلمين في العهد المكيّ، ص 79.

(2) انظر: محنة المسلمين في العهد المكيّ، ص 79.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 75.

2 - بلال رضي الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأصحابه؛ حتى وصل إلى ذروة العنف وخاصةً في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عبرةً لغيرهم، ولتنفّس عن حقدّها، وغضبها، بما تصبّه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر، وعمر، وأمه سميّة، وصهيب، وبلال، والمقداد؛ فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنعه الله بعّمه أبي طالب، وأما أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألْبَسُوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكّة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد (404/1) وابن ماجه (150) والبيهقي في دلائل النبوة (281/2 - 282)]. لم يكن لبلال رضي الله عنه ظهْرٌ يسنده، ولا عشيرةٌ تحميه، ولا سيوفٌ تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليّ المكّي يعادل رقماً من الأرقام، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم، ويطيع، ويُبَاع، ويُشْتَرى كالسّائمة، أمّا أن يكون له رأيٌ، أو يكون صاحب فكرٍ، أو صاحب دعوةٍ، أو صاحب قضيةٍ، فهذه جريمةٌ شنعاءٌ في المجتمع الجاهليّ المكّي، تهزُّ أركانه، وتزلزل أقدامه، ولكنّ الدّعوة الجديدة؛ الّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدّون تقاليد، وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرمي المنسيّ، فأخرجته إنساناً جديداً على الوجود⁽¹⁾، فقد تفجّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن امن بهذا الدّين، وانضمَّ إلى محمّد صلى الله عليه وسلم وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وها هو الآن يتعرّض للتّعذيب من أجل عقيدته، ودينه، فقصّد وزيرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصّديق موقعَ التعذيب، وفاوض أميّة بن خلف، وقال له: «ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟! قال: أنت الّذي أفسدته، فأنقذه ممّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل، عندي غلامٌ أسود أجلد منه، وأقوى على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصّديق رضي الله

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 75.

عنه غلامه ذلك، وأخذه، فأعتقه»⁽¹⁾. وفي رواية: اشتراه بسبع أواق، أو بأربعين أوقية ذهباً⁽²⁾. وأصبح منهج الصديق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب الذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرِّقِّ.

3 - عمّار بن ياسر، وأبوه، وأُمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكة، وأخواه: الحارث، ومالك يطلبون أختاً لهم، فرجع الحارث، ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي⁽³⁾، فزوجه أبو حذيفة أمة له، يقال لها: سمية بنت خياط، فولدت له عمّاراً، فأعتقه أبو حذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر، وسمية، وعمّار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصَبُّوا عليهم العذاب صَبّاً، فكانوا يُخْرِجُونهم إذا حميت الظَّهيرة، فيعَذِّبُونهم برمضاء مكة⁽⁴⁾، ويقَلِّبُونهم ظهراً لبطن⁽⁵⁾، فيمرُّ عليهم الرّسول صلى الله عليه وسلم؛ وهم يعذبون، فيقول: «صبراً آل ياسر! فإنّ موعدكم الجنة» [الحاكم (383/3) والخلية (140/1) والمطالب العالية (4034)]⁽⁶⁾. وجاء أبو جهل إلى سمية، فقال لها: ما امنت بمحمّد إلا لأنك عشقتَه لجمالِه، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العِقة، فقتلها، فهي أوّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها⁽⁷⁾، وبذلك سَطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى، وأعلى ما تقدّمه امرأة في سبيل الله؛ لتبقى كلُّ امرأة مسلمة حتّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله⁽⁸⁾.

(1) انظر: التربية القيادية (136/1).

(2) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (394/1).

(3) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذري (100/1، 157).

(4) السيرة النبوية، لابن هشام (68/2).

(5) بهجة المحافل، للعامري (92/1).

(6) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، ص 97، 98.

(7) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص 99.

(8) التربية القيادية (217/1).

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذاً بيده نتمشّي بالبطحاء، حتّى أتى على ال عمّار بن ياسر، فقال أبو عمّار: يا رسول الله! الدّهر هكذا؟ فقال له النّبيّ صلى الله عليه وسلم : اصبر، ثمّ قال: اللّهم اغفر لال ياسر، وقد فعلت» [أحمد (62/1)] (1). ثمّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

ابحث عن قصص لصحابة آخرين تعرضوا للأذى والتعذيب

نشاط:

خامساً: حكمة الكفّ عن القتال في مكّة واهتمام النّبيّ صلى الله عليه وسلم بالبناء

الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدّفاع عن أنفسهم، ويبدو: أنّ الموقف السّلمي أغاظ بعضهم، وخاصّة الشّباب منه، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابه رضي الله عنهم إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم بمكّة، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزّة ونحن مشركون، فلمّا آمنّا؛ صرنا أدلّة! قال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم» [النسائي (3/6) والبيهقي في السنن الكبرى (11/9) والحاكم (66/2) - 67 و(307)] (2).

ومن أهم الأسباب والحكم والعلل بإيجاز:

1 - أنّ الكفّ عن القتال في مكّة ربما لأنّ الفترة المكيّة كانت فترة تربية، وإعداد، في بيئة معيّنة، لقوم معيّنين، وسط ظروفٍ معيّنة، ومن أهداف التّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيّ على الصّبر.

2 - وربّما كان ذلك أيضاً؛ لأنّ الدّعوة السّلميّة أشدّ أثراً وأنفذاً في مثل بيئة قريش، ذات العنجهيّة والشّرف، والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد، ونشأة ثاراتٍ دمويّةٍ جديدةٍ.

3 - وربّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلّ بيت.

(1) صحيح السّيرة النبويّة ، ص 98.

(2) انظر: السّيرة النبويّة الصّحيحة (1/158).

4 - وربما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين، الَّذِينَ يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قاداته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!

5 - وربما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ النخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ، من عادتها أن تنور للمظلوم الذي يتحمَّل الأذى، ولا يتراجع.

6 - وربما كان ذلك أيضاً لقلَّة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكَّة.

المبحث الرابع

الهجرة إلى الحبشة

رجب السنة الخامسة للبعثة

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

1 - أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل الكفار يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكَّة، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلَّب في دينه، وعصمه الله منهم، فلمَّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله، ومن عمِّه أبي طالب، وأَنَّهُ لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظَلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوَّل هجرة كانت في الإسلام». [ابن هشام (344/1)](1).

ويمكننا تلخيص أهم أسباب الهجرة الى الحبشة بما يلي:

(1) **ظهور الإيمان:** حيث كثُر الدَّاخِلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثُر المسلمون، وظهر الإيمان، فتحدَّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن امن من قبائلهم، يعذبونهم، ويسجنونهم، وأرادوا فتنهم عن دينهم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال لِلَّذِينَ امنوا به: «تفرَّقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا»، وأشار إلى أرض الحبشة(2).

(1) الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص 290.

(2) المغازي النبويَّة ، للزُّهري ، تحقيق: سهيل زَكَّار ، ص 96.

(2) الفرار بالدين

(3) نشر الدعوة خارج مكة

روي عن جعفر رضي الله عنه انه قال للأشعرين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (4230)]. وهذا يعني: أتمم ذهبوا لمهمة معينة - ولا أشرف من مهمة الدعوة لدين الله - وأن هذه المهمة قد انتهت حين طُلب المهاجرون⁽¹⁾. ولم يبعث رسول الله عليه السلام في طلب مهاجري الحبشة حتى مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق والحديبية، فلو كان هدف الهجرة الفرار بالدين فقط لما تأخر الرسول عليه السلام في طلب مهاجري الحبشة.

البحث عن مكان آمن للمسلمين

2 - لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة؟

هناك عدّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السؤال؛ منها:

أ - أن بها ملكا لا يظلم عنده احد (التجاشي العادل)

ب - التجاشي الصالح:

فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ثناءؤه على ملك الحبشة، بقوله: «قد تُوفي اليوم

رجلٌ صالحٌ من الحبشة، فهلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (1320) ومسلم (66/952)].

ج - الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجَارَةَ كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ، والحبشة تُعدُّ من مراكز التِّجَارَةِ في الجزيرة، وقد

كانت قريش ترحل إليها رحلة الشتاء.

(1) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، ص 34.

د - الحبشة البلد الآمن:

بُعِدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانبٍ، وكونها لا تدين لقريشٍ بالاتباع كغيرها من القبائل⁽¹⁾ جعلها بلداً آمناً للمسلمين .

هـ - محبة الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشة، ومعرفته بها:

ففي حديث الزُّهري: أَنَّ الحبشة كانت أَحَبَّ الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إليها⁽²⁾.

3 - وقت خروج المهاجرين، وسريّة الخروج، والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجالٍ، وأربع نسوةٍ، وقيل: خمس نسوةٍ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مَكَّةَ، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا، متوجَّهين إلى الحبشة⁽³⁾.

وعند التأمل في فقه المرويات يتبيَّن لنا سريّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقدي: «فخرجوا متسلِّلين سرّاً»⁽⁴⁾، وعند الطَّبَّري⁽⁵⁾، ومَنْ يذكر السَّريّة في الهجرة: ابن سيّد النَّاس⁽⁶⁾، وابن القيم⁽⁷⁾، والزُّرقاني⁽⁸⁾. ولمَّا وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مَثوَاهم، وأحسن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم، وأهليهم، فعن أمِّ

(1) انظر: هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في القرآن والسُّنة ، ص 97.

(2) مغازي الزُّهري ، ص 96.

(3) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص 290 ، 291.

(4) طبقات ابن سعد (204/1).

(5) تاريخ الطَّبَّري (329/2).

(6) عيون الأثر (116/1).

(7) زاد المعاد (23/3).

(8) شرح المواهب (271/1) . . البداية والنهاية (96/3 ، 97)، وسيرة ابن هشام (344/1 . 452) والهجرة في القرآن الكريم ص 292 إلى 294.

سلمة زوج النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قالت: «لَمَّا نزلنا أرض الحبشة، جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ - النَّجَاشِيِّ - أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذِي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئاً نَكْرَهُهُ» [سبق تخرجه].

أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْهَجْرَةِ الْأُولَى إِلَى الْحَبَشَةِ:

● الرجال:

- عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس.
- عبد الله بن عوف بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة.
- الزُّبَيْر بن العَوَّام بن خُوَيْلِد بن أسد.
- أبو حذيفة بن عُتْبَةَ بن ربيعة بن عبد شمس.
- مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.
- أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.
- عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح.
- عامر بن ربيعة، حليف آل الخطَّاب من عَنَز بن وائل.
- سُهَيْل بن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أَهْيَب بن ضَبَّة بن الحارث.
- أبو سَبْرَةَ بن أَبِي زُهْم بن عبد العُزَّى بن أَبِي قَيْس عبد وُدَّ بن نصر بن مالك بن حِجْل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة.

● النساء:

- رَقِيَّة بنت النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم .
- سهيلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة، وولدت له بأرض الحبشة مُحَمَّد بن أبي حذيفة.

- أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.
 - ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد ابن عويج بن عدي بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.
 - أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سبرة بن أبي رهم⁽¹⁾.
- وكان أول من هاجر منهم، عثمان بن عفان، وامراته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى يعقوب بن سفيان: «إِنَّ عثمانَ لأَوَّلَ مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (1311)]⁽²⁾.

إِنَّ المتأمل في الأسماء سالفة الذكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي، الَّذِينَ نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخبّاب، وعمّار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب، والمكانة في قريش، ويمثّلون عدداً من القبائل، صحيح: أَنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنّه كان على الموالي أشدّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة، وترعى النَّسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعدّون أحقّ بالهجرة من غيرهم، ويؤيّد هذا: أَنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة⁽³⁾.

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمّة، ألا وهي: أن ثمة أسباباً أخرى تدفع للهجرة غير الأذى، اختار لها النبي صلى الله عليه وسلم نوعيةً من أصحابه، تُمثّل عدداً من القبائل، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ، وتَهْرُ هجرتهم قبائل قريش كلّها، أو معظمها من جانبٍ آخر، فمكّة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ آخر، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين

(1) البداية والنهاية (67/3)، نقلاً عن (الهجرة في القرآن الكريم)، ص 294. وانظر: فتح الباري، شرح حديث رقم (3872).

(2) أنساب الأشراف للبلاذري (156/1، 198)، وابن هشام (392/1، 396).

(3) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص 37.

الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب، وأبرك للدعوة إلى الله، فتفتتح عقول وقلوب حين يستغلق سواها⁽¹⁾.

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكة بعد هجرتهم الأولى:

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغير كبير على حياة المسلمين في مكة، ونشأت ظروف لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حمزة أعز فتيان قريش، وأشدّهم شكيمةً، فلما دخل في الإسلام؛ عرفت قريش: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّز، وامتنع، وأنّ عمه سيمنعه، ويحميه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه⁽²⁾.

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم؛ امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبجمزة؛ حتّى عازّوا قريشاً⁽³⁾.

كان إسلام الرجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامهما عزّة للمسلمين، وقهراً للمشرّكين، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعود: «إنّ إسلام عمر كان فتحاً، وإنّ هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنّا ما نصلي عند الكعبة حتّى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً؛ حتّى صلّى عند الكعبة، وصلّينا معه»⁽⁴⁾.

يمكننا تلخيص أهم أسباب العودة الأولى إلى الحبشة بما يلي:

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 295.

(2) السيرة النبوية (294/1)، وعازّوا قريشاً: أي: غلبوهم.

(3) السيرة النبوية، لابن هشام (365/1).

(4) صبا: خرج من دين إلى دين آخر، القاموس المحيط، باب الهجرة (20/1).

(1) اسلام حمزة بن عبد المطلب واسلام عمر بن الخطاب

(2) الحنين الى الوطن (مكة) - وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات -

ثالثاً: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى؛ اشتدَّ عليهم قومهم، وسطت بهم عشائهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرةً ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقةً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى، وإليَّ، لكم هاتان الهجرةتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله⁽¹⁾!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدَّتْهم - كما قال ابن إسحاق وغيره - ثلاثةً وثمانون رجلاً؛ إن كان عمار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السير كالواقدي، وابن عتبة، وغيرهما⁽²⁾، وثمانٍ عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيَّات، وسبعٌ غير قرشيَّات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً، ثم الذين وُلِدوا لهم فيها⁽³⁾.

(1) انظر: الرُّوضُ الأنف، للسُّهيلي (228/3).

(2) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 303.

(3) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 304.

1 - سعي قريش لدى النجاشي في ردّ المهاجرين:

لَمَّا رَأَتْ قَرِيشُ: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمْنُوا، وَاطْمَأْنَنُوا بِأَرْضِ الْحَبْشَةِ، وَأَتَّهَمُوا قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَارًا وَاسْتَقَرَّارًا، وَحُسِّنَ جَوَارٍ مِنَ النَّجَاشِيِّ، وَعَبَدُوا اللَّهَ، لَا يُؤْذِيهِمْ أَحَدٌ؛ ائْتَمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا وَفْدًا لِلنَّجَاشِيِّ لِاحْضَارِ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ يَوْقِعُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْوَفْدَ خَدِمَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي، فَقَدْ أَسْفَرَتْ مَكِيدَتُهُ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ عَنْ حِوَارٍ هَادِفٍ، دَارَ بَيْنَ أَحَدِ الْمُهَاجِرِينَ، وَهُوَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَبَيْنَ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، أَسْفَرَ هَذَا الْحِوَارَ عَنْ إِسْلَامِ النَّجَاشِيِّ، وَتَأْمِينِ الْمُهَاجِرِينَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُ.

فَعِنَ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبْشَةِ، جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ (النَّجَاشِيِّ)؛ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى، لَا نُؤْذِي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قَرِيشًا؛ ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ⁽¹⁾، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يَسْتَطِرْفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْآدَمُ⁽²⁾، فَجَمَعُوا لَهُ آدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ⁽³⁾ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ابْنَ الْمُغِيرَةِ الْمُخَزُومِيَّ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمْرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بَطْرِيقٍ هَدِيَّةً قَبْلَ أَنْ تَكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمَا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلَاهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يَكَلِّمَهُمْ. قَالَتْ: فَخَرَجَا، فَقَدَّمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَخَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يَكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بَطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ صَبَأٌ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنْ غُلْمَانِ سَفَهَاءَ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ، وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَعْمَامِهِمْ؛ لَتَرُدُّوهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ؛

(1) الجلد: القوَّة والشدة.

(2) الآدم: جمع آدم ، وهو الجلد المدبوغ.

(3) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.

فأشيروا عليه بأن يُسَلِّمَهُم إلينا، ولا يكلِّمَهُم، فإنَّ قومهم أعلى بهم عينا⁽¹⁾، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قَرَّبَا هداياهما إلى النَّجاشيِّ، فقبلها منهما، ثمَّ كلَّمَاه، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صَبَأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن، ولا أنت، وقد بَعَثْنَا فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم، وأعمامهم، وعشائهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، من أن يسمع النَّجاشيُّ كلامهم، فقالت بطارقه حوله: صدقا أيها الملك! قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلَّمَهُم إليهما، فليردَّاهُ إلى بلادهم، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ، ثمَّ قال: لا هَيْمٌ⁽²⁾ الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد⁽³⁾، قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتَّى أدعوهم، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك؛ منعتهم منهما، وأحسن جوارهم، ما جاوروني⁽⁴⁾.

2 - حوارٌ بين جعفر، والنَّجاشيِّ:

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم، فلمَّا جاءهم رسوله؛ اجتمعوا، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل؛ إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا، وما أمَّرنَا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ، كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلمَّا جاؤوه، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته⁽⁵⁾، فنشروا مصاحفهم⁽⁶⁾ حوله، سألهم، فقال: ما هذا الدِّين الذي فارقتُم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

(1) أعلى بهم عينا: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم ، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر: الرُّوض الأنف (92/1).

(2) والمعنى: لا والله!

(3) لا أكاد: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.

(4) أخرجه أحمد (290/5) وقال: إسناده صحيح ، ورقمه (22498).

(5) أساقفته: جمع الأسقف ، وهو العالم والرئيس من علماء النَّصارى.

(6) أي: أناجيلهم ، وكانوا يسْمُونَهَا مصاحف.

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: أيُّها الملك! كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ من الضَّعيف، فكُنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصَّلاة، والزَّكاة، والصَّيام. قالت: فعَدَدَ عليه أمور الإسلام - فصدَّقناه، وامنّا به، واتَّبَعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث، فلمّا قهرونا، وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك⁽¹⁾.

قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدرّاً من ﴿كهيعص﴾، قالت: فبكى، والله النَّجاشيُّ، حتّى أخْضَلَ⁽²⁾ لحيته، وبكت أساقفته، حتّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنّ هذا - والله! - والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا؛ فوالله لا أُسَلِّمُهُم إليكما أبداً، ولا يُكادون⁽³⁾.

3 - محاولة أخرى للدس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ:

قالت: فلمّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النَّجاشيِّ؛

(1) مسند الإمام أحمد (202/1 ، 203).

(2) ابتلت بالدُّموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندى، النهاية (43/3).

(3) مسند الإمام أحمد (202/1 ، 203)، ولا يُكادون: لعل المعنى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدهم، ويعذبوهم.

قال عمرو بن العاص: والله! لا تينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم⁽¹⁾. قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - لا تفعل؛ فإنّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرته أنّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبداً، قالت: ثمّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم، فاسألهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطّ، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول - والله! - فيه ما قاله الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه أنّ الذي جاء به نبينا، هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء⁽²⁾ البتول⁽³⁾.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمّ قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت⁽⁴⁾ بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شيوّم بأرضي (والشيوّم الامنون)؛ من سبكم غرم، ثمّ من سبكم غرم، فما أحبُّ أن لي دبراً ذهباً، وأني اذيتُ رجلاً منكم، والدبر بلسان الحبشة الجعل، ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بهما، فوالله! ما أخذ الله مني الرّشوة حين رد عليّ مُلكي؛ فأخذ الرّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجنا من عنده مقبّوحين، مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. [أحمد (202/1 - 203) و(290/5 - 292) وابن هشام (357/1 - 362) وأبو نعيم في دلائل النبوة (194) والبيهقي في الدلائل (301/2 - 304)].

(1) أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتث به شجرة حياتهم.

(2) العذراء: الجارية التي لم يمسّها رجلٌ، وهي البكر.

(3) يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرجال، لا شهوة لها فيهم.

(4) فتناخرت: أي: تكلمت، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٍ.

4 - إسلام النَّجاشي:

وقد أسلم النَّجاشي، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لِمَا علمه فيهم من الثَّبات على الباطل، وحرصهم على الضَّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة - وإن صَادمت العقل، والنَّقل - [البخاري (1245) ومسلم (62/951 و63)]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصَفَّ بهم، وكَبَّرَ عليه أربع تكبيراتٍ»⁽¹⁾، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حين مات النَّجاشيُّ: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ؛ فقوموا، فصلُّوا على أخيكُم أضحمة» [البخاري (3877)] . وكانت وفاته - رحمه الله! - سنة تسعٍ عند الأكثر، وقيل: سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»⁽²⁾.

دروس، وعبر، وفوائد:

- 1 - إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنزلَ بهم الأشرار، والضَّالُّون أنواع العذاب، والاضطهاد دليلٌ على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم، وأرواحهم.
- 2 - شفقة الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشَّدِيد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم.
- 3 - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً، ولذلك حرص النَّبيُّ عليه السلام على اختيار نوعياتٍ معيَّنة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام، وموقف قريشٍ منه، وإقناع الرُّأي العامِّ بعدالة قضية المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ، يشرح قضاياها، وكسب الرُّأي العامِّ إلى جوارها⁽³⁾، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه⁽⁴⁾.

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 309.

(2) أسد الغابة (99/1) ، والإصابة (109/1).

(3) أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص 427.

(4) انظر: التَّربية القياديَّة (333/1).

4 - إِنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضي الله عنهم جميعاً - في مقدِّمة المهاجرين له دلالة عميقة، تشير إلى أَنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد، وأهله، ورحمه، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأى عن الخطر، ويُدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم⁽³⁾.

5 - مشروعية الخروج من الوطن - وإن كان الوطن مكَّة على فضلها - إذا كان الخروج فراراً بالدين -

6 - يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك وهذا مشروطٌ - بحكم البداهة - بالألَّا تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرِّمات، وإلَّا لم يُجْز للمسلم الدُّخول فيها.

7 - إِنَّ اختيار الرِّسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ، تمثَّلت في معرفة الرِّسول صلى الله عليه وسلم بما حوله من الدُّول، والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها، وعادلها مِنْ ظالمها، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ آمنةٍ لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملماً بما يجري حوله، مطلَّعاً على أحوال، وأوضاع الأمم، والحكومات⁽¹⁾.

8 - يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرِّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلاً، وخفيةً؛ حتَّى لا تفتن له قريشٌ، فتحبطه، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيقٍ.

9 - اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي، طلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه.

10 - كان وعي القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث، ولذلك وُضع جعفر بن أبي

(1) انظر: في البَيِّنة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 101.

طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة، وسيِّد الأُمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة.

حُلِّق جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوة، وجمال حُلِّقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لجعفر: «أشبهت حُلَّقِي، وحُلَّقِي» [البخاري (2699) والترمذي (3765)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان، وكرِّ العصور، فقد انَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام، والانتماء إليه، والفصاحة، والعلم، وحسن الخلق، والصَّبْر، والشَّجاعة، والحكمة، وسعة الحيلة، والمظهر الجذَّاب⁽¹⁾.

فائدة: من أهم صفات القائد الذكاء والبلاغة والفصاحة والثبات على الحق

11 - كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشي في غاية الذِّكاء، وقمَّة المهارة السياسية، والإعلاميَّة، والدَّعويَّة، والعقدية؛ فقد قام بالتَّالي:

- عدَّد عيوب الجاهليَّة، وعرضها بصورة تنقِّر السَّامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركَّز على الصِّفات الذِّميمة؛ الَّتِي لا تُنتزع إلا بنبوَّة.
- عرض شخصيَّة الرِّسول صلى الله عليه وسلم، في هذا المجتمع الآسن⁽²⁾، المليء بالزَّدائل، وكيف كان بعيداً عن النَّقائص كُلِّها، ومعروفاً بنسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فهو المؤهَّل للرِّسالة.
- أبرز جعفر محاسن الإسلام، وأخلاقه، الَّتِي تتَّفَق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛ كنبيذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم،

(1) انظر: سفراء النَّبي صلى الله عليه وسلم لمحمود شيت خطاب (252/2 إلى 317).

(2) الآسن: المتغيَّر الفاسد.

وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدِّماء، وإقام الصَّلَاة، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتِي بعثوا بها من لدن موسى، وعيسى عليهما الصَّلَاة، والسَّلَام.

● فضح ما فعلته قريشُ بهم؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان، وامنوا بما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وتخلَّقوا بخلقه.

● أحسن الثَّنَاء على النَّجاشيِّ بما هو أهله، بأنَّه لا يُظلم عنده أحدٌ، وأنَّه يقيم العدل في قومه.

● وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفًا من دون النَّاس، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذِينَ يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البَيِّنَة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرو، وفصاحته، واستأثر بلبِّ النَّجاشي، وعقله، وكذلك استأثر بلبِّ وعقل البطارقة، والقسيسين الحاضرين.

وخطاب جعفر رضي الله عنه امام النجاشي يصلح ان يكون نبراساً هادياً لكل داعية وخطيب في اصول الدعوة والخطابة.

12 - ومن دروس هجرة الحبشة: أنَّ الجَهِل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحة لا يضرُّ. قال ابن تيمية - رحمه الله! -: وهو يقرّر العذر بالجَهِل: «ولمَّا زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، كان مَنْ بعيداً عنه - مثل من كان بمَكَّة، وبأرض الحبشة - يصلُّون ركعتين، ولم يأمرهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بإعادة الصَّلَاة»⁽¹⁾. وقال الذَّهبي: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجَّة، وقد كان سادة الصَّحابة بالحبشة ينزل الواجب، والتَّحريم على النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجَهِل، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»⁽²⁾.

(1) الفتاوى (43/22).

(2) الكبائر، ص 12.

13 - كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شكٍ أثرٌ من آثار الهجرة للحبشة، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة، من خلال مكوّنهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النّجاشيّ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر⁽¹⁾، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ، كما يقول الزُّرقاني⁽²⁾، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

14 - يرتبط زواج الرّسول صلى الله عليه وسلم بأُمّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً، ويحمل هذا الزّواج منه صلى الله عليه وسلم لإحدى المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً، وكان عقد الزّواج على أُمّ حبيبة رضي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة، وجاء تأكيدُه في كتب السُّنة، فقد روى أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أُمّ حبيبة رضي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النّجاشيّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم مع شُرَّحيل بن حسنة. [أبو داود (2107)].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمّ، متابعة الرّسول صلى الله عليه وسلم لأحوال المهاجرين، ومشاركتهم في مصابهم، وتطبيب أنفس الصّابرين، وتقدير ثبات الثّابتين. وبالتّبع لأحوال المهاجرات، لا نجد (أُمّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الّتي يُعنى الرّسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأمرها، ويواسيها في مصابها، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها⁽³⁾، فلمّا رجعت مع زوجها إلى مكّة من الحبشة، توفّي زوجها السّكران بن عمرو، فلمّا حلّت؛ أرسل إليها صلى الله عليه وسلم ، وخطبها، فقالت: أمري إليك يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مُري رجلاً من قومك يزوّجك، فأمرت حاطب

(1) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 167.

(2) انظر: شرح المواهب (271/1).

(3) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص 188.

بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ، فزوّجها، فكانت أوّل امرأة تزوّجها رسول الله بعد خديجة⁽¹⁾.

وهذان الحدثان مؤشّران من مؤشّرات حِكم تعدّده صلى الله عليه وسلم في الزّواج بشكلٍ عامٍّ، ولهما دلالتهما، وحكمتهما بالاهتمام بالنّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ، هذا فضلاً عمّا يمكن أن يقال من أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم كان يهدف أيضاً من وراء الزّواج بأمّ حبيبة، تخفيف عداوة «بني أميّة» بشكلٍ عامٍّ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصّ للإسلام، ونبيّه، والمسلمين⁽²⁾.

فالتّأليف للإسلام واردٌ في السّيرة، والرّسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على قومه بكلّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام⁽³⁾.

15 - يرى بعض الباحثين: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى الحبشة، لأسبابٍ كثيرة؛ منها:

- أنّه ثبت - كما سيجيء - رؤية النّبيّ صلى الله عليه وسلم دار الهجرة: أرضاً ذات نخل، بين حرّتين، وأنّه ظنّها هجر⁽⁴⁾.

- طبيعة الوضع الجغرافيّ للحبشة؛ الذي يعوق انتشار الدّعوة، وبسط سلطانها على العالم.
- أنّ اختيار الجزيرة العربيّة ومكّة بالذّات، ثمّ المدينة لنزول الوحي، وانطلاق الدّين لم يكن اتّفاقاً، بل كان لمميزاتٍ كثيرة⁽⁵⁾.

- أنّ هذه البيئة الحبشيّة لم تكن لتسمح لهذا الدّين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحيّة، ولم تكن الرّومان - وهي المهيمنة على المسيحيّة في العالم - لتسمح للحبشة بذلك⁽⁶⁾.

(1) الطّبقات (3/8).

(2) السّيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، د. مهدي رزق الله، ص 706، 707.

(3) انظر: شرح المواهب (271/1).

(4) هجر: هي الأحساء.

(5) انظر: الغرّاء الأوّلون، ص 169، 170.

(6) انظر: أضواء على الهجرة، ص 156 إلى 161، والهجرة في القرآن الكريم، ص 320.

16 - كان للهجرة إلى الحبشة أثرٌ في الحطّ من مكانة القرشيين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدّعوة، وحملتها؛ إذ كانت البيئة العربيّة تفتخر بإيواء الغريب، وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السُّبّة، والعار في خلافه، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً، ويؤوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشرف النّاس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم⁽¹⁾.

⁽¹⁾ انظر: الغراء الأولون ، ص 170 ، 171.

المبحث الخامس

الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة:

قال الزُّهري: «ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ اشْتَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَأَشَدِّ مَا كَانُوا؛ حَتَّى بَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الْجَهْدَ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَأَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَةً؛ فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٌ عَمَلَ الْقَوْمِ؛ جَمَعَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْبَهُمْ، وَيَمْنَعُوهُ مِمَّنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ مُسْلِمُهُمْ وَكَافَرُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَهُ حَمِيَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَهُ إِيمَانًا، وَيَقِينًا، فَلَمَّا عَرَفَتْ قُرَيْشٌ: أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ مَنَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ أَلَّا يَجَالِسُوهُمْ، وَلَا يَبَايَعُوهُمْ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْوتَهُمْ؛ حَتَّى يُسَلِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْقَتْلِ، وَكَتَبُوا مِنْ مَكْرِهِمْ صَحِيفَةً، وَعَهْدًا وَمَوَاقِيقَ؛ أَلَّا يَقْبَلُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَبَدًا صَلَاحًا، وَلَا تَأْخُذَهُمْ بِهِمْ رَافَةً؛ حَتَّى يَسْلَمُوهُ لِلْقَتْلِ⁽¹⁾.

بنود وثيقة الحصار

- 1- أَلَّا يَنْكَحُوا إِلَيْهِمْ، وَلَا يُنْكَحُوهُمْ
 - 2- وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ
 - 3- وَلَا يَدْعُوا سَبِيًّا مِنْ أَسْبَابِ الرِّزْقِ يَصِلَ إِلَيْهِمْ
 - 4- وَلَا يَقْبَلُوا مِنْهُمْ صَلَاحًا
 - 5- وَلَا تَأْخُذَهُمْ بِهِمْ رَافَةً، وَلَا يَخَالِطُوهُمْ، وَلَا يَجَالِسُوهُمْ، وَلَا يَكَلِّمُوهُمْ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْوتَهُمْ، حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْقَتْلِ
- « ثُمَّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاقَفُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ عَلَّقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جُوفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ⁽²⁾.

فلبث بنو هاشم في شِعْبِهِمْ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَالْجَهْدُ، وَقَطَعُوا عَنْهُمْ

(1) لمعرفة تفصيلات قصّة الشَّعْب وما تَحَلَّلَهَا مِنْ أَحْدَاثٍ ، انظر: دلائل النبوة للبيهقي (80/2 . 85) ، والسيرة النبوية ، لابن كثير (43/2 . 72) ، والروض (101/2 . 129) ، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (375/1 . 376).

(2) السيرة النبوية ، لابن هشام (350/1) ، وزاد المعاد (46/2) ، والكامل في التاريخ (87/2).

الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكة ولا يبعأ إلا بادروهم إليه، فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم (1).

حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بشظف العيش، وشدته إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول، فيسمع بقعقة شيء تحتها، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فيأخذها، فيغسلها، ثم يحرقها، ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام (2)، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشَّعب من الجوع (4).

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله - سبحانه وتعالى - لنقض الصحيفة أناساً من أشرف قريش، أولهم هشام بن عمرو الهاشمي الذي بادر لمقابلة بعض أشرف قريش الذين ساءهم ما يحدث لبني هاشم والمسلمين وتعاهدوا أن يذهبوا بنقض الصحيفة. اتجهوا إلى الكعبة وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشققها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم» (3).

دروس، وعبر، وفوائد:

1 - أهمية روح المبادرة فقد كان هشام بن عمرو وحيداً فبادر للاتصال بأشرف قريش لنقض هذه الصحيفة.

2 - إن المتأمل لبنود هذه الاتفاقية، يجد: أن قريشاً قد أحكمت البنود، ولم تدع فيها ثغرة يمكن النفاذ من خلالها، مما يؤكد: أنها وضعت بعد مداولات، ومشاورات على نطاق واسع، وشاركت في وضعها عقول مفكرة، امتزجت معها خبرات عديدة، وحبكها ذكاء مفرط.

3 - تنبه قريش إلى أهمية الجانب الاجتماعي في عدم الزواج بين الطرفين، فالزواج غالباً ما يؤدي إلى التالف، والتأخي، والتراحم، والتواصل، والتزاور بين أهل الزوجين، فإذا تم شيء من ذلك؛ فسيؤدي إلى فشل الحصار، وحتى لا يحدث ذلك نصت الوثيقة على عدم الزواج بين الطرفين.

(1) انظر: ظاهرة الإرجاء (51/1).

(2) انظر: الغرياء الأولون، ص 148، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (7).

(3) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (2/43، 50، 67، 69).

4 - تنبه قريش الى أهمية الجانب الاقتصادي فالبيع، والشراء عصب الحياة الاقتصادية، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر. ولأهمية الحصار الاقتصادي بالنسبة لقريش، وضعوا بنداً يسدُّ الطريق أمام المسلمين في التعامل مع التجار الوافدين من خارج مكة.

5 - والبند التالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً»، يسدُّ الطريق أمام أيّ خيارٍ آخر سوى تسليم محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم، أمّا البند الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رافةً»، فهو بندٌ يضع قيوداً حتى على العواطف.

وما اشبه اليوم بالبارحة حيث يمنع الناس حتى من التعاطف مع الدعاة تحت طائلة القوانين الظالمة.

6 - وفي «عدم مجالستهم، ومخالطتهم، وكلامهم»، سدُّ ثغرةٍ مهمّةٍ ربّما جاء من قبلها خطرٌ على المقاطعة والحصار؛ لأنَّ المجالسة، والمخالطة، والكلام مع المسلمين، يؤدّي إلى النقاش، وتبادل الآراء، ووجهات النظر، فقد يُقنع المسلمون بعض أهل الصّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسلمين يملكون من الحقِّ والأدلة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم، وحتى لا يتمّ ذلك نصّت الصّحيفة على عدم المجالسة، والمخالطة والكلام.

فائدة: وفي هذا توجيه للداعية ان لا يعزل نفسه عن الآخرين فالجالس والمخالطة والزيرة مدعاة للتأثير في الآخرين

5 - قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم»، بندٌ لا يختلف عمّا سبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرك الجوانب الإنسانية في النفس. **وهنا تكمن أهمية زيارة الدعاة للناس في بيوتهم.**

7 - وتعليق الصّحيفة في الكعبة يعطيها قدسيّة، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة التي يجب التّقيد، والالتزام بها، فالعرب قاطبةً تقدّس الكعبة، وتضع لها مكاناً سامياً من الحرمة والقدسيّة، لذا عمّدت قريش إلى تعليق الصّحيفة داخل الكعبة⁽¹⁾.

8 - إنّ مشركي بني هاشم، وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنّه يسع المسلم أن يستفيد من

(1) انظر: في السيرة النبويّة قراءة. لجوانب الحذر والحماية، ص 96، 97.

قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة، على أن يكون ذلك مبنياً على فتوى صحيحة من أهلها⁽¹⁾.

9 - إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضماناً للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك، وغيره من خلال موازنات دقيقة⁽²⁾.

10 - لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التحالف الباغي إلا بالحرب السياسية من جهة، ومحاولة تفتيت هذا التحالف بالحرب الاعلامية ولهذا نظم القصائد التي استطاعت أن تحرك كامن العصبية عند أقارب بني هاشم، حيث ائتمروا سرّاً، ودعوا إلى نقض الصحيفة⁽³⁾.

فائدة: وهنا تظهر أهمية الإعلام في إيصال المظالم لكل شخص مؤثر والمساهمة في

رفعها

11 - كانت تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يُشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإنَّ أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة؛ حمزة، وعمر، وأبو بكر، وعثمان، وغيرهم - رضي الله عنهم - سمعوا وأطاعوا، فلقوا كلَّ هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يوم واحد فقط، بل ثلاث سنين عجافٍ، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجرة رأس⁽⁴⁾.

12 - أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده، وتبعده عن التصرفات الطائشة؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإشعال معركة غير مدروسة - لا يعلم إلا الله مداها - وغير متكافئة.

13 - كانت الدَّعوة الإسلامية تحقّق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزد شنوءة، وفي دوس، وفي غفار، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضح، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين،

(1) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها، السيرة النبوية، لسعيد حوى (264/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: التحالف السياسي، للغضبان، ص 35 إلى 37.

(4) انظر: التربية القيادية (371/1).

ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

14 - كانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد زاداً عظيماً في البناء، والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمّل الام الجوع، والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغظ على النفوس، والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

15 - قيام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى، وعبد المصالح والمنافع.

16 - كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كلّ القبائل العربية من خلال موسم الحج.

17 - آثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما آثار عطفهم على النبي وأصحابه، فما إن انفك الحصار، حتّى أقبل الناس على الإسلام، وحتّى ذاع أمر هذه الدعوة، وتردّد صداها في كلّ بلاد العرب، وهكذا ارتدّ سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قوياً من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية، عكس ما أراد زعماء الشرك تماماً⁽¹⁾.

18 - كان لوقوف بني هاشم، وبني المطلب مع رسول الله ، وتحملهم معه الحصار الاقتصادي والاجتماعي، أثر في الفقه الإسلامي؛ حيث إنّ سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

19 - على كل شعب في أيّ وقت يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسابه احتمالات الحصار، والمقاطعة من أهل الباطل.

(1) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 101.

المبحث السادس

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

1 - وفاة أبي طالب:

كانت وفاة أبي طالب بعد مغادرة بني هاشم شعبه، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث⁽¹⁾. وقد كان أبو طالب «يحوط النبي صلى الله عليه وسلم، ويغضب له» [البخاري (3883) ومسلم (209)] و«ينصره» [مسلم (358/209)]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشّرك، وحرّضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام قائلًا: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا تعيّرني بها قريش، يقولون: إنّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصاص: 56] [مسلم (25) والترمذي (3188) وأحمد (434/2)].

كانت أفكار الجاهليّة راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكّن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره، وما ألفه عن ابائه، وكان أقرّانه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه⁽²⁾.

2 - وفاة السيّدة خديجة رضي الله عنها:

أمّا السيّدة خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين⁽³⁾ في العام نفسه لوفاة أبي طالب⁽⁴⁾.

(1) فتح الباري، شرح حديث رقم (3883).

(2) انظر: السيرة النبويّة الصّحيحة، للعمري (184/1).

(3) انظر: السيرة النبويّة الصّحيحة، للعمري (185/1).

(4) المصدر السابق نفسه.

وَمُوتَ أَبِي طَالِبٍ؛ الَّذِي أَعْقَبَهُ مَوْتَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَضَاعَفَ الْحُزْنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِفَقْدِ هَذَيْنِ الْحَبِيبَيْنِ؛ اللَّذَيْنِ كَانَا دَعَامَتَيْنِ مِنْ دَعَائِمِ سِيرِ الدَّعْوَةِ فِي أَزْمَاتِهَا، فَقَدْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ السَّنَدَ الْخَارِجِيَّ الَّذِي يَدْفَعُ عَنْهُ الْقَوْمَ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السَّنَدَ الدَّاخِلِيَّ الَّذِي يُخَفِّفُ عَنْهُ الْأَزْمَاتِ وَالْمَحَنَ، فَتَجَرَّأَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَالُوا مِنْهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَطْمَعُونَ فِيهِ فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ⁽¹⁾. وَابْتَدَأَتْ مَرَحَلَةُ عَصِيَّةٍ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاجَهَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْمَشْكَلَاتِ، وَالْمَصَاعِبِ، وَالْمَحَنَ، وَالْفِتَنَ حِينَمَا أَصْبَحَ فِي السَّاحَةِ وَحِيدًا لَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَمَعَ هَذَا؛ فَقَدْ مَضَى فِي تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، عَلَى مَا يَلْقَى مِنَ الْخِلَافِ وَالْأَذَى الشَّدِيدِ؛ الَّذِي أَفَاضَتْ كَتَبَ الْحَدِيثِ، وَكَتَبَ السِّيَرِ، بِأَسَانِيدِهَا الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ، وَتَحَمَّلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَنَوَّعَ الْجِبَالُ بِحِمْلِهِ. وَلَمَّا تَكَالَبَتِ الْفِتَنَ، وَالْمَحَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَلَدِهِ الَّذِي نَبَتَ فِيهِ، وَبَيْنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ عَنْهُ كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، عَزَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ بَلَدِهِ، وَقَوْمٍ غَيْرِ قَوْمِهِ؛ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ، وَيَلْتَمِسَ مِنْهُمْ نَصْرَتَهُمْ؛ رَجَاءً أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ، وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ الْبِلَادِ إِلَى مَكَّةَ⁽²⁾.

ثَانِيًا: رَحْلَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ:

كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْوِّعُ، وَيَبْتَكِرُ فِي أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ، فَدَعَا سِرًّا وَجَهْرًا، وَسَلَمًا وَحَرْبًا، وَجَمْعًا وَفَرْدًا، وَسَفَرًا وَحَضْرًا، كَمَا أَنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَّ الْقَصَصَ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَاسْتَعْدَمَ وَسَائِلَ الْإِيضَاحِ بِالْخَطِّ عَلَى الْأَرْضِ، وَغَيْرِهِ، كَمَا رَغِبَ وَبَشَّرَ، وَرَهَّبَ وَأَنْذَرَ، وَدَعَا فِي كُلِّ انِّ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، وَبِكُلِّ أَسْلُوبٍ مُؤَثِّرٍ فَعَالٍ⁽³⁾، فَهَا هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْتَقِلُ إِلَى الطَّائِفِ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْقِبَائِلِ، ثُمَّ يَهَاجِرُ، وَيَسْتَمِرُّ فِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

(1) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص 34.

(2) المصدر السابق نفسه (ص 36. 45).

(3) انظر: مقومات الدعوة والدعاة، بادحدح، ص 123.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة، وطلبَ النَّصرة من ثقيفٍ، لكنَّها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها، فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بَعْدَّاس الَّذِي كان نصرانيًّا، فأسلم، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شَوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب، وخديجة، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف، كانت عشرة أيام⁽¹⁾.

قال ابن هشام في السِّيرة: لَمَّا انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ، هم يومئذٍ سادة ثقيف، وأشرفهم، وهم إخوةُ ثلاثة: عبدُ يا لَيْل بن عمرو ابن عُمَيْرٍ، ومسعود بن عمرو بن عُمَيْرٍ، وحبيب بن عمرو بن عُمَيْر بن عُقْدَةَ بن غَيْرَةَ بن عَوْف بن ثقيف، وعند أحدهما امرأةٌ من قريش من بني جُمَح⁽²⁾؛ غير أنَّ بني عمرو كانوا شديدي الحذر، وكثيري التَّخوُّف، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خير ثقيفٍ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكنتموا عني»⁽³⁾، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيؤذَّروهم⁽⁴⁾ ذلك عليه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جَوْ من السَّريَّة، وألا تنكشف تحركاته لقريش [876]؛ فقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يهتُم كثيرًا بجوانب الحيطة، والحذر، فقد:

أ - كان خروجه من مكَّة على الأقدام، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكبًا؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة، والشُّكوك، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب - واختيار الرَّسول صلى الله عليه وسلم زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّة؛ فزيد هو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتَّبني، فإذا راه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ

(1) طبقات ابن سعد (221/1)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (185/1).

(2) سيرة ابن هشام (78/2).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) فيؤذَّروهم: يجزَّئهم ويثيرهم.

من الشَّلِّ، لقوَّة الصِّلَة بينهما، كما أنَّه صلى الله عليه وسلم عرف زيدا عن قرب، فعلم فيه الإخلاص، والأمانة، والصِّدق، فهو إذاً مأمونُ الجانب، فلا يُفشي سرّاً، ويُعتمد عليه في الصُّحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقِي النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الحجارة بنفسه، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج - وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائِف ردّاً قبيحاً مشوباً بالاستهزاء، والسُّخرية؛ تحمَّله الرِّسول صلى الله عليه وسلم، ولم يغضب، أو يثُر؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرُّفٌ غايةٌ في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب، والاضطهاد، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل، وخارج مكَّة⁽¹⁾.

تَضَرُّعٌ ودعاء:

كان بنو عمرو لئاماً، فلم يكتموا خبر الرِّسول صلى الله عليه وسلم؛ بل أغرَّوا به سفهاءهم، وعبيدهم، يسبُّونه، ويرمون عراقبيه بالحجارة، حتَّى دميت عقباه، وتلطَّخت نعلاه، وسال دمه الزُّكي على أرض الطَّائِف، وما زالوا به، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعبته، وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحان من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويَرَيان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائِف، ولم يحركا ساكناً، وفي هذه الغمرة من الأسى، والحزن، والالام النفسيَّة، والجسمانيَّة توجه الرِّسول صلى الله عليه وسلم إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً، و يقيناً، ورضاً بما ناله في الله، واسترضاء الله: «اللَّهُمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتِي، وقَلَّةَ حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟⁽²⁾ أم إلى عدوِّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الَّذي

(1) انظر: أصول الفكر السِّيَاسِيّ في القرآن المكي.

(2) تجهّمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحّب به، ولا راغب فيه.

أشرفت له الظلمات، وصُلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العُتبى⁽¹⁾ حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!» [ابن هشام في السيرة النبوية 61/2 - 62) والقرطبي في تفسيره (195/16) والطبراني في المعجم الكبير (346/25) والهيثمي في مجمع الزوائد (35/6)(2) .

الرَّحْمَةُ، وَالشَّفَقَةُ النَّبَوِيَّةُ:

كانت رحمته، وشفقته العظيمة هي التي تغلب في المواقف العصبية؛ التي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة، هي الغالبة⁽³⁾.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، أنَّها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العُقبة؛ إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يالِيلِ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرنِ الثَّعالبِ⁽⁴⁾، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم. فناداني ملكُ الجبال، فسلم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبين. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلاهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً. [البخاري (3231) ومسلم (1795)].

(1) العتبى: الاسترضاء والرضا.

(2) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبَوِيَّةُ الصحيحة (186/1)، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته، وبين أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبَوِيَّةُ) ص 136، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلموه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقه قويٌّ مقبول، وخرَّج طريقه في كتابه الهجرة النَّبَوِيَّةُ المباركة، ص 38.

(3) انظر: مقومات الدَّاعية النَّاجح، ص 76.

(4) هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، ويسمَّى الآن السيل الكبير.

كانت إصابته صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ، أبلغ من النَّاحِيَةِ الجَسْمِيَّةِ، أمَّا من النَّاحِيَةِ النفسِيَّةِ؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائِفِ أبلغ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاباً كبيراً لنفسه، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائِفِ إلى قَرْنِ التَّعَالِبِ⁽¹⁾.

من مناهج التَّغيير:

رفض النبي صلى الله عليه وسلم منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرَّر الدُّخول إلى مَكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد، لم يَحْتَرِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذِي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مَكَّة الكافرة، وليس الانسحاب منها، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها، الَّتِي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسَّساتها، واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين، الَّذِي سيولد من أحشائها؛ أي: أَنَّهُ كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين، المقاتلين في سبيل الله، فالنَّظر النَّبَوِيُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورة جليَّة، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر⁽²⁾.

دخل النبي مكة بمنهجية وإستراتيجية جديدة وهي الدخول في جوار المطعم بن عدي (وهو من خزاعة) وقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرِّسول صلى الله عليه وسلم الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً، محتفياً، دخلها ويجرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش، على مسمعٍ منهم، ومرأى.

(1) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (26/3، 27).

(2) انظر: أصول الفكر السِّياسي في القرآن المكي، ص 176.

ولا ننسى: أنَّ المطعم مِمَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة (صحيفة المقاطعة) وقد حفظ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صنيع مُطْعِم بن عديٍّ، وعرف مدى الخطورة الَّتِي عرَّض نفسه، وولده، وقومه لها من أجله، فقال عن أُسارى بدرِ السَّبعين يوم أسَّره: «لو كان المُطْعِمُ بِنُ عديٍّ حيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ؛ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» [البخاري (4024) وأبو داود (2689) وأحمد (80/4)].

فرغم العداء العقديِّ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة، ويجارُها، ومن يناصِرُها، ويسالمها، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة الثُّبُوَّة أن تتنكَّر للجَمِيل⁽¹⁾.

قِصَّةُ عَدَّاسِ النَّصْرَانِيِّ، وَإِسْلَامِ الْجَنْ:

لقد حقَّقت رحلة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم انتصاراتٍ دَعَوِيَّةً رَفِيعَةً المُستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصْرَانِيُّ عَدَّاس؛ الَّذِي أسلم⁽²⁾، كما وصلت الدَّعوة إلى الجَنْ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا، ثُمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِينَ.

أ - قِصَّةُ عَدَّاسِ:

لَمَّا تعرَّض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للأذى من أهل الطَّائِف، وخرج من عندهم، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، وراه عتبة، وشيبة؛ رَقًّا لَهُ، ودَعَا غلاماً لهما نصرانيًّا يُقال له: (عَدَّاس)، فقالا له: حُذِّ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعَنْبِ، فَضَعَهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ، ثُمَّ اذْهَبْ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ. ففعل عَدَّاس، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُلْ. فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِيهِ يَدَهُ؛ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، ثُمَّ أَكَلَ، فَنَظَرَ عَدَّاسٌ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ! إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَمَنْ أَهْلُ أَيْ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟! وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى.

(1) انظر: التَّحَالُفُ السِّيَاسِيُّ فِي الْإِسْلَامِ، ص 44.

(2) انظر: الرَّسُولُ الْمُبَلِّغُ، لِلْخَالِدِيِّ، ص 39، 40.

فقال رسول الله: من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى. فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن مَتَّى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبيٌّ، فأكَبَّ عدَّاس على رسول الله يقبِّل رأسه، ويديه، وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلمَّا جاءهما عدَّاس؛ قالَا له: ويلك يا عدَّاس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل، ويديه، وقدميه؟! قال: يا سيِّدي، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالَا له: ويحك يا عدَّاس! لا يصرفنَّك عن دينك، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه. [ابن هشام (62/2 - 63) وتفسير القرطبي (195/16 - 196)]⁽¹⁾.

* إِنَّ تسمية النَّبيِّ عليه السلام قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيِّ إلى الإسلام، فما إن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولى النَّصرانيِّ، وجاشت مشاعره، فأخبر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إِنَّ التَّسمية قبل الأكل - كسائر السُّنن - من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السُّؤال عن سبب ذلك، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ، والانجذاب إليه⁽²⁾.

* كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسول الله قوياً، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة، وشيبة ابني ربيعة لمَّا أرادا الخروج إلى بدرٍ، وأمرأه بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال، فقالَا: ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه⁽³⁾.

* في قول عدَّاس: «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ، فلئن اذاه قومه،

(1) صحيح البَيِّرة النَّبوية، ص 136، 137.

(2) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (22/3).

(3) انظر: سبل الهدى والرَّشاد (578/2).

فهذا وافد من العراق، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه، ورجليه، ويقبِّلُهما، ويشهد له بالرسالة، وإنَّ هذا لَقَدَرٌ رَبَّانِيٌّ، يسوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسوله؛ حيث كان الصَّدُّ من أقرب الناس إليه! (1).

ب - إسلام الجن:

لَمَّا انصرف النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الطَّائِفِ، راجعاً إلى مَكَّةَ، حين يئس من خير ثقيف، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيْلِ يصلي، فمرَّ به النَّفَرُ مِنَ الْجَنِّ، الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانُوا سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ جَنِّ أَهْلِ نَصِيبِينَ، فَاسْتَمَعُوا لِتِلَاوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ؛ قَدْ آمَنُوا، وَأَجَابُوا إِلَى مَا سَمِعُوا، فَقَصَّ اللَّهُ تَعَالَى خَبَرَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الأحقاف: 29 - 30] .

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ ببطن نخلة، فلمَّا سمعوه؛ قالوا: ﴿أَنْصِتُوا﴾.

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائِفِ تنتقل إلى عالمٍ آخر، هو عالم الجنِّ، فتلقَّوا دعوة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومضوا بها إلى قَوْمِهِمْ، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه، والطفيل بن عمرو إلى قومه، وضَمَادُ الْأَزْدِيِّ إلى قومه، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ، يبلغون دعوة الله تَعَالَى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأحقاف: 31] .

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (437/1).

وأصبح اسم محمد تهفو إليه قلوب الجنّ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجنّ حوارئون، حملوا راية التّوحيد، ووطّئوا أنفسهم دعاءً إلى الله، ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

نشاط:

بين أثر تمثل صبر النبي ﷺ في بناء الشخصية الإسلامية.

المبحث السابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التكريم

رحلة الإسراء والمعراج مظهر من مظاهر التكريم الإلهي لسيد الخلق وحبیب الحق محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاءت هذه الرحلة بعد عام الحزن حيث توفي أهم سنان لرسول الله عليه السلام: عمه ابو طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها وبعد ان لاقى ما لاقى من أهل الطائف وبعد هذا كله حصلت معجزة الله لرسوله، ألا وهي: الإسراء والمعراج.

أما هدف هذه المعجزة، فيتمثل في أمور؛ من أهمها:

- أن الله - عز وجل - أراد أن يتيح لرسوله صلى الله عليه وسلم فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتى يملأ قلبه ثقةً فيه، واستناداً إليه؛ حتى يزداد قوةً في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض.

- في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على هذه الآيات الكبرى، توطئةً للهجرة، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التاريخ للكفر، والضلال، والفسوق. والآيات التي راها رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة؛ منها: الذهاب إلى بيت المقدس، والعروج إلى السماء، ورؤية الأنبياء، والمرسلين، والملائكة، والسموات، والجنة، والنار، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الهدف في سورة الإسراء، وعن المعراج في سورة النجم، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1] وفي سورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18].

وعن أهم هذه الآيات والدروس والعبر يحدثنا الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لم يكن الإسراء مجرد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكبرى، وتجلّى له ملكوت السموات، والأرض مشاهدةً، عياناً؛ بل - زيادةً إلى ذلك - اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النجم»: أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد

التقت في شخصه، وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيداناً بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنسانية تعاليمه، وصلاحياتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها، وامنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب، والأمم»⁽¹⁾.

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أُتِيتُ بالبُرّاق - وهو دابةٌ أبيضٌ طويلٌ، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة⁽²⁾؛ التي يربطُ به الأنبياءُ. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة»⁽³⁾... فذكر الحديث [مسلم (162)].

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم حدّثه عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم⁽⁴⁾ - وربما قال في الحجر - مضطجعاً؛ إذ أتاني ات⁽⁵⁾، فَقَدَّ - قال: وسمعته يقول: فشقَّ - ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةٍ نحره⁽⁶⁾ إلى شِعْرته⁽⁷⁾ وسمعته يقول: من قَصِّه⁽⁸⁾ إلى شعرته - فاستخرج قلبي، ثم أُتِيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فَعُغِلَ قلبي، ثم حُشِيَ، ثم أُعِيدَ، ثم أُتِيتُ بدابةٍ دون البغل، وفوق الحمار أبيض - فقال له الجارود: هو البُرّاقُ يا أبا حمزة؟! قال: أنس: نعم - يضع حَطْوُهُ عند أقصى طرفه⁽⁹⁾، فحُمِلْتُ عليه، فانطلق بي جبريلُ حتى أتى

(1) انظر: الأساس في السُّنة (292/1).

(2) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

(3) الفطرة: الإسلام، والاستقامة.

(4) الحطيم: هو ما بين الركن والمقام.

(5) ات: هو جبريل عليه السلام.

(6) ثُغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرقبة من الأمام.

(7) شعرته: شعر عاتقه وهو ما ينبت حول العانة.

(8) القص: رأس عظام الصدر.

(9) يضع حَطْوُهُ عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ⁽¹⁾ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ⁽²⁾، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَّحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَبْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صُعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَّحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا يُحْيَى، وَعِيسَى - وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ - قَالَ: هَذَا يُحْيَى، وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالَا: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَّحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا يَوْسُفُ، قَالَ: هَذَا يَوْسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صُعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَّ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَّحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا إِدْرِيسُ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صُعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَّحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا هَارُونَ، قَالَ: هَذَا هَارُونَ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صُعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنَعَمْ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ؛ فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ؛ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي؛ لِأَنَّ غَلَاماً⁽³⁾ بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

(1) استفتح: طلب فتح باب السماء الدنيا.

(2) مرحباً به: أصاب رجلاً، وسعةً.

(3) أبكي؛ لأن غلاماً...: ليس هذا على سبيل النقص، بل على سبيل التثويه بقدرة الله وعظيم كرمه.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة، فاستفتح جبريل، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: مُحَمَّد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، فلمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك، فسَلِّم عليه، قال: فسَلِّمت عليه، فردَّ السَّلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح، والنَّبيِّ الصَّالح، ثمَّ رُفِعَتْ لي (1) سِدْرَةُ المنتهى، فإذا نَبُثُهَا (2) مثل قِلَالِ هَجْر (3)، وإذا ورقُها مثل اذانِ الفيلة، قال: هذه سِدْرَةُ المنتهى، وإذا أربعة أنهارٍ: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران؛ فالنَّيلُ والفراتُ، ثمَّ رُفِعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتِيتُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عسلٍ، فأخذتُ اللَّبَنَ، فقال: هي الفِطْرَةُ (4)؛ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا، وَأَمَّتْكَ.

ثمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فرجعتُ، فمررتُ على موسى، قال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قال: إِنَّ أَمَّتْكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ! قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ (5)، فارجعْ إلى رَبِّكَ، فاسأله التَّخْفِيفَ لِأَمَّتْكَ، فرجعتُ، فوضع عَنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله، فرجعتُ، فوضع عَنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله، فرجعتُ، فوضع عَنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله، فرجعتُ، فأمرتُ بعشر صلواتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فرجعتُ، فقال مثله، فرجعتُ فأمرتُ بخمس صلواتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فرجعتُ إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قال: إِنَّ أَمَّتْكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فارجعْ إلى ربك فاسأله التَّخْفِيفَ لِأَمَّتْكَ، قال: سألتُ رَبِّي حتَّى اسْتَحْيَيْتُ، ولكن أَرْضَى، وأَسْلِمَ، قال: فلمَّا جاوزت نادى نادٍ: أَمْضِيْتُ فَرِيضَتِي، وخففت عن عبادي» [البخاري (3207) ومسلم (164)].

(1) رُفِعَتْ لي: قُرِيت لي.

(2) النَّبْتُ: هو ثمر البَيتدر.

(3) قِلَالِ هَجْر: يضرب بها المثل لكبرها، وهجر: قرية في البحرين، والقَلَّة: الحجرة الكبيرة.

(4) الفِطْرَةُ: دين الإسلام.

(5) عالجتهم أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ: مارست بني إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَارَسَةِ.

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته - عليه السّلام - بسنة، هكذا قال القاضي عياض في الشّفا⁽¹⁾.

ولمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته الميمونة؛ أخبر قومه بذلك، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديّ، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة: إنّني صليت اللّيلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيْتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فنُشِر لي رهطٌ من الأنبياء؛ منهم: إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت بهم، وكلمتهم، فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفهم لي، فقال: أمّا عيسى: ففوق الرّبعة، ودون الطول، عريض الصّدر، ظاهر الدّم، جعدٌ، أشعرٌ، تعلوه صُهبَةٌ⁽²⁾، كأَنّه عروة بن مسعود الثّقفي. وأمّا موسى: فضخّم آدم، طوالٌ، كأَنّه من رجال سُوءَةٍ، متراكب الأسنان، مقلّص الشّفة، خارج اللّثة، عابسٌ، وأمّا إبراهيم: فوالله إنه لأشبه النّاس بي، خَلَقاً، وخُلُقاً⁽³⁾.

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً، وخرجت منه ليلاً»، فأثاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «بابٌ منه كذا، في موضع كذا، وبابٌ منه كذا، في موضع كذا».

ثمّ سألوه عن غيرهم، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالرّوحاء، قد ضلّت ناقةٌ لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله أية! - «ثمّ انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مِنّي الإبل، وبرك منها جملٌ أحمر، عليه جُوالق⁽⁴⁾ مخطّطٌ ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا؟ فاسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله أية! - «ثمّ انتهيت إلى عير بني فلان في التّنعيم، يقدمها جملٌ أورك⁽⁵⁾، وها هي تطلع عليكم من الثّنيّة»⁽⁶⁾ فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ، فانطلقوا، فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسّحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالِية (4/201 - 204، ومجمع الزوائد (1/75 - 76) وابن هشام في السيرة النبوية (2/11)].

(1) انظر: الشّفا بتعريف حقوق المصطفى (1/108).

(2) صهبة: بياض بحمرة.

(3) انظر: التّاريخ الإسلامي، للحميدي (3/37).

(4) الجُوالق: هو العُدل الذي يوضع فيه المتاع.

(5) أورك: أي لونه أبيض وفيه سواد.

(6) الثّنيّة: الطّريق الجبلي.

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاسِ، مِمَّنْ كانوا امنوا، وصدَّقوا بالدَّعوة، فارتدُّوا، وذهب بعض النَّاسِ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوْ قَالَ ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لعن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟!!

قال: نعم، إِنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السَّماء، في غدوةٍ أو روحة .
فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (62/3)] .

ثانياً: فوائد، ودروس، وعبر:

- 1 - بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ.
- 2 - إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُقَدِّماً عَلَى مَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ، مَرَحَلَةِ الْمَهِجَرَةِ، وَالْإِنْطِلَاقِ لِبِنَاءِ الدَّوْلَةِ، يَرِيدُ اللهُ تَعَالَى لِلْبَنَاتِ الْأُولَى فِي الْبِنَاءِ أَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً قَوِيَّةً، مَتَرَاصَةً مَتَمَاسِكَةً، فَجَعَلَ اللهُ هَذَا الْإِخْتِبَارَ وَالتَّمْحِصَ؛ لِيُخَلِّصَ الصِّفَّ مِنَ الضِّعَافِ الْمُرْتَدِّينَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَقْوِيَاءَ وَالْخُلَّصَ.
- 3 - إِنَّ شَجَاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالِيَةَ، تَتَجَسَّدُ فِي مُوَاجَهَتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَمْرِ تَنَكَّرَ عَقُولُهُمْ، وَلَا تَدْرَكَهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ تَصَوُّرَاتُهُمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ الْجَهْرِ بِهِ الْخَوْفُ مِنْ مُوَاجَهَتِهِمْ، وَتَلَقَّى نَكِيرَهُمْ، وَاسْتَهْزَاءَهُمْ، فَضَرَبَ بِذَلِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ أَرْوَعَ الْأَمْثَلَةِ فِي الْجَهْرِ بِالْحَقِّ أَمَامَ أَهْلِ الْبَاطِلِ، وَإِنْ تَحَزَّبُوا ضِدَّ الْحَقِّ، وَجَنَّدُوا لِحَرْبِهِ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِمْ، وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنْ حَدَّثَهُمْ عَنْ إِسْرَائِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَأَظْهَرَ اللهُ لَهُ عِلَامَاتٍ تُلْزِمُ الْكُفَّارَ بِالتَّصْدِيقِ، وَهَذِهِ الْعِلَامَاتُ هِيَ:
- وَصَفَ النَّبِيُّ بَيْتَ الْمَقْدَسِ، وَبَعْضَهُمْ قَدْ سَافَرَ إِلَى الشَّامِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، فَقَدْ كَشَفَ اللهُ لِنَبِيِّهِ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى حَتَّى وَصَفَهُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَقْرَأُوا بِصَدَقِ الْوَصْفِ، وَمُطَابَقَتِهِ لِلْوَقْعِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ.

• إخباره عن العير التي بالزّوحاء، والبعير الذي ضلّ، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح.

• إخباره عن العير الثّانية الّتي نفرت فيها الإبل، ووصفه الدّقيق لأحد جمالمهم.

• إخباره عن العير الثّالثة الّتي بالأبواء، ووصفه الجمل الذي يقدمها، وإخباره بأنّها تطلع ذلك الوقت من ثنينة التّنعيم، وقد تأكّد المشركون، فوجدوا أنّ ما أخبرهم به الرّسول صلى الله عليه وسلم كان صحيحاً، فهذه الأدلّة الظّاهرة كانت مفحمةً لهم، ولا يستطيعون معها أن يتّهموه بالكذب. كانت هذه الرّحلة العظيمة تربيةً ربّانيةً رفيعة المستوى وأصبح صلى الله عليه وسلم يرى الأرض كلّها، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح، ثمّ ما مقام كفار مكّة في هذه النقطة؟! إنهم لا يمثّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه، وخصّه بتلك الرّحلة العلويّة الميمونة، وجمعه بالملائكة والأنبياء - عليهم السّلام - وأراه السّموات السّبع، وسدرة المنتهى، والبيت المعمور، وكلّمه جلّ وعلا⁽¹⁾؟

4 - يظهر إيمان الصّديق رضي الله عنه القويّ في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفّار، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك؛ لقد صدق! ثمّ قال: إنّي لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السّماء في غدوةٍ، أو روحَةٍ، وبهذا استحقّق لقب الصّديق، وهذا منتهى الفقه، واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر، ونزول الوحي من السّماء، فبيّن لهم: أنّه إذا كان غريباً على الإنسان العاديّ، فإنّه في غاية الإمكان بالنّسبة للنّبيّ صلى الله عليه وسلم⁽²⁾.

5- إنّ شُرْب رسول الله صلى الله عليه وسلم اللّبن حين حُيّر بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل عليه السّلام: «هُدِيتَ لِلْفَطْرَةِ»، تؤكّد: أنّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريّة؛ الّتي ينسجم معها.

6 - كان إسراء النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، بالزّروح والجسد يقظَةً إلى بيت المقدس، وعلى

(1) انظر: التّاريخ الإسلاميّ، للحميدي، (41/3، 42).

(2) انظر: التّاريخ الإسلاميّ، للحميدي، (43/3).

هذا جماهير السلف، والخلف، ولا يُعوّل على مَنْ قال: إِنَّ الإسراء كان بروحه، وأنّه رؤيا منام؛ إذ لو كان الإسراء مناماً؛ لما كانت فيه آية، ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر⁽¹⁾، ثمَّ إِنَّ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، والمقصود بعبد: سيدنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وكلمة «بعده» تشمل روحه، وجسده⁽²⁾.

7 - إِنَّ صلاة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بالأنبياء دليلٌ على أنّهم سلّموا له القيادة، والريادة، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم، أن يسلموا القيادة لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولرسالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها.

إِنَّ على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع من الديانات المنحرفة، والإيمان بهذا الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدّعاوات المشبوهة، التي تخدم وضعاً من الأوضاع، أو نظاماً من الأنظمة الجاهليّة.

وأبنيّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنّ الله هو المسيح، وأنّ المسيح ابن الله، وأنّ الله ثالث ثلاثة، أو بين مَنْ يعتقد: أنّ عزيزاً ابنُ الله، ومجرّف كلام الله، وبين مَنْ يعتقد: أنّ الله واحدٌ لا شريك له، ولا والد، ولا ولد، ولا زوجة له - وهو عبثٌ من القول⁽³⁾.

8 - إِنَّ الرّبط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حكمٌ، ودلالاتٌ، وفوائدٌ منها:

- أهميّة المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم صلى الله عليه وسلم، ومعراجهم إلى السموات العلا، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكيّة، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبّوا المسجد الأقصى، وفلسطين؛ لأنّها مباركة، ومقدّسة.

- الرّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤوليّة تحرير المسجد الأقصى من أضرار الشّرك، وعقيدة التّثليث، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام، من أضرار الشّرك، وعبادة الأصنام.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدّعوة والدّعاة (91/2).

(2) تفسير ابن كثير (23/3)، وتفسير القاسمي (189/10).

(3) انظر: السيرة النبويّة، لأبي فارس، ص 213.

- الرِّبْط يشعر بأنَّ التَّهْدِيدَ للمسجد الأقصى، هو تهديدٌ للمسجد الحرام، وأهله، وأنَّ النَّيْلَ من المسجد الأقصى، توطئةٌ للنَّيْلَ من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصى بوابة الطَّرِيقِ إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين، ووقوعه في أيدي اليهود، يعني: أن المسجد الحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما، وانَّجَّهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

9 - يرى القارئ في سورة الإسراء: أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في آيةٍ واحدةٍ فقط. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود، وجرائمهم، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا القرآن يهدي لِلَّتِي هي أقوم، والارتباط بين الآيات في سورة الإسراء، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَّلون عن منصب قيادة الأُمَّة الإنسانيَّة؛ لما ارتكبوا من الجرائم اللَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما⁽¹⁾.

10 - أَهْمِيَّة الصَّلَاة، وعظيم منزلتها.

11 - تحدَّث الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة، وبين عقوبتها، كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج؛ ومن هذه الأمراض الاجتماعيَّة، وعقوبتها:

- عقوبة جريمة الغيبة والمغتائبين: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناساً يأكلون الجيف، فأخبره جبريل: «هؤلاء الَّذِينَ يأكلون لحوم النَّاسِ» [أحمد (257/1)].

- عقوبة أكلة أموال اليتامى: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالاً لهم مشافر - شفاه كبيرة - كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار - أي: الحجارة - يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أذبارهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى

ظلمًا. [ابن هشام في السيرة النبوية (47/2)].

- أكلة الرِّبَا: أتى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم على قومٍ بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تُرى

(1) انظر: الرَّحِيقُ المَخْتوم، للمباركفوري، ص 120، بتصرف.

من خارج بطونهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الربا [أحمد (353/2) وابن ماجه (2273)].

• وذكرت الروايات عقوبة الزناة، ومانعي الزكاة، وخطباء الفتنة [أحمد (120/3، 180، 231،

239) وعبد بن حميد (1222)] والتَّهَّاون في الأمانة⁽¹⁾.

• ثواب المجاهدين: في ليلة الإسراء والمعراج، مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قوم

يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ، كلَّما حصدوا؛ عاد كما كان، فأخبر جبريل: «هؤلاء

المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ، وما أنفقوا من شيءٍ؛

فهو يُخْلَفُ». [البرار (55) ومجمع الزوائد (67/1 - 72) والمنذري في الترغيب والترهيب (1129)]⁽²⁾.

12 - الطَّرِيق إلى تَخْلِص المسجد الأقصى هو الجهاد في سبيل الله؛ على المنهج الذي

سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم عندما حرره عمر بن الخطاب رضي الله عنه من

أيدي الرومان.

نشاط:

1) كيف تستدل من رحلة الإسراء والمعراج على كل درس من الدروس والعبر

المذكورة سابقاً؟

2) استنتج دوراً أخرى من رحلة الإسراء والمعراج؟

* * *

⁽¹⁾ وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات التي راها النَّبي صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه،

وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم

يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلم، والله أعلم.

⁽²⁾ تفسير الطَّبري (7/15)، والفتح الرباني (257/20).

الفصل الثالث

الطَّواف على القبائل، وهجرة الصحابة إلى المدينة

المبحث الأول

الطَّواف على القبائل طلباً للنصرة

بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء، والنُّصرة، حتَّى يبلغ كلام الله - عزَّ وجلَّ - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرَّك في المواسم التجاريَّة، ومواسم الحجِّ التي تجتمع فيها القبائل وفَّق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم، ومحدَّدة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّديق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان «عُرَّ النَّاسِ، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ويعرض دعوته»⁽¹⁾.

وقد تعرَّض صلى الله عليه وسلم للأذى العظيم، فقد روى التِّرْمِذِيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» [أبو داود (4734) والتِّرْمِذِيُّ (2925) وابن ماجه (201) وأحمد (390/3)] وظلَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في تردُّده على القبائل يدعوهم، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ، ويؤذونه، ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه⁽²⁾ وكانت الشَّائعات الَّتِي تنشرها قريشٌ في أوساط الحِجَّاج تجد رواجاً، وقبولاً؛ مثل: الصَّابِئ، وغلَام بني هاشم الَّذي يزعم: أَنَّهُ رسول، وغير ذلك، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرِّسُول صلى الله عليه وسلم ، ويضاعف ألم التَّكذيب، وعدم الاستجابة⁽³⁾.

(1) انظر: الأنساب ، للسَّمْعَانِي (36/1).

(2) انظر: الدُّرَر ، لابن عبد البر ، ص 35 ، والبيَّرة النَّبَوِيَّة ، لابن كثير (185/2).

(3) انظر: المحنة في العهد المكيِّ ، ص 53.

أولاً: من أساليب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرَّدِّ عَلَى مَكَائِدِ أَبِي جَهْلٍ، وَالْمُشْرِكِينَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ عَلَى الْقَبَائِلِ:

- 1 - مقابلة القبائل في اللَّيْلِ
- 2 - ذهاب الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْقَبَائِلِ فِي مَنَازِلِهِمْ
- 3 - اصطحاب الأعوان
- 4 - التأكد من قوة وصفة القبيلة ليتأكد من إمكانية الحماية

ثانياً: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرَّسُولُ (ﷺ) أَنْ يُجْرِيَ مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ، وقامت تلك المفاوضات على دراسةٍ وتخطيطٍ، فالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبه أبو بكر، كانا يعلمان: أَنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةٌ العدد، وعزيرةٌ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس التي لم يمسَّها سِبَاءٌ⁽¹⁾، ولم تتبع لملكٍ، ولم تؤدِّ إتاوة، مثلها مثل قريش، وخزاعة⁽²⁾، كما أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم: أَنَّ هنالك تضاداً قديماً بين بني عامرٍ، وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر⁽³⁾.

يذكر أصحاب السِّيرة: أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَتَى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِرَاس: والله! لو أُنِي أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثمَّ قال له: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ تَابَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيْكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأَمْرُ لِلَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، فقال له: أَفَتُتَّهَدَفُ نَحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فإذا أَظْهَرَكَ اللَّهُ: كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرِكَ! فأبوا عليه. [ابن هشام (66/2) وأبو نعيم في الدلائل (215) والطبري في تاريخه (350/2 - 351) وابن سعد مختصراً (216/1)].

(1) لم يمسَّها سِبَاءٌ: لم تُسَبَّ نساؤها في الحرب.

(2) انظر: أصول الفكر السياسي، ص 182.

(3) المصدر السابق نفسه.

ثالثاً: فوائد، ودروس، وعبر:

كانت النُصرة التي طلبها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ذات صفةٍ مخصوصةٍ، وذلك على النحو التالي:

1 - طلب الرَّسول صلى الله عليه وسلم للنُصرة من خارج مَكَّةَ إنما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّكُ الفَعَّال لأجلها، وتوفير الاستجابة لها، في جوٍّ من العنف، والضَّغط، والإرهاب.

2 - كان عرض الرَّسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل يطلب منهم النُصرة، إنما هو بأمرٍ من الله - عزَّ وجلَّ - له في ذلك، وليس مجرد اجتِهَادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه، اقتضته الظروف؛ الَّتِي وصلت إليها الدَّعوة في مَكَّةَ.

3 - حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب النُصرة في زعماء القبائل، وذوي الشَّرف، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة، وصاحبها.

4 - يلاحظ في سيرة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، بخصوص طلب النُصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ - كان يطلبُ النُصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب، بعيدةً عن الإساءة إليها، وإلى أتباعها.

ب - كان يطلب النُصرة، من أجل أن يتسلَّم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مقاليد الحكم، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمر.

5 - رفض النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم، والسُّلطان على سبيل الثَّمَن، أو المكافأة لما يقَدِّمونه من نُصرةٍ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة.

6 - ومن صفة النُصرة؛ الَّتِي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهلاً للنُصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة - والحالة هذه - يُعرِّضها لخطر القضاء عليها، مِنْ قِبَلِ

الدُّول الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا تِلْكَ الْمَعَاهِدَاتُ، وَالَّتِي تَجِدُ فِي الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَطَرًا عَلَيْهَا، وَتَهْدِيدًا لِمَصَالِحِهَا⁽¹⁾.

7 - «إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ»، كَانَ هَذَا الرَّدُّ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُتَّقِي بْنِ حَارِثَةَ حِينَ عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَايَتَهُ عَلَى مِيَاهِ الْعَرَبِ دُونَ مِيَاهِ الْفَرَسِ، فَمَنْ يَسِيرُ أَغْوَارَ السِّيَاسَةِ الْبَعِيدَةِ؛ يَرَى بُعْدَ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيِّ النَّبَوِيِّ الَّذِي لَا يُسَامَى⁽²⁾.

(1) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (412/1).

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 64.

المبحث الثاني

مواكب الخير وطلائع النور

أولاً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجّ عند عقبة منى، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أمِنُ موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله - عزَّ وجلَّ - وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. [ابن هشام (70/2 - 71)، وابن سعد (218/1 - 219)، والبيهقي في الدلائل (433/2 - 435)، والطبراني في المعجم الكبير (362/20)، ومجمع الزوائد (40/6 - 42)].

فلَمَّا كَلَّمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أولئك التَّفر، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أَنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا تَسْبِقُنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، بِأَن صَدَّقُوهُ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ، فَسَنْتَقِدُ عَلَيْهِمْ، فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجْبَنَّاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ. ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا، وَصَدَّقُوا⁽¹⁾، وَكَانُوا سِتَّةَ نَفَرٍ، وَهُمْ: أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَعُوفُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَقُطَيْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَّابٍ⁽²⁾. فَلَمَّا قَدَمُوا الْمَدِينَةَ إِلَى قَوْمِهِمْ؛ ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى فَشَا بَيْنَهُمْ، فَلَمْ تَبَقْ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽³⁾.

(1) البداية والنهاية (148/3، 149).

(2) انظر: شرح المواهب، للزرقاني (361/1).

(3) انظر: البداية والنهاية (147/3).

ثانياً: بيعة العقبة الأولى:

بعد عامٍ من المقابلة الأولى؛ الَّتِي تَمَّتْ بين الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلٍ يَثْرِبُ عِنْدَ الْعُقْبَةِ، وَافَىَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْأَنْصَارِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَلَقَوْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعُقْبَةِ، وَبَايَعُوهُ الْعُقْبَةَ الْأُولَى، عَشْرَةً مِنَ الْخَزْرَجِ، وَاثْنَانِ مِنَ الْأَوْسِ، مِمَّا يَشِيرُ إِلَى أَنَّ نَشَاطَ وَفْدِ الْخَزْرَجِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي الْعَامِ الْمَاضِي، تَرَكَّزَ عَلَى وَسْطِهِمُ الْقَبْلِيِّ بِالْدَّرَجَةِ الْأُولَى؛ لَكِنَّهُمْ تَمَكَّنُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ مِنْ اجْتِنَابِ رِجَالِ الْأَوْسِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِدَايَةِ ائْتِلَافِ الْقَبِيلَتَيْنِ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ⁽¹⁾.

وَقَدْ تَحَدَّثَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ الْخَزْرَجِيُّ عَنِ الْبَيْعَةِ، فِي الْعُقْبَةِ الْأُولَى، فَقَالَ: «كَنتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْعُقْبَةَ الْأُولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَفْتَرِضَ عَلَيْنَا الْحَرْبَ، عَلَى أَلَّا نَشْرِكَ بِاللَّهِ، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِي، لَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبَهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا، وَأَرْجِلِنَا، وَلَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ، وَإِنْ غَشَّيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنْ شَاءَ؛ غَفَرَ، وَإِنْ شَاءَ؛ عَذَّبَ» [البخاري (18 و 92 و 38 و 3999) ومسلم (1709)].

وَبُنُودُ هَذِهِ الْبَيْعَةِ، هِيَ الَّتِي بَايَعَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا النِّسَاءَ فِيمَا بَعْدَ، وَلِذَلِكَ عُرِفَتْ بِاسْمِ بَيْعَةِ النِّسَاءِ⁽²⁾، وَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُبَايَعِينَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، يَعْلَمُهُمُ الدِّينَ، وَيَقْرَأُهُمُ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يُسَمَّى بِالْمَدِينَةِ (المقرئ)، وَكَانَ يُؤْمِنُهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَقَدْ اخْتَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ عِلْمٍ بِشَخْصِيَّتِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَعِلْمٍ بِالْوَضْعِ الْقَائِمِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ كَانَ بِجَانِبِ حِفْظِهِ لِمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ يَمْلِكُ مِنَ اللَّبَاقَةِ، وَالْهُدُوءِ، وَحَسَنِ الْخُلُقِ، وَالْحِكْمَةِ قَدْرًا كَبِيرًا، فَضْلًا عَنْ قُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَشِدَّةِ حِمَاسِهِ لِلدِّينِ، وَلِذَلِكَ تَمَكَّنَ خِلَالَ أَشْهُرٍ أَنْ يَنْشُرَ الْإِسْلَامَ فِي مَعْظَمِ بَيُوتَاتِ الْمَدِينَةِ، وَأَنْ يَكْسِبَ لِلْإِسْلَامِ أَنْصَارًا مِنْ كِبَارِ

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (1/197).

(2) انظر: الغرابة الأولون، ص 185.

زعمائها، كسعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم⁽¹⁾.
لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسيره، وتقوية الروابط الأخويّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه بمكّة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمانة لانطلاق الدّعوة.
وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه⁽²⁾، ونشط المسلمون في الدّعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدّعوية الرّائدة مصعب رضي الله عنه، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته، وهذا هو الذي تعلّمه من أستاذه صلى الله عليه وسلم، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنيّة المكيّة بصورة عمليّة حيّة، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]

ثالثاً: قصّة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، سيّدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشرّكين على دين قومهما، فلمّا سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَيْد: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرّجلين، اللّذين أتيا دارينا؛ لِيُسَوِّفَا ضِعْفَانَا، فازجرهما، وانهما أن يأتيا دارينا؛ فإنّه لولا أسعد بن زُرارة مَنّي حيث قد علمت؛ كفيْتُكَ ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أُسَيْد حربته، ثمّ أقبل عليهما، فلمّا رآه أسعد بن زُرارة؛ قال: هذا سيّد قوم، وقد جاءك؛ فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسن أكلمه، فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا، فقال: ما جاء بكما تسوّفان ضِعْفَانَا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسن، فتسمع، فإن رضيت أمراً؛ قبلته، وإن كرهته؛ نكفُ عنك ما تكره؟

(1) المصدر السابق نفسه، ص 186، 187.

(2) انظر: السيرة النبويّة في ضوء القرآن والسنة (441/1).

قال أُسَيْدٌ: أنصفت، ثُمَّ رَكَزَ حربته، وجلس إليهما، فكَلَّمَهُ مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا - فيما يُذكر عنهما - : والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُله، ثُمَّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ، وأجملَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالوا له: تغتسل، فتتطهَّر، وتطهَّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثُمَّ تصلِّي، فقام، فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحقِّ، ثُمَّ قام فركع ركعتين، ثُمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً، إن اتَّبَعَكُما؛ لم يتخلَّف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثُمَّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْدٌ بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!! فلمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلت؟ قال: كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ، فوالله! ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حَدَّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة؛ ليقتلوه؛ وذلك أَهَمُّ عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ⁽¹⁾.

فقام سعد مُغَضَباً مبادراً تَخَوُّفاً لِلَّذِي ذَكَرَ له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده، ثُمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثُمَّ خرج إليهما سعد، فوجدهما مطمئنين، فعرف: أنَّ أُسَيْدًا إِنَّمَا أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًّا، ثُمَّ قال لأسعد بن زُرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتُ هذا مَيِّ، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء - والله! - سيِّدٌ مِنْ وراءه مِنْ قومه، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً، ورغبتَ فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت، ثُمَّ رَكَزَ الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أَنَّهُ قرأ عليه أوَّل سورة الزُّحُوف، قالوا: فعرفنا - والله! - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُله.

(1) انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة، لأبي شُهبة (442/1).

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالوا: تغتسل، فتتطهَّر، وتطهَّر ثوبيك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ ركع ركعتين، ثمَّ أخذ حربته، فأقبل عائداً إلى نادي قومه، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر، فلمَّا رآه قومه مقبلاً؛ قالوا: نلحف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمُّنا نقيّة! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام؛ حتّى تؤمنوا بالله، ورسوله! قال: فوالله، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلاً، ولا امرأة إلا مسلماً، أو مسلمةً.

ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (357/2 - 359) وابن سعد (420/3 - 421) والبيهقي في الدلائل (431/2 - 432) والطبراني في الكبير (362/20)] إلا ما كان من الأصمِّم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش؛ فإنَّه تأخَّر إسلامه إلى يوم أحدٍ، فأسلم؛ واستُشهد بأحدٍ، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنَّه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدَّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ، فإذا لم يعرفه النَّاس، قال: هو أُصمِّم بني عبد الأشهل» [أحمد (428/5 - 429) ومجمع الزوائد (364/9)]⁽¹⁾.

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شُهبة (444/1)، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 291.

رابعاً: فوائد، ودروس، وعبر:

1 - اتَّجِهَ التَّخْطِيطُ النَّبَوِيُّ لِلتَّرْكِيزِ عَلَى يَثْرِبَ بِالذَّاتِ، وَكَانَ لِلنَّفَرِ السَّتَّةِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي بَثِّ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، خِلَالَ ذَلِكَ الْعَامِ.

2 - كَانَتْ هُنَاكَ عِدَّةُ عَوَامِلٍ سَاعَدَتْ عَلَى انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينَةِ؛ مِنْهَا:

(أ) مَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَبَائِلُ الْخَزْرَجِ، وَالْأَوْسُ مِنَ الرِّقَّةِ، وَاللَّيْنِ، وَعَدَمُ الْمَغَالَاةِ فِي الْكِبْرِيَاءِ، وَجُحُودُ الْحَقِّ.

(ب) التَّشَاحُنُ، وَالتَّطَاحُنُ الْمَوْجُودُ بَيْنَ قَبِيلَتِي الْمَدِينَةِ، الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجِ، وَقَدْ قَامَتْ بَيْنَهُمَا الْحُرُوبُ الطَّاحِنَةُ كَيَوْمِ بُعَاثَ، وَغَيْرِهِ، وَكَانُوا بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَأْتَلِفُونَ عَلَيْهِ، وَيَلْتَمُّ شَمْلَهُمْ تَحْتَ ظِلِّهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ يَوْمٌ بُعَاثَ أَمْرًا قَدَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ افْتَرَقَ مَلَأُوهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ⁽¹⁾ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهِمُ الْإِسْلَامَ». [البخاري (3777 و3846 و3930) وأحمد (61/6) والبيهقي في دلائل النبوة (421/2)].

(ج) مجاورتهم لليهود، ممَّا جعلهم على علمٍ - ولو يسيرٍ - بأمر الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وَخَبَرِ الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ، وَهُمْ - فِي مَجْتَمَعِهِمْ - يَعَايِشُونَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ فِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ، وَلَيْسُوا مِثْلَ قَرِيشٍ؛ الَّتِي لَا يَسَاكِنُهَا أَهْلُ كِتَابٍ.

3 - حَضَرَ بَيْعَةَ الْعُقْبَةِ الْأُولَى اثْنَانِ مِنَ الْأَوْسِ، وَهَذَا تَطَوُّرٌ مَهْمٌ لِمَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ.

4 - كَانَ التَّطَوُّرُ الْجَدِيدُ الَّذِي أَثْمَرَتْهُ بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ قَدْ بَعَثَ مَصْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ مِمثلاً شَخْصِيّاً لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ يَعْلَمُ النَّاسُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَمُبَادِئُ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَطَاعَ مَصْعَبٌ بِحِكْمَتِهِ، وَحَصَافَتِهِ، وَذَكَائِهِ السِّيَاسِيِّ أَنْ يَحَقِّقَ انتصاراتٍ كَبِيرَةً لِلْإِسْلَامِ⁽²⁾.

(1) السَّرَوَاتُ: الْأَشْرَافُ.

(2) انظر: التَّحَالُفُ السِّيَاسِيُّ، ص 71.

5 - استطاع سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه.

6 - استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيئ البيئة الصَّالحة، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عملياً وسلوكياً، والتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام⁽¹⁾.

7 - بذل الرُّسول صلى الله عليه وسلم كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة، التي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة، والتَّنظيم⁽²⁾.

8 - نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنَّه قد آن الأوان لقيام الدَّولة الجديدة، وكما يقول جابر رضي الله عنه، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة: «حتَّى متى نترك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يطوف، ويُطرَد في جبال مَكَّة، ويُخاف؟!»⁽²⁾.

9 - وصل مصعب رضي الله عنه إلى مَكَّة قبيل موسم الحجِّ، من العام الثَّالث عشر للبعثة، ونقل الصُّورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات، والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس، والخزرج، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة، قادرةٍ على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعته⁽³⁾.

* * *

(1) انظر: دولة الرُّسول صلى الله عليه وسلم من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 356.

(2) انظر: التَّحالف البيئاسيُّ، ص 71.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 72.

المبحث الثالث

بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «... فقلنا: حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يُطْرَد في جبال مكّة، ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شُعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجلٍ، ورجلين؛ حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام تُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط، والكسل، والتَّفقة في العسر، واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممّا تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنّة».

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافّة، وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف، فإنّما أنتم قومٌ تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإنّما أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنةً؛ فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نُسْلِيها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا، وشرّط، ويعطينا على ذلك الجنّة»⁽¹⁾.

وكان عدد من بايع رسول الله من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. ثم قال: «أُخْرِجُوا إِلَيَّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأُخْرِجُوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (199/1).

وقد طلب الرّسول صلى الله عليه وسلم منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشّيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق! إن شئت؛ لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيا.فنا.

دروس، وعبر، وفوائد:

1 - «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي، (فتح الفتوح)؛ لأنّها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلاميّة، الّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرّجة، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهدٍ وموathيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله»⁽¹⁾.

2 - إنّ حقيقة الإيمان، وأثره في تربية النفوس، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها، ودماءها في سبيل الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً، ولا منصباً، ولا قيادةً، ولا زعامةً، وهم الّذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم، يتصارعون على الزّعامة، والقيادة، إنّ أثر الإيمان بالله، وبحقيقة هذا الدّين، عندما يتغلغل في النفوس⁽²⁾.

3 - يظهر التّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمّت في ظروفٍ غايةٍ في الصّعوبة، وكانت تمثّل تحدياً خطيراً، وجريئاً لقوى الشّرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التّخطيط النبويّ لنجاحها في غاية الإحكام والدّقّة على النّحو التّالي⁽³⁾:

أ - سرّيّة الحركة، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتّى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعّة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيّ قوامه نحو خمسمئة ممّا يجعل حركة هؤلاء السّبعين صعبةً ، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ، وقد تحدّد موعد اللّقاء في ثاني أيام التّشريق، بعد ثلث اللّيل،

(1) انظر: محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمّد الصّادق عرجون (400/2).

(2) انظر: التّربية القياديّة (103/2).

(3) انظر: الهجرة النبويّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص 61.

حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرَّجُل، كما تمَّ تحديد المكان في الشَّعب الأيمن، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّوم لحاجة⁽¹⁾.

ب - الخروج المنظم لجماعة المبايعين، إلى موعد، ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج - ضرب السَّريَّة التَّامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب، الَّذي جاء مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ليتوثَّق له⁽²⁾، وعليُّ بن أبي طالب، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشَّعب، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّرِيق - وهو الآخر - عيناً للمسلمين⁽³⁾، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم، أو تجسُّ حركتهم⁽⁴⁾.

هـ - اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ، وهي الليلة الثالثة عشرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمرٌ متوقَّع، وهذا ما حدث⁽⁵⁾.

4 - كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط والكسل، والتَّفقُّة في اليسر، والعسر، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصُرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته؛ إذا قدم المدينة⁽⁶⁾.

(1) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 61.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 62.

(3) انظر: التَّربية القياديَّة (109/2).

(4) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 62.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 67.

(6) انظر: التَّحالف السِّياسي، ص 82.

5 - سرعان ما استجاب قائد الأنصار - دون تردّدٍ - البراء بن مَعْرُور، قائلاً: والذي بعثك بالحق! لنمنعَنَّك مما نمنع منه أُرُزْنَا، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابرٍ.

6 - يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمّةٌ؛ منها:

أ - أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم لم يعيّن النُّقباء؛ إنّما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمرٌ شوريٌّ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

ب - التّمثيل النّسبي في الاختيار، فمن المعلوم أنّ الذين حضروا البيعة من الخزرج، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج⁽¹⁾.

ج - جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقباء مشرفين على سير الدّعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقّفوه، ومعتنقوه، فأراد الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يشعرهم أنّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنّهم غدوا أهل الإسلام، وحماته، وأنصاره⁽²⁾.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله؛ فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربّه شهيداً، ومنهم من بقي حتّى ساهم في قيادة الدّولة المسلمة، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النّماذج الّتي تعطي، ولا تأخذ، والّتي تقدّم كلّ شيءٍ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنّة، ويتصاغر التّاريخ في جميع عصوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرّجال والنّساء⁽³⁾.

(1) انظر: السّيرة النبويّة، لأبي فارس، ص 209.

(2) انظر: دراسات في السّيرة النبويّة، د. عماد الدين خليل، ص 132.

(3) انظر: التّربية القياديّة (140/2).

المبحث الرابع

الهجرة إلى المدينة

لَمَّا بايَعَتْ طَلَائِعُ الْخَيْرِ، وَمَوَاكِبُ الثُّورِ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالِدِفَاعِ عَنْهُ؛ ثَارَتْ ثَائِرَةٌ الْمُشْرِكِينَ، فَازْدَادُوا إِيْذَاءً لِلْمُسْلِمِينَ، فَأُذِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، إِقَامَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ الَّتِي تَحْمِلُ الدَّعْوَةَ، وَتُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهَا؛ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ⁽¹⁾، وَكَانَ التَّوْجِيهُ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَعِنَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا صَدَرَ السَّبْعُونَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ طَابَتْ نَفْسُهُ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مَنَعَةً، وَقَوْمًا أَهْلَ حَرْبٍ، وَعَدَّةً، وَنَجْدَةً، وَجَعَلَ الْبَلَاءَ يَشْتَدُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لَمَّا يَعْلَمُونَ مِنَ الْخُرُوجِ، فَضَيَّقُوا عَلَى أَصْحَابِهِ، وَتَعَبَّتُوا⁽²⁾ بِهِمْ، وَنَالُوا مِنْهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَنَالُونَ مِنَ الشُّتْمِ، وَالْأَذَى، فَشَكَا ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: « قَدْ أُرِيتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ، أُرِيتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَا بَتَيْنِ - وَهُمَا الْحَرَّتَانِ - وَلَوْ كَانَتِ السَّرَاةُ أَرْضَ نَخْلٍ، وَسَبَاخٍ؛ لَقُلْتُ: هِيَ، هِيَ » [البخاري (2297) والبيهقي في الدلائل (459/2)] ..

ثُمَّ مَكَثَ أَيَّامًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ مَسْرُورًا فَقَالَ: « قَدْ أَخْبَرْتُ بِدَارِ هَجْرَتِكُمْ، وَهِيَ يَثْرِبُ، فَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهَا » فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَتَّجِهُونَ، وَيَتَوَافِقُونَ، وَيَتَوَاسُونَ، وَيَخْرُجُونَ، وَيَخْفُونَ ذَلِكَ

لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدولة الإسلامية؟

1-لأنَّها امتازت بتحصن طبيعِي حربيّ، لا تزارحها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة، فكانت حَرَّةَ الْوَبَرَةِ، مُطَبَقَةً عَلَى الْمَدِينَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَحَرَّةَ وَاقِمٍ مُطَبَقَةً عَلَى الْمَدِينَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ

(1) انظر: الهجرة النبوية المباركة ، ص 33 ، 34.

(2) عَبَثَ عَبَثًا: لعب ، فهو عابثٌ لاعِبٌ لما لا يعنيه ، انظر: لسان العرب (166/2).

الشَّرْقِيَّة، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة - وهي الَّتِي حصَّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب - وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة، محاطة بأشجار النَّخِيل والزُّرُوع الكثيفة، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضيّقةٍ، لا يتَّفَق فيها النِّظام العسكريُّ، وترتيب الصُّفوف.

2- وكان أهل المدينة من الأوس، والخزرج أصحاب نخوةٍ، وإباءٍ، وفروسيَّةٍ، وقوَّةٍ، وشكيمةٍ، ألفوا الحرِّيَّة، ولم يخضعوا لأحدٍ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ، أو حكومةٍ إتاوةً، أو جبايةً. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملَّتْهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر.

3- وكان بنو عديّ بن النّجار أخواله صلى الله عليه وسلم ، فأُمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عديّ بن النّجار إحدى نسائهم، فقد تزوّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديّ بن النّجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتّى صار غلاماً دون المراهقة، ثمّ احتمله عمُّه المطّلب، فجاء به إلى مكّة، وكانت الأرحام يحسب لها حسابٌ كبيرٌ، في حياة العرب الاجتماعيَّة، ومنهم أبو أيوب الأنصاريُّ؛ الَّذِي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره في المدينة.

4- وكان الأوس، والخزرج من قحطان، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكّة، وما حولها من عدنان، ولمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره؛ اجتمعت بذلك عدنان، وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسدٍ واحدٍ، وكانت بينهما مفاضلةٌ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة، وبذلك لم يجد الشَّيْطان سبيلاً إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة، والتّعزّي بعزاء الجاهليَّة، باسم الحميَّة القحطانيَّة، أو العدنانيَّة، فكانت لكلِّ ذلك مدينة يثرب أصلح مكانٍ لهجرة الرّسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واتّخاذهم لها داراً، وقراراً⁽¹⁾

(1) انظر: الأساس في السُّنة (333/1).

الفصل الرابع

هجرة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه

المبحث الأول

فشل خطة المشركين، والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرغم من أساليبها الشنيعة، والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30] .

فقال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (124/2 - 126) وابن سعد (227/1 - 228) والبيهقي في دلائل النبوة (466/2 - 468) وأبو نعيم في دلائله (63 - 64) والطبري في تاريخه (372/2) والهيتمي في مجمع الزوائد (52/6 - 53)] (1)، يريدون النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فبات عليّ على فراش النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تلك الليلة [أحمد (348/10) وعبد الرزاق في المصنف (389/5) والطبري في تاريخه (372/2) ومجمع الزوائد (52/6 - 53)] (2). وخرج النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلمّا أصبحوا؛ ثاروا إليه، فلمّا رأوا عليّاً؛ ردّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصّوا أثره، فلمّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً (3).

(1) الوُثُق: الحبال ، والمفرد: وثاق.

(2) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص 135.

(3) انظر: البداية والنهاية (181/3) ، وابن حجر في الفتح ، وحسن إسناده ، شرح حديث رقم (3905).

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

روى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل، وفيه: «... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنّاً⁽¹⁾؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «أخرج من عندك»، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك. قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصُّحبة بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم»، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بالثَّمن»، قالت عائشة رضي الله عنها: فجَهَّزناهما أحثَّ الجَهاز (من الحثِّ وهو الإسراع)، وصنعنا لهما سُفرةً في جِرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سَمَّيت ذات النطاقين، ثمَّ لحق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكُنا⁽²⁾ فيه ثلاث ليالٍ، ببيت عندهما عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وهو غلامٌ، شابٌّ، ثَقِفٌ⁽³⁾، لَقِنٌ⁽⁴⁾، فُيْدِلَجٌ⁽⁵⁾ من عندهما بِسَحَرٍ، فيصبح مع قريشٍ بِمَكَّةَ كِبائِتٍ، فلا يسمع أمراً يُكْتادانِ⁽⁶⁾ به إلا وَعَاهُ، حتَّى يأتِيهما بخبر ذلك، حين يَخْتَلط الظَّلَامُ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَمٍ، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء، فيبتان في رَسَلٍ - وهو لَبَنٌ مُنْحَتٍهُما ورَضِيفُهُما⁽⁷⁾ - حتَّى ينعق⁽⁸⁾ بها عامر بن فهيرة بَعْلَسٍ⁽⁹⁾ يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رجلاً من بني

(1) متقنّاً: مغطياً رأسه.

(2) كُنا فيه: أي استترا، واستخفيا، ومنه الكمين في الحرب، النَّهْيَة (201/4).

(3) ثَقِف: ذو فطنة، وذكاء، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النَّهْيَة (216/1).

(4) لقن: فُهِم، حسن التَّلَقِّي لما يسمعه، النَّهْيَة (266/4).

(5) يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل، وأدلج. بالتشديد: إذا سار آخره.

(6) يُكْتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه، وهو من الكيد.

(7) الرَضِيف: اللَّبَن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشمس، أو النَّار، لينعقد وتزول رخواوته.

(8) ينعق: نعق بغنمه، أي: صاح بها، وزجرها، القاموس المحيط (295/3).

(9) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصُّباح، النَّهْيَة (377/3).

الدَّيْل، وهو من بني عبد بن عديّ - هادياً خَرِيْتاً - والخَرِيْت: الماهر بالهداية، قدغمس حلفاً⁽¹⁾ في آل العاص بن وائل السَّهْمِي، وهو على دين كفار قريش، فأمناهُ، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعده غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما صُبْحَ ثلاثٍ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدَّيْل، فأخذ بهم طريق السَّوَّاحِلِ» [البخاري (3905)، وأحمد (198/6 - 199)، والبيهقي في دلائل النبوة (473/2 - 475)، وعبد الرزاق في المصنف (388/5)، والطبري في تاريخه (375/2 - 378)].

ثالثاً: خروج الرّسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ، وأبو بكر الصّدِّيق، وآل أبي بكرٍ.

أمّا عليُّ رضي الله عنه، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلّف؛ حتّى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع؛ الّتي كانت عنده للنّاس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بمكّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه، وأمانته⁽²⁾، وكان الميعاد بين الرّسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكرٍ رضي الله عنه، فخرجا من خوخة⁽³⁾، لأبي بكرٍ في ظهْرِ بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء؛ حتّى لا تتبعهما قريشٌ، وتمنعهما من تلك الرّحلة المباركة، وقد اتّعدا مع اللّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط، في غار ثور، بعد ثلاث ليالٍ⁽⁴⁾.

(1) غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم، وحلفهم يأمن به.

(2) السّيرة النبويّة، لابن كثير (234/2).

(3) الهجرة في القرآن الكريم، ص 334.

(4) خاتم النّبیین، لأبي زهرة (659/1)، والسّيرة النبويّة، لابن كثير (234/2).

رابعاً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم:

بالرَّغم من كلّ الأسباب الّتي اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنّما كان كامل الثّقة في الله، عظيم الرّجاء في نصره، وتأييده، دائم الدّعاء بالصّيغة الّتي علّمه الله إيّاها⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80] .

خامساً: سراقه بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أعلنت قريش في نوادي مكّة: أنّه من يأت بالنّبِيّ (ﷺ) ، حيّاً، أو ميتاً، فله مئة ناقة، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب، الّذين في ضواحي مكّة، وطمع سراقه بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته الّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما كان جاهداً عليه.

فعندما لقي سراقه رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسراقه بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟!» قال: فلمّا أُتِيَ عمرُ بسوارى كسرى، ومُنْطَفَته وتاجه؛ دعا سراقه بن مالك، فألبسه إيّاها، وكان سراقه رجلاً أَرْبَ⁽²⁾ كثير شعر السّاعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هُرْمَز، الّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس، وألبسهما سراقه بن مالك بن جُعْشُم أعرابياً من بني مُدْلِج، ورفع بها عمر صوته⁽³⁾، ثمّ أركب سُرّاقه، وطوّف به المدينة، والنّاس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقه بن جُعْشُم أعرابياً من بني مُدْلِج⁽⁴⁾.

(1) انظر: الهجرة النبويّة المباركة ، ص 72.

(2) التّريب في الإنسان: كثرة الشّعْر ، وطوله.

(3) انظر: الرّوض الأنف (218/4) والهجرة في القرآن ، ص 346.

(4) انظر: السّيرة النبويّة ، لأبي شهبه (495/1).

سادساً: استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ولمّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكّة، فكانوا يغدون كلّ غداةٍ إلى الحرة فينتظرونه، حتّى يردّهم حرّ الظّهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلمّا أوّوا إلى بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطْمٍ⁽¹⁾ من آطامهم، لأمرٍ ينظر إليه، فبصرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبَيّضِينَ⁽²⁾، يزولُ بهم السّرابُ⁽³⁾، فلم يملك اليهوديّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا جدُّكم⁽⁴⁾ الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السّلاح، فتلقّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتّى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين⁽⁵⁾ من شهر ربيع الأوّل⁽⁶⁾، فقام أبو بكر للنّاس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممّن لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم - يُحَيّي أبا بكرٍ، حتّى أصابت الشّمسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتّى ظلّ عليه بردائه، فعرف النّاس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، فلبث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضِعَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ⁽⁷⁾، وأُسيّسَ المسجدُ الذي أُسيّسَ على التّقوى، وصلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمّ ركب راحلته» [البخاري (3906)].

وبعد أن أقام عليه السلام المدّة الّتي مكثها بقباء، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاءوا إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا أَمْنَيْنِ مُطَاعَيْنِ، فركب نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ، وحقّوا دونهما بالسّلاح».

(1) أُطْم - بضم أوله وثانيه -: الحصن.

(2) مُبَيّضِينَ: عليهم ثياب بيض.

(3) السّراب: أي: يزول السّراب عن النّظر بسبب عروضهم له.

(4) جدُّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الذي تتوقّعون.

(5) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد ، وشدّ من قال: يوم الجمعة ، (الفتح شرح حديث رقم 3906).

(6) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 351.

(7) المصدر السابق نفسه ، ص 352.

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (3911)] .

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ، لم ترَ المدينة يوماً مثله، ولبس النَّاسُ أحسنَ ملابسهم، كأَنَّهُم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضَّيق في مَكَّة، إلى رحابة الانطلاق والانتشار، بهذه البقعة المباركة (المدينة)، ومنها إلى سائر بقاع الأرض، لقد أحسنَ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميِّ العامِّ، والتَّفصيليِّ بكلِّ مقوِّماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله⁽¹⁾! روى الإمام مسلمٌ بسنده، قال: «عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ صعد الرِّجال، والنِّساء فوق البيوت، وتفرَّق الغِلْمَان، والخدم في الطُّرق، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (3014/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ سار عليه السلام حتَّى نزل في دار أبي أيوب الأنصاريِّ رضي الله عنه، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه لِيُحَدِّثُ أهله⁽²⁾؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلام، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِفُ⁽³⁾ لهم، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِفُ لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ رجع إلى أهله، فقال النبيُّ: أيُّ بيوتِ أهلنا⁽⁴⁾ أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي، قال: فأنطَلِقُ فهيءُ لنا مقيلاً⁽⁵⁾....» [البخاري (3911)]، ثمَّ نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتَّى بنى مسجده، ومسكنه.

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 353.

(2) الضَّمير هنا للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلمفتح الباري (251/7).

(3) يَخْتَرِفُ: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: التَّهْيَاة (24/2).

(4) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 354.

(5) مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القبيلة.

وبهذا قد تَمَّتْ هجرته صلى الله عليه وسلم ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها، وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب، والتَّحدّيات، فتعلَّبت عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم للوصول للمستقبل الباهر للأُمَّة، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتِي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً، على أسس من الإيمان، والتَّقوى، والإحسان، والعدل بعد أن تعلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الرُّوم⁽¹⁾.

سابعاً أول من هاجر من الصحابة (2):

- 1- أبو سلمة بن عبد الأسد
- 2- عامر بن ربيعة وامراته ليلي
- 3- عبد الله بن جحش وأخوه عبد، المكنى أبا أحمد الشاعر

ثامناً: فوائد، ودروس، وعبر:

1 - الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ، وممتدٌّ: وهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ نافذةٌ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] .

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21] .

2 - مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌّ متكرِّرٌ: سواءً عن طريق الحبس، أو القتل، أو النَّفي، والإخراج من الأرض، وعلى الدَّاعية أن يلجأ

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص 355.

(2) انظر: كتاب الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء ، غلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين

إلى ربّه، وأن يثق به، ويتوكّل عليه، ويعلم: أنّ المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله⁽¹⁾، كما قال عزّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30] .

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضّعيفة، للقضاء على الدّعوة والدّعاة، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ، لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم حيّاً، أو ميتاً، فتحرّك الطّامعون، ومنهم سراقه؛ الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة مادياً، بأوفر ربح، وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمّي الطريق على الطّامعين الآخرين، الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يردّ الله عن أوليائه والدّعاة⁽²⁾. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36] .

3 - دقّة التّخطيط، والأخذ بالأسباب:

إنّ مَنْ تأمّل حادثة الهجرة، ورأى دقّة التّخطيط فيها، ودقّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنّ التّخطيط المسدّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأنّ التّخطيط جزءٌ من السّنة النبويّة، وهو جزءٌ من التّكليف الإلهي في كل ما طوّل به المسلم، وأنّ الذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنّ التّخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السّنة؛ أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين⁽³⁾.

فعندما حان وقت الهجرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وشرع النبيّ صلى الله عليه وسلم في التّنفيد، نلاحظ الآتي:

(1) انظر: الهجرة النبويّة المباركة، ص 199.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 200.

(3) الأساس في السّنة، لسعيد حوّي (357/1).

- وجود التَّنْظِيم الدَّقِيق للهجرة حتَّى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

1 - جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدَّة الحرِّ - الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ -؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

2 - إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصَّديق، وجاء إلى بيت الصَّديق متلثماً؛ لأنَّ التلثم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم⁽¹⁾.

3 - أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخْرِج مَنْ عنده، ولما تكلم لم يبيِّن إلا الأمر بالهجرة، دون تحديد الاتجاه.

4 - كان الخروج ليلاً، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكر⁽²⁾.

5 - بلغ الاحتياط مداه، باتَّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية، ومسارب الصَّحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، ما دام على حُلُقٍ ورزاقٍ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرِّسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها⁽³⁾.

- انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلُّها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.

- وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه، والنُّهوض بتبعاته.

(1) في السِّيرة النَّبَوِّية. قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 141.

(2) انظر: من معين السِّيرة، ص 147.

(3) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 361.

● فكرة نوم عليّ بن أبي طالب مكان الرّسول صلى الله عليه وسلم فكرة ناجحة،
 قد ضلّلت القوم، وخدعتهم، وصرفتهم عن الرّسول صلى الله عليه وسلم ،
 حتّى خرج في جنح اللّيل، تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلّت أبصارهم
 معلقةً بعد اليقظة، بمضجع الرّسول صلى الله عليه وسلم ، فما كانوا يشكّون
 في أنّه ما يزال نائماً، مُسجّىً في برده، في حين أنّ النّائم هو عليّ بن أبي
 طالب رضي الله عنه.

● وقد كان عملُ أبطال هذه الرّحلة على التّحو التالي:

1 - عليّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرّسول صلى الله عليه وسلم ؛ ليخدع القوم؛
 ويُسلّم الودائع، ويلحق بالرّسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

2 - عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصّادق، وكاشف تحركات العدو.

3 - أسماء ذات النّطاقين: حاملة التّموين من مكّة إلى الغار، وسط جنون المشركين؛ بحثاً
 عن محمّد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

4 - عامر بن فهيرة: الرّاعي البسيط الذي قدّم اللّحم واللّبن إلى صاحبي الغار، وبدّد آثار
 أقدام المسيرة التّاريخيّة بأغنامه كي لا يتفرّسها القوم!! لقد كان هذا الرّاعي يقوم بدور الإمداد،
 والتّموين، والتّعمية.

5 - عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصّحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة
 البدء من الرّسول صلى الله عليه وسلم ؛ ليأخذ الرّكب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأُمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيمٍ، ووَضْعٌ لكلِّ
 شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدٌّ لجميع الثّغرات، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ
 مطالب الرّحلة، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرّسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته، وقدرته؛ ومن ثمّ باتت عنايته الله متوقّعة⁽¹⁾.

4 - جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدّعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم، ويأتمنونهم؛ فقد رأينا: أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلّهما على طريق الهجرة.

5 - دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ، كان لها فضلٌ كبيرٌ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد؛ منها: عائشة بنت أبي بكرٍ الصّديق؛ الّتي حفظت لنا القصّة، ووعتها، وبلّغتها للأُمّة، وأمّ سلمة المهاجرة الصّبور، وأسماء ذات النّطاقين⁽²⁾، الّتي أسهمت في تموين الرّسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار، بالماء، والغذاء، وكيف تحمّلت الأذى في سبيل الله.

ومن جميل ما يروى عن اسماء رضي الله عنها عندما دخل عليها جدّها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: «والله إنّى لأراه قد فجّعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لابأس، إذا كان ترك لكم هذا؛ فقد أحسن»، وفي هذا بلاغ لكم، قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكيّ أردت أن أسكّن الشّيخ بذلك»⁽³⁾.

وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباهما، وسكّنت قلب جدّها الضّير، من غير أن تكذب فإنّ أباهما قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الّتي كوّمتهما؛ لتطمئن لها نفس الشّيخ!

6- أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمّد، ص 393. 397.

(2) انظر: الهجرة النّبويّة المباركة، ص 206.

(3) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (102/2)، وإسناده صحيح.

أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم عليّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكّة؛ برغم هذه الظروف الشّديدة؛ الّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتّجه التّفكير إلا إلى إنجاح خطّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم ما كان لينسى، أو ينشغل عن ردّ الأمانات إلى أهلها، حتّى ولو كان في أصعب الظروف الّتي تُنسى الإنسان نفسه، فضلاً عن غيره⁽¹⁾.

7 - الرّاحلة بالثّمن:

لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركب الرّاحلة، حتّى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه، واستقرّ الثّمن دَيْنًا بذمّته، وهذا درس واضح بأنّ حملة الدّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالّة على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كلّ شيء.

8 - الدّاعية يعفّ عن أموال النّاس:

لَمَّا عفا النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عن سرّاقة؛ عرض عليه سرّاقة المساعدة، فقال: «وهذه كنّاتي فخذ منها سهمًا؛ وإنّك ستمرّ بإبلي، وغنمي في موضع كذا، وكذا، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حاجة لي فيها» [أحمد (3/1) ومسلم (3014/م)]⁽²⁾.

9 - فنّ قيادة الأرواح، وفنّ التّعامل مع النّفوس:

يظهر الحبّ العميق؛ الّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، كما يظهر حبّ سائر الصّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهذا الحبّ الرّبّانيّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ، لم يكن حبّ نفاقٍ، أو نابعاً من مصلحة دنيويّة، أو رغبة في منفعة، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحبّ لرسول الله صلى الله

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 364.

(2) في البخاري: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يَزَالِي» رقم (3906).

عليه وسلم صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر؛ ليناموا، ويتعب؛ ليستريحوا، ويجوع؛ ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.

إنَّ القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة، يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان صلى الله عليه وسلم رحيمًا، وشفيقًا بجنوده، وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفون، والمفتنون، ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة⁽¹⁾.

10 - أهمية العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضغائن:

إنَّ العقيدة الصحيحة السليمة، والدِّين الإسلامي العظيم لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات، والضغائن، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس، والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقوداً من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة في مدَّة قصيرة، بمجرد التَّمسُّك بها، والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحة، وتأخوا معهم في مثاليَّة نادرة، لا تزال مثار الدَّهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدُّنيا فكرة، أو شعار آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السِّرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمرِّ نحو تزكية النَّعرات العصبية، والوطنية، والقومية، وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة⁽²⁾.

(1) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص 205.

(2) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص 405.

11 - فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم:

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب؛ من أنصارٍ، ومهاجرين بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النساء من بيوتهنَّ، والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة، موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهراً، والمتألم من منافسة الرِّعامة الجديدة باطناً.

12 - الهجرة تضحيةً عظيمةً في سبيل الله:

كانت هجرة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من البلد الأمين تضحيةً عظيمةً، عبَّرَ عنها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: «والله! إنك لخير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أيُّ أخرجت منك ما خرجت» [أحمد (305/4) والترمذي (3925) وابن ماجه (3108)].

13 - الهجرة النبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النبويَّة من مكَّة المشرَّفة إلى المدينة المنورة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التاريخ، وغيَّر مسيرة الحياة، ومناهجها؛ التي كانت تحياها، وتعيش محكومةً بها في صورة قوانين، ونظم، وأعرافٍ، وعاداتٍ، وأخلاقٍ، وسلوكٍ للأفراد والجماعات، وعقائد، وتعبُّداتٍ، وعلمٍ، ومعرفةٍ، وجهالةٍ، وسفه، وضلالٍ، وهُدًى، وعدلٍ، وظلمٍ»⁽¹⁾.

⁽¹⁾ المصدر السابق نفسه (423/2).

المبحث الثاني

دعائم دولة الإسلام في المدينة

الدَّعامة الأولى بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّل ما قام به الرّسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناء المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، الّتي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصّلوات؛ الّتي تربط المرء بربِّ العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدُّنيا⁽¹⁾.

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة راكباً راحلته، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتّى بَرَكْتُ عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يصليّ فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكان مَرِيداً⁽²⁾ للتمر، لسهلٍ، وشُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زُرارة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثمّ دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الغلامين، فساومهما بالمَرِيد ليَتَّخِذه مسجداً، فقالا: لا، بل نُهبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتّى ابتاعه منهما. [البخاري (3906)].

شرع الرّسول مع أصحابه، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الّذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثمّ اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران - الّتي لم تزد عن قامة الرّجل إلا قليلاً - باللّبن؛ الّذي يعجن بالتراب، ويسوّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ للبناء⁽³⁾. وفي

(1) انظر: فقه السيّرة، للغزالي، ص 191، وفقه السيّرة، للبطي، ص 151.

(2) مرید: الموضع الذي يُجفّ فيه التمر. القاموس المحيط (304/1).

(3) انظر: نور اليقين، للخضري، ص (87، 88)، وتاريخ خليفة بن خياط، ص 56، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، د. فايد حمّاد عاشور،

النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنْهُ، أُقِيمَتْ ظِلَّةٌ مِنَ الْجَرِيدِ عَلَى قَوَائِمٍ مِنْ جَذُوعِ النَّخْلِ، كَانَتْ تَسَمَّى «الصُّفَّة»، أَمَّا بَاقِي أَجْزَاءِ الْمَسْجِدِ، فَقَدْ تُرِكَتْ مَكْشُوفَةً بِلا غَطَاءٍ⁽¹⁾.

أَمَّا أَبْوَابُ الْمَسْجِدِ؛ فَكَانَتْ ثَلَاثَةً: بَابٌ فِي مَوْخَرَتِهِ مِنَ الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَبَابٌ فِي الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ، كَانَ يَدْخُلُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِزَاءِ بَابِ بَيْتِ عَائِشَةَ، وَبَابٌ مِنَ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ، يُقَالُ لَهُ: بَابُ الرَّحْمَةِ، أَوْ بَابُ عَاتِكَةِ⁽²⁾.

أولاً: بيوتات النبي صلى الله عليه وسلم التابعة للمسجد:

وَبُنِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجْرٌ حَوْلَ مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ؛ لِتَكُونَ مَسَاكِنَ لَهُ، وَلِأَهْلِهِ، وَلَمْ تَكُنِ الْحِجْرُ كَبُيُوتِ الْمُلُوكِ، وَالْأَكَاسِرَةِ، وَالْقِيَاصِرَةِ؛ بَلْ كَانَتْ يُبُوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عَنِ الدُّنْيَا، وَزَخَارِفِهَا، وَابْتَغَى الدَّارَ الْآخِرَةَ.

ثانياً: الأذان في المدينة(3):

تَشَاوَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَصْحَابِهِ لِإِيجَادِ عَمَلٍ يَنْبَغِي النَّائِمَ، وَيَدْرِكُ السَّاهِي، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ بِدُخُولِ الْوَقْتِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَرْفَعُ رَايَةً إِذَا حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ لِيَرَاهَا النَّاسُ، فَاعْتَرَضُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَفِيدُ النَّائِمَ، وَلَا الْغَافِلَ، وَقَالَ آخَرُونَ: نُشْعَلُ نَارًا عَلَى مَرْتَفَعٍ مِنَ الْهَضَابِ، فَلَمْ يُقْبَلْ هَذَا الرَّأْيُ أَيْضًا، وَأَشَارَ آخَرُونَ بِبُوقٍ - وَهُوَ مَا كَانَتْ الْيَهُودُ تَسْتَعْمِلُهُ لَصَلَوَاتِهِمْ - فَكَرِهَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ يَحِبُّ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَأَشَارَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِاسْتِعْمَالِ النَّاقُوسِ - وَهُوَ مَا يَسْتَعْمِلُهُ النَّصَارَى - فَكَرِهَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا، وَأَشَارَ فَرِيقٌ بِالنِّدَاءِ، فَيَقُومُ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا حَانَتِ الصَّلَاةُ وَيُنَادِي بِهَا، فَقُبِلَ هَذَا الرَّأْيُ، وَكَانَ أَحَدُ الْمُنَادِينَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيَّ، فَبَيْنَمَا هُوَ

وسليمان أبو عزم ، ص 108.

(1) انظر : وفاء الوفا ، للسَّهْوَدي (321/1).

(2) انظر : السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ (258/1).

(3) انظر : فتح الباري ، في شرح حديث رقم (3581).

بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النداء بالصَّلَاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين، وتشهَّد مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلَاة مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين، ثمَّ كبر ربَّك مرَّتين، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرِّسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبره خبر رؤياه، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أُنْدى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤدِّن للصَّلَاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤدِّنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلَاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين، وأقرَّه الرِّسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، وكان يؤدِّن في البداءة من مكانٍ مرتفع، ثمَّ استُحدثت المنارة (المئذنة) [أحمد (43/4) وأبو داود (499) والترمذي (189) وابن ماجه (706) وابن حبان (1679)] (362).

ثالثاً: الصُّفَّةُ التَّابِعَةُ للمسجد النَّبَوِيّ:

لَمَّا تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة [البخاري (40) ومسلم (545)]، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم به، فظلِّل، أو سقَّف، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة) [363]، ولم يكن له ما يسترُّ جوانبه [364].

قال القاضي عياض: الصُّفَّةُ ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأوي إليها المساكين، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة [365].

أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وأهل الصُّفَّة أضيافُ الإسلام، لا يأوون إلى أهلٍ، ولا مالٍ، ولا على أحدٍ» [البخاري (6452)].

إنَّ المهاجرين الأوائل، الَّذِينَ هاجروا قبل النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو معه، أو بعده؛ حتَّى نَهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم، وأن يشاركوهم النَّفَقَةَ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصار على استيعابهم⁽¹⁾؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر، والنَّاس يدخلون فيه، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء، والأغنياء، والأهلين، والعزَّاب، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»⁽²⁾.

رابعاً: فوائد ودروس وعبر:

1 - المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع

2 - المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

كان المسجد في الإسلام:

1 - متعبداً لصلاة المؤمنين.

2 - ملقياً رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، والوافدين عليه.

3 - جامعة للعلوم، والمعارف.

4 - مأوى للغريب، وابن السَّبيل .

5 قلعةً لاجتماع المجاهدين.

6 - مشفىً يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد.

7 - مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار، ويُبرِّد البريد، وتصدر الرِّسائل.

3 - التَّربية بالقُدوة العمليَّة:

(1) انظر: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ تربية أُمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص 175.

(2) الفتاوى (40/11 ، 41).

من الحقائق الثابتة: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شارك أصحابه العمل، والبناء، فكان يحمل الحجارة، وينقل اللبن على صدره، وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأَيِّ واحدٍ منهم.

نشاط:

1) كيف تستدل من الهجرة النبوية على كل درس من الدروس والعبر المذكورة سابقاً؟

2) استنتج دوراً أخرى من الهجرة النبوية؟

3) اذكر أهمية القبلة وتحويلها ودورها في توحيد الأمة واستقلال شخصيتها.

الدعامة الثانية

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من أولى الدّعائم التي اعتمدها الرّسول صلى الله عليه وسلم في برنامجه الإصلاحيّ والتّظيميّ للأمة، وللدّولة، والحكم، الاستمرار في الدّعوة إلى التّوحيد، والمنهج القرآنيّ، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقلّ أهميّة عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف، وتتّضح معالم تكوينه الجديد⁽¹⁾.

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرّسول صلى الله عليه وسلم هذه الصّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيّات الجاهليّة، فلا حميّة إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النّسب، واللّون، والوطن، فلا يتأخّر أحد، أو يتقدّم، إلا بمروءته، وتقواه.

وقد جعل الرّسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدّماء، والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار، والمواساة، والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال⁽²⁾.

وقد ضرب الأنصار مثلاً رائعاً في هذه الاخوة حتى امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

(1) انظر: الإدارة الإسلاميّة في عصر عمر بن الخطّاب ، د. مجدلاوي ، ص 52 ، 53

(2) انظر: فقه السيرة ، للغزالي ، ص 193 ، 194 .

ونلاحظ في الآية السابقة: أَنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

- 1 - تَبَوَّؤُوا الدَّارَ، والإيمان من قبلهم.
- 2 - يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ.
- 3 - لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتُوا.
- 4 - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.
- 5 - ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون⁽¹⁾.

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد:

- 1 - آصرة العقيدة هي أساس الارتباط
- 2 - الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدني:

إِنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأُمَّة المسلمة، فإذا وَهَتْ؛ تاكل كلُّ بنيانها⁽²⁾؛ ولذلك حرصَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم على تعميق معاني الحبِّ في الله، في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظِلُّهم في ظِلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (2566) وأحمد (237/2) و535] ومالك في الموطأ (952/2).

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حَقَّتْ مَحَبَّتِي للمتحابِّين فيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي للمتواصلين فيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرٍ من نورٍ، يغبطهم النَّبِيُّونَ، والصِّدِّيقُونَ، والشُّهداء» [أحمد (229/5 و239) وابن حبان (577) وروى الترمذي (2390) طرفه الأخير].

- 3 - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة :

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (284/2).

(2) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمَّد الصَّادق عرجون (129/3).

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم، وزادوا على ذلك بأن أثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، وهذا شاهدٌ على صدق محبتهم، وقوة إيمانهم، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار، التي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصار للنبي: اقسّم بيننا وبين إخواننا النّخيل. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة، ونشرككم في الثّمرة. قالوا: سمعنا، وأطعنا» [البخاري (2325)]

فهذا الحديث يفيد: أنّ الأنصار عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يتولّى قسمة أموالهم بينهم، وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النّخيل، فأبى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة - أي: العمل في النّخيل من سقيها، وإصلاحها - ونشرككم في الثّمرة، فلمّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنّ هذا الرأي ضمن سدّ حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار، فأقرّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا، وأطعنا⁽¹⁾. وقد قام الأنصار بالمؤونة، وأشركوا المهاجرين في الثّمرة، ولعلّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل، ولكنّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم، ومواقفهم الرّفيعة في الإيثار، والكرم، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بديلاً في كثيرٍ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة⁽²⁾، حتّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلّهُ، قال: «لا، ما أثبتتم عليهم، ودعوتم الله - عزّ وجل - لهم» [أحمد (200/3 - 201) والترمذي (2487) وابن أبي شيبة (68/9)].

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويّ بيانٌ لعمق تصوّرهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التّصور على تفكيرهم⁽³⁾.

(1) انظر: التّاريخ الإسلامي (30/4).

(2) يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثّمرة.

(3) انظر: التّاريخ الإسلامي ، للحمّدي (406/4).

4 - الإرث بالمؤاخاة:

جعل الله - سبحانه وتعالى - حقَّ الميراث منوطاً بهذا التآخي دون حقوق القرابة والرحم، فقد كان من حكمة التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقةً محسوسةً في أذهان المسلمين.

ولمَّا أَلِفَ المهاجرون جوَّ المدينة، وعرفوا مسالك الرِّزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة، على أساس صلة الرَّحم، وأبطل التَّوارث بين المتآخين، وذلك بنصِّ القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75].

5- تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميّة، والقبلية، ليس بالأمر الهين في المجتمعات الجاهليّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعيّة، منطلقاً من قلب البيئة الجاهليّة.

إنَّ من الأمراض في الصِّفِّ الإسلاميِّ المعاصر، سيطرة الرُّوح الإقليميّة، والعصبية في نفوس بعض الدُّعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها، وينشغل الصِّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميّة بداء العصبية الإقليميّة، والعصبية الشَّخصيّة، والعصبية القُطريّة، والعصبية حتّى على مستوى المدينة، والقريّة الصَّغيرة⁽¹⁾، وقد تولَّد هذا عن أمراض في نفوس بعض الأفراد، بسبب بُعْدِهِم عن القرآن الكريم، وسنّة سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فلم يترَبَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّنّاحر، والتَّباغض.

(1) انظر: التربية القياديّة (286/2).

6 - المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التّمكن المعنويّة:

إنّ من أسباب التّمكن المعنويّة العمل على تربية الأفراد تربيةً ربانيّةً، وإعداد القيادة الرّبانيّة، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول الوحدة، والاتّحاد⁽¹⁾.
وأهمُّ أصول الوحدة، والاتّحاد وحدة العقيدة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحقّ، والتّحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

(1) انظر: فقه التّمكن في القرآن الكريم للصّلاحي ، ص 253.

الدعامة الثالثة

الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق، والواجبات، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب، والصَّحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور).

ولقد تعرَّض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى مجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحِيحة»⁽¹⁾.

أولاً: كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة⁽²⁾:

1 - هذا كتابٌ من مُحَمَّد النَّبِيِّ «رسول الله» بين المؤمنين، والمسلمين من قريشٍ، «وأهل يثرب»، وَمَنْ تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

2 - إِنَّهُمْ أُمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.

3 - المهاجرون من قريشٍ على رِبعَتهم⁽³⁾، يتعاقلون بينهم، وهم يَفْقُدُون عَانِيَهُمْ⁽⁴⁾ بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

4 - وبنو عَوْفٍ على رِبعَتهم، يتعاقلون معاقِلهم⁽⁵⁾ الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عَانِيَهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(1) انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة ، للعمري ، (275/1).

(2) مجموعة الوثائق السِّياسية، لمُحَمَّد حميد الله ، ص 41 . 47 ، وابن هشام (2/147 . 150).

(3) الرِّبعة: الحال الَّتِي جاء الإسلام، وهم عليها.

(4) العاني: الأسير.

(5) معاقِلهم: المعاقِل أي: الدِّيَات ، الواحدة: معقلة.

- 5 - وبنو الحارث «بنو الخزرج» على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 6 - وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 7 - وبنو جُشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 8 - وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 9 - وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 10 - وبنو النبيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 11 - وبنو الأوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 12 - وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً⁽¹⁾ بينهم أن يُعطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْلٍ، وألا يحالف مؤمنٌ مؤمناً دونَه.
- 13 - وإنَّ المؤمنين المتقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةً⁽²⁾ ظُلْمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدٌ أحدهم.
- 14 - ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُرُ كافرًا على مؤمنٍ.
- 15 - وإنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أَدْنَاهُمْ، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالٍ بعضٍ دون النَّاسِ.

(1) مُفْرَحاً: أي: المنقل بالدين، والكثير العيال.

(2) دَسِيعَة: عظيمة.

16 - وَإِنَّهُ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ، فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ، وَالْأُسُوةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ، وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ.

17 - وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يَسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ، وَعَدِلٌ بَيْنَهُمْ.

18 - وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

19 - وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبَيِّئُ⁽¹⁾ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالُوا دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

20 - وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدًى، وَأَقْوَمِهِ، وَإِنَّهُ لَا يَجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ، وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ.

21 - وَإِنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ⁽²⁾ مُؤْمِنًا قِتْلًا عَنْ بَيْنَةٍ؛ فَإِنَّهُ قَوْدٌ⁽³⁾ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ بِهِ (الْعَقْلُ)، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ.

22 - وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَنْصُرَ مُخَدِّثًا⁽⁴⁾، أَوْ يُؤْوِيَهُ، وَإِنَّ مَنْ نَصَرَهُ، أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ، وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلَا عَدْلٌ.

23 - وَإِنَّهُمَا مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .

24 - وَإِنَّ الْيَهُودَ يَنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ.

25 - وَإِنْ يَهُودُ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَأَنْتَمُ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَعُ⁽⁵⁾ إِلَّا نَفْسُهُ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ.

26 - وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

(1) يُبَيِّئُ: مِنْ «الْبَيَّاءِ» وَهُوَ الْمَسَاوَاةُ.

(2) أَيْ: قَتَلَهُ دُونَ جَنَائِيَّةٍ، أَوْ سَبَبٍ يُوْجِبُ قَتْلَهُ.

(3) الْقَوْدُ: الْقَصَاصُ.

(4) الْمَخْدِثُ: يَرُودُ بِكَسْرِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، فَمَعْنَى الْكَسْرِ: مَنْ نَصَرَ جَانِيًا، أَوْ آوَاهُ، وَأَجَارَهُ مِنْ خَصْمِهِ، وَحَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْهُ، وَبِالْفَتْحِ: هُوَ الْأَمْرُ الْمُبْتَدَعُ نَفْسَهُ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْإِيوَاءِ فِيهِ الرِّضَا بِهِ، وَالصَّرُّ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا رَضِيَ بِالْبِدْعَةِ، وَأَقَرَّ فَاعْلَاهَا، وَلَمْ يَنْكَرْهَا عَلَيْهِ؛ فَقَدْ آوَاهُ.

(5) يُؤْتَعُ: يَهْلِكُ، وَالْوَتْعُ: بِالتَّحْرِيكِ: الْهَلَاكُ. وَالْمَعْنَى: فَسَدَ، وَهْلَكَ، وَأَنْتَمُ.

- 27 - وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ.
- 28 - وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ.
- 29 - وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي جُشَمَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ.
- 30 - وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ.
- 31 - وَإِنَّ لِيَهُودَ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ، وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغَى إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ.
- 32 - وَإِنَّ جَفْنَةَ بَطْنٍ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.
- 33 - وَإِنَّ لِبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ.
- 34 - وَإِنَّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.
- 35 - وَإِنَّ بَطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ. (بَطَانَةُ الرَّجُلِ: أَي: خَاصَّتُهُ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ).
- 36 - وَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- 37 - وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ، وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ.
- 38 - وَإِنَّهُ لَا يَأْتِمُ أَمْرُهُ بِخَلِيفِهِ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.
- 39 - وَإِنَّ الْيَهُودَ يَنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ.
- 40 - وَإِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ.
- 41 - وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرِ مُضَارٍّ، وَلَا أَثِمٍ.
- 42 - وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا.
- 43 - وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ، أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فِسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَتَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ (أَي: إِنَّ اللَّهَ، وَحَزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرِّضَا بِهِ).

44 - وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ قَرِيْشٌ، وَلَا مَنْ نَصَرَهَا، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصَرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ.

45 - وَإِذَا دُعُوا إِلَى صِلَاحٍ يَصَالِحُونَهُ، وَيَلْبَسُونَهُ؛ فَإِنَّهُمْ يَصَالِحُونَهُ، وَيَلْبَسُونَهُ، وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ. وَعَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبَلَهُمْ.

46 - وَإِنَّ يَهُودَ الْأَوْسَ - مَوَالِيَهُمْ، وَأَنْفُسَهُمْ - عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، مَعَ الْبَرِّ الْمُحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ، لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ.

47 - وَإِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ، أَوْ آثِمٍ، وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ، وَأَثِمَ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ، وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) (1).

ثانياً: دروس، وعبر، وفوائد من الوثيقة:

1 - تحديد مفهوم الأمة:

تَضَمَّنَتِ الصَّحِيفَةُ مَبَادِئَ عَامَّةً، دَرَجَتِ دَسَاتِيرَ الدُّوَلِ الْحَدِيثَةِ عَلَى وَضْعِهَا فِيهَا، وَفِي طَلِيعَةِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ، تَحْدِيدَ مَفْهُومِ الْأُمَّةِ؛ فَالْأُمَّةُ فِي الصَّحِيفَةِ تَضُمُّ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ، مَهَاجِرِيَهُمْ، وَأَنْصَارَهُمْ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مَنْ لَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ (2)، وَهَذَا شَيْءٌ جَدِيدٌ كُلُّ الْجَدَّةِ فِي تَارِيخِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ؛ إِذْ نَقَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ مِنْ شَعَارِ الْقَبَلِيَّةِ، وَالتَّبَعِيَّةِ لَهَا، إِلَى شَعَارِ الْأُمَّةِ، الَّتِي تَضُمُّ كُلَّ مَنْ اعْتَنَقَ الدِّينَ الْجَدِيدَ. وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرَبِ.

واعتبرت الصحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصحيفة: «وإنَّه من تبعنا من يهود، فإنَّ له النَّصرَ والأُسوةَ، غيرَ مظلومين، ولا متناصرٍ عليهم» (الفقرة 16)، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً، في الفقرة (25) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله: «وإنَّ يهود بني عوف أُمَّةٌ مع المؤمنين...».

(1) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص 41. 47.

(2) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص 169.

وبهذا ترى: أَنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذِينَ يعيشون في أرجائه مواطنين، وَأَنَّهُمْ أُمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس - بمقتضأحكام الصَّحيفة - سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة⁽¹⁾.

2 - المرجعية العليا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (23)، وقد جاء فيها: «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّد صلى الله عليه وسلم» والمغزى من ذلك واضحٌ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ، تُهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرِّسول صلى الله عليه وسلم على الدَّولة⁽²⁾.

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا، يرجع إليها سكَّان المدينة - بما فيهم اليهود - بموجب بند رقم (43)، لكنَّ اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة، وأحوالهم الشَّخصيَّة، فهم يحتكمون إلى التَّوراة، ويقضي بينهم أبحارها، ولكن إذا شأؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقد خيرَ القرآن الكريم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بين قبول الحكم فيهم، أو ردِّهم إلى أبحارهم، قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42] .

(1) انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (37/1).

(2) انظر: التَّاريخ السِّيَاسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص 102.

3 - إقليم الدولة:

وجاء في الصَّحيفة: «إِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفَهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» مادة (40)، وأصل التَّحْرِيمُ ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير، فما بالك في الأموال، والأنفس؟! (1) فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أُمَّةٌ واحدةٌ، وإقليمٌ هو المدينة، وسلطةٌ حاکمةٌ يُرْجَع إليها، وتَحْكُم بما أنزل الله.

4 - الحريَّات وحقوق الإنسان:

فقد أعلنت الصَّحيفة: أَنَّ الحريَّات مصونةٌ؛ كحرية العقيدة، والعبادة، وحقِّ الأمن... إلخ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم».

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة:

1 - محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتهم المستمرة لتمييق الصَّفِّ المسلم، وتخريبه بتقطيع أواصر المحبَّة بين المسلمين، وذلك بآثارة الفتن الدَّاخلية، والشِّعارات الجاهليَّة، والنَّعرات الإقليمِيَّة، والدَّعوات القوميَّة، والقبليَّة، والسَّعي بالدَّسيسة والوقیعة بين الإخوة المتالفين المتواذنين المتحابِّين، فهم في تواذِّهم، وتعاطفهم، وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحمَّى والسَّهر (2).

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شيوخهم الكبار في السَّنِّ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار، وذلك بآثارة العصبِيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليَّتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بذلك أقوى أنصاره (3)، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق - رحمه الله تعالى! -: ومَرَّ شَأْسُ بن قيس - وكان شيخاً قد عَسَا (4)، عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفرٍ من أصحاب رسول الله

(1) انظر: نظام الحكم، لظافر القاسمي (38/1).

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود (44/1).

(3) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (37/4).

(4) عَسَا: كَبُرَتْ سِنُّهُ.

صلى الله عليه وسلم من الأوس، والخزرج، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة⁽¹⁾ بهذه البلاد، لا والله! ما لنا معهم - إذا اجتمع ملأهم بها - من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعث، وما كان قبلك، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يوم بُعث يوماً اقتتل في الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سمالك الأشهلي أبو أسيد بن حُضَيْر، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتل جميعاً.

قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواتب رجال من الحيين على الركب: أوس بن قَيْظٍ - أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس - وجبار بن صخر - أحد بني سلمة من الخزرج - فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة⁽²⁾، فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرّة - السِّلَاح السِّلَاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين! الله الله! أبَدَعَوِ الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟!!

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس.

(1) قيلة: أم الأوس والخزرج

(2) جذعة: أي: رددنا الحرب فتية قوية، أو: رددنا الآخر إلى أوله.

2- سوء أدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والنَّيل من الرُّسل الكرام والقرآن

الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حضرته، وأثناء خطابه؛ إذ يلمزونه، ويحيون به بتحيّة فيها من الأذى والتهجّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السَّامُ⁽¹⁾ عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَهْ يا عائشة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش، ولا التفحُّش»، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: «ألسنٌ تريني أرُدُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم».

3 - دعم حزب المنافقين، وتآمرهم معهم:

حدَّثنا القرآن الكريم، عن قيادة اليهود الفكرية لحزب المنافقين، فهم شياطين المنافقين؛ يَخْطِطُونَ لهم، ويوجِّهونهم، ويدرسون لهم أساليب الكيد، والمكر، والخداع، والدَّهَاء، وآثاره الفتن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14] .

قال النَّسفي في تفسيره: «وشياطينهم الَّذِينَ ماثَلُوا الشَّيَاطِينَ فِي تَمْرُدِهِمْ، هم اليهود»⁽²⁾.

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين، وفي هذا التآمر يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138 - 139] .

4 - بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين

5 - موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة هي الفاصل بين الحرب الكلامية، وحرب المناوشات، والتدخل الفعلي من جانب اليهود، لزعة الدولة

(1) السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (189/8).

(2) انظر: تفسير النَّسفي (21/1).

الإسلاميّة الناشئة⁽¹⁾، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ: أَخْوَالِهِ - مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَاةً، صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ؛ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلُ⁽²⁾ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ؛ أَنْكَرُوا ذَلِكَ [البخاري (40) ومسلم (525)]، وَقَدْ نَزَلَتْ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ، فِيهَا عِبْرَةٌ، وَحُكْمٌ وَدُرُوسٌ لِلصَّفِّ الْمُسْلِمِ.

6 - من صفات اليهود في القرآن الكريم:

1 - الإِشْرَاكُ فِي الْعِبَادَةِ

2 - مُحَارَبَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ

3 - كِتْمَانُهُمُ الْعِلْمَ، وَتَحْرِيفُهُمُ لِلْحَقَائِقِ

4 - التَّفَرُّقُ

5 - الرِّشْوَةُ

6 - النِّفَاقُ

7 - الْمَدَاهِنَةُ

8 - عَدَمُ الْإِتِّفَاعِ بِالْعِلْمِ

9 - الْحَقْدُ، وَالْكَرَاهِيَةُ

10 - الْحَسَدُ

(1) انظر: اليهود في السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ (258/1).

(2) هو بالرفع؛ عطفًا على اليهود.

11 - الغرور والتكبر

12 - البخل

13 - العناد

نشاط:

1) استخراج من كتاب الله تعالى الايات الدالة على كل صفة من هذه الصفات.

2) تحاور مع إخوانك في أسباب عداوة اليهود للمسلمين.

المبحث الثالث

أهم السرايا، والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

1 - غزوة الأبواء:

أولى الغزوات التي غزاها النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الأبواء⁽¹⁾، وتُعرف بغزوة ودّان⁽²⁾ أيضاً، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال، أو ثمانية، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ بل تمت مودة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة)، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ، وراجل⁽³⁾.

2 - سرية غبيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدتها رسول الله (ﷺ)⁽⁴⁾، وكان عدد السرية ستين من المهاجرين، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ، وراجلٍ، وكان قائد المشركين أبو سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماءٍ بوادي رابغ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ، فكان أول سهمٍ رُمي به في الإسلام، وكانت بعد رجوعه من الأبواء⁽⁵⁾.

3 - سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النبي في مقامه ذلك - أي لمّا وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء - حمزة بن عبد المطلب إلى سيف⁽⁶⁾ البحر⁽⁷⁾ من ناحية العيص⁽⁸⁾، في ثلاثين راكباً من

(1) قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء.

(2) ودّان: قرية قريبة من الأبواء.

(3) انظر: جيش النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمود شيت خطاب، ص 54، والراجل: خلاف الفارس، والجمع: رجالة.

(4) انظر: طبقات ابن سعد (7/2).

(5) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، د. محمد بكر ال عباد (40/1).

(6) [سيف: السيف. بالكسر: الشاطئ والساحل، والجمع: أسياف.

(7) سيف البحر: ساحله من ناحية العيص.

(8) العيص. بالكسر: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السّاحل، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مَكَّة، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنِيُّ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعضُ القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال⁽¹⁾.

4 - غزوة بُواط⁽²⁾:

وكانت غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بُواط في شهر ربيع الأوّل، في السّنة الثّانية من مُهاجره، وخرج في مئتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش، كان فيها أُميّة بن خلف، في مئة رجلٍ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ، فلم يلق النّبيُّ صلى الله عليه وسلم كيداً؛ فرجع إلى المدينة.

5 - غزوة العُشيرة⁽³⁾:

وفيها غزا صلى الله عليه وسلم قريشاً، واستعمل على المدينة أبا سلّمة بن عبد الأسد، وسُمّيت هذه الغزوة بغزوة العُشيرة، فأقام بها جُمادى الأولى، وليالي من جُمادى الآخرة، وادع فيها بني مُدَلِج، وحلفاءهم من بني ضَمْرَة، ثمّ رجع إلى المدينة، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك: أنّ العير الّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ، ذاهبةً إلى الشّام⁽⁴⁾، فساحت على البحر، وبلغ قريشاً خبرُها، فخرجوا يمنعوها، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت غزوة بدر الكبرى⁽⁵⁾.

6 - سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العُشيرة، بعث النّبيُّ صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتّى بلغ الحَزْرَارَ⁽⁶⁾ من أرض الحجاز، ثمّ رجع، ولم يلقَ كيداً⁽⁷⁾.

(1) انظر: سيرة ابن هشام (595/1).

(2) بُواط . بفتح الموحدة وضمّها : جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع.

(3) العُشيرة: موضع بين مَكَّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر . (مرصد الاطلاع: 943/2) . [641] انظر: طبقات ابن سعد (10/2).

(4)

(5) المصدر السابق نفسه (11/2).

(6) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر: (مرصد الاطلاع: 455/1).

(7) انظر: سيرة ابن هشام (600/2).

7 - غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرُزَ بنَ جابر الفهريّ، قد أغار على سَرَح⁽¹⁾ المدينة، ونهب بعض الإبل، والمواشي، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه، حتّى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان، من ناحية بدرٍ، وفاته كُرُزُ بن جابرٍ، فلم يدركه، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة⁽²⁾.

8 - سرية عبد الله بن جحش الأسديّ إلى نخلة⁽³⁾:

وأرسل النبيّ صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش في ثمانية رهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع، والتّعرف على أخبار قريش؛ لكنّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريّةٍ لقريش، فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين من رجالها، هما: عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وعادوا بهما إلى المدينة، وقد توقّف النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه الغنائم، حتّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].

فلَمَّا نزل القرآن الكريم؛ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، والأسيرين، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أوّل غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أوّل قتيلٍ قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أوّل من أسر المسلمون⁽⁴⁾.

(1) السَّرَح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

(2) انظر: سيرة ابن هشام (601/2).

(3) نخلة اليمانية: وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين.

(4) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (43/1)، وقد كانت هذه السريّة في شهر رجب، وهو أحد الأشهر الحُرَم، فلمّا كانوا في آخر يومٍ من رجب وتعرضوا لهذه القافلة، تشاوروا، وقالوا: نحن في آخر يومٍ من رجب، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم، ثمّ اجتمعوا على اللقاء، فقتلوا، وأسروا، وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الآية.

1 - متى شرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبه إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وعَلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينيَّة، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويِّ، وأمور معاشهم، وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التَّاحي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم⁽¹⁾. وذهب الأستاذ صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السنة الأولى للهجرة⁽²⁾.

2 - الفرق بين السَّرية، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّير في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ليلقى عدوَّه غزوةً، سواءً حدث فيها قتالٌ، أم لم يحدث، وسواءً كان عددها كبيراً، أم صغيراً. ويطلقون على كلِّ مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لاعتراض عدوِّ كلمة: (سَريَّة) أو: (بعث)، وقد يحدث فيها قتالٌ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه، أو غيره، وغالباً ما يكون عدد الذين يخرجون في السَّرايا قليلاً؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدة في مناوشة العدوِّ، وإخافته، وإرباكه، وقد قاد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سبعةً وعشرين غزوةً، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ وثلاثين سَريَّةً، وبعثاً، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمُرِ الأُمم، بلغت عَشَرَ سنواتٍ من الزَّمن⁽³⁾.

3 - تعداد سكَّان المدينة، وعلاقته بالسَّرايا:

أمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرةً، وكان الإحصاء للمسلمين فقط، أو حسب نصِّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال: «اكتبوا لي من تَلَفَّظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (1500) ألفاً وخمسمئة رجل⁽⁴⁾، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ،

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبه (1/75، 76).

(2) انظر: من معين السَّيرة، ص 175.

(3) في ظلال السيرة. غزوة بدر، لأبي فارس، ص 12.

(4) انظر: الوثائق السِّياسيَّة، لحמיד الله، ص 65.

واستغراب: «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح؛ خوفاً على أنفسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر⁽¹⁾، وبعد هذا التعداد مباشرة، بدأت السرايا، والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة⁽²⁾.

4 - حراسة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم الشخصية:

كان الصحابة رضي الله عنهم يحرسون النبي صلى الله عليه وسلم حراسةً شخصيةً، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أرق النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»؛ إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «من هذا؟» قال: سعد يا رسول الله! جئت أخزئك، فنام النبي صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا غطيته» [البخاري (2885 و7231) ومسلم (2410)]، وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى⁽³⁾. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير، وتسميته، وإثماً على النبي صلى الله عليه وسلم ذلك مع قوة توكله؛ للاستئذان به في ذلك⁽⁴⁾.

5 - سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس، وعبر:

أ - جاء في خبر هذه السرية: أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب لأمير السرية كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وهذا مثل لتطبيق مبدأ مهم من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير، حتى يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة، بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلمّا سار أفراد السرية وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم؛ أصبح النبي صلى الله عليه وسلم آمناً من انكشاف الهدف المقصود⁽⁵⁾.

(1) انظر: الروض الأنف (43/5).

(2) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشُّجاع، ص 163.

(3) انظر: تفسير القرطبي (230/6).

(4) انظر: ولاية الشرطة في الإسلام، د. عمر محمد الحميداني، ص 63.

(5) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (71/4).

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبَوِيَّة في هذه السَّرِيَّة المباركة؛ حيث سمعوا، وأطاعوا جميعاً، وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتَّى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى⁽¹⁾.

ب - حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قتلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبَلِ أفراد السَّرِيَّة، فشَنُّوا حرباً إعلاميَّة، وهجوميَّة مركَّزة، تتخلَّلها دعايات مغرضةٌ ضدَّ المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتِي لا زالت بعض آثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّد صلى الله عليه وسلم، وبالمسلمين، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذِي لا يراعي الحرمات»⁽²⁾. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ، وأصحابه الشَّهر الحرام، وسفكوا فيه الدَّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرِّجال» [البهقي في السنن الكبرى (59/9) وفي الدلائل (19/3) وابن هشام (254/2)]⁽³⁾.

ونجحت قريش في حُطَّتْها تلك بادئ الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدًى كبيرٌ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل، والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السَّرِيَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام، واشتدَّ الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»⁽⁴⁾، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر الحرام، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمريت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»⁽⁵⁾، وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقٍّ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين⁽⁶⁾.

وعندما ظنَّ أهل السَّرِيَّة: أنَّهم قد هلكوا، وسقط في أيديهم⁽⁷⁾؛ جاء الردُّ الرِّبائيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام، فالصدُّ

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرُّسول صلى الله عليه وسلم، للأستاذ أحمد الشريف، ص 445.

(3) انظر: السرايا والبعوث النَّبَوِيَّة، ص 100.

(4) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرُّسول صلى الله عليه وسلم، للأستاذ أحمد الشريف، ص 445.

(5) انظر: سيرة ابن هشام (603/1، 604).

(6) انظر: التَّاريخ الإسلامي (72/4).

(7) سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا، وهو تعبير قرآنيٌّ في سورة الأعراف، الآية (149).

عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الرجل في دينه أكبر من القتل في الشهر الحرام. لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنها تناستها، أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، وأخذتها وسيلة لاثارة حرب شعواء على الإسلام، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنية عليها، وتنفير الناس من الدخول في هذا الدين؛ الذي يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات؛ حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لحقه الغم، ولام قائد السرية، وأصحابه على ما فعلوا⁽¹⁾، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة، موضحة: أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات، وصد عن سبيله⁽²⁾.

ج - حرص القائد على سلامة الجنود: عندما تخلف سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان؛ بسبب بجهتهما عن بعير لهما قد ضل، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك، وعتبة بن غزوان» فلم يفادها حتى قدم سعد، وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان⁽³⁾، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً⁽⁴⁾.

ونفهم من المنهاج النبوي، ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده؛ لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصر دين الله، وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يُحس باهتمام القيادة به، وبسلامته، وبأمنه لا يتردد في أن يبذل غاية البذل، ويعطي أقصى العطاء⁽⁵⁾.

د - ظهور التربية الأمنية في الميدان: كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش، مما أذهلها، وزاد دهشتها وذوولها تلك السرية التامة، والدقة المتناهية؛ التي تمت بها العملية؛ حتى إن جواسيس قريش لم تستطع

(1) انظر: دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين، ص 533.

(2) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص 100.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: غزوة بدر الكبرى، ل محمد أبو فارس، ص 23.

رصدتها، ولا معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة؛ للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيدته عن حركات المسلمين، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل مبدأ (المباغثة)، وهي أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب»⁽¹⁾.

وقد أثبتت هذه السريَّة بما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ سرايا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قويَّةٌ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات، وتتحلَّى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة، واقتدارٍ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية.

وتظهر آثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة، وطاعتها لأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ، أو تحاذلٍ، فما إن قرأ الكتاب، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره، معطياً من نفسه القدوة الحسنة، وباتاً في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة، ويرغب فيها؛ فليَنطلق، ومن كره ذلك؛ فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁽²⁾.

6 - من أهداف السَّرايا:

أ - بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل، والخارج.

ب - كسب بعض القبائل، وتحجيم دور الأعراب.

ج - اعداد الصحابة للغزوات والفتوح الإسلامية الكبرى

د - الاستعداد الدَّائم، واليقظة التَّامة لمتطلبات دولة الإسلام

هـ - كانت السَّرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة، واستكشافيَّة، وجسِّ نبضٍ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضية، تُوقع الرُّعب، والفرع في القوافل القرشيَّة.

(1) انظر: الرَّسول القائد صلى الله عليه وسلم، لخطاب ، ص 94.

(2) انظر: سيرة ابن هشام (602/2) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

المبحث الرابع

أحداثٌ وتشريعات

معالجة الأزمة الاقتصادية:

أدت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم يحلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ، وأساليب متنوعةٍ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفَّةِ التابعة للمسجد النبوي؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين، واهتمَّ صلى الله عليه وسلم بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة؛ فرأى: أنَّ القوَّة الاقتصادية بيد اليهود، وأنَّهم يملكون السُّوق التجاريَّة في المدينة، وأموالها، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلَع، ويحتكرونها، ويستغلُّون حاجة النَّاس، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة، والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام، وأخلاقه الرِّفِعة في عالم التِّجارة، فحدَّد صلى الله عليه وسلم مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النبوي، وخطَّه برجله، وقال: «هذا سوقُكم، فلا ينتقصنَّ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (2233)].

وقد قامت السُّوق في عهده صلى الله عليه وسلم رَحْبَةً واسعةً، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ورعايته، فتعهَّده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابط، وسنَّ له آداباً، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على العَبْن، والغَرَر⁽¹⁾، والغشِّ، والخداع، كما غُني صلى الله عليه وسلم بحريَّته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء، بين الجميع على السَّواء⁽²⁾.

وقد أرسى صلى الله عليه وسلم آداباً كثيرة، وحرماً عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأُمَّة على مَرِّ الدُّهور، وكَرِّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الآداب التي كان يأمر بها، أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّوق، وإشرافه عليه، ومتابعته سير المعاملات فيه،

(1) أي: بيع ما يجهله المتبايعان، أو ما لا يُوثَّق بتسلُّمه، كبيع السمك في الماء.

(2) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام، لأحمد الدرويش، ص 35، 36.

فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرى منكراً إلا غيَّره، وأزاله، ولا معروفاً إلا أقرَّه، ورغب في المواظبة عليه، والالتزام به، مستمداً كلَّ ذلك من توجيهات، وتعليمات ربِّه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣٨) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3 - 4].

ومن هذه الآداب:

1 - يُسنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله - تعالى - ابتداءً، ويحمده، ويشني عليه؛ وذلك لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: أنَّه قال: «مَنْ دخل السُّوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي، ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسنةٍ، ومحا عنه ألف سيئةٍ، ورفع له ألف درجةٍ، وبني له بيتاً في الجنة» [الترمذي (3428) وابن ماجه (2235) والحاكم (538/1)].

«وإنَّما خصَّ السُّوق بالذكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله، والاشتغال بالتجارة، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان، ومجمع جنوده، فالذكر هنا يحارب الشَّيطان، ويهزم جنوده؛ فمن قال ذلك فهو خَلِيقٌ بما ذُكر من الثَّواب»⁽¹⁾.

2 - يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم: أنَّه: «ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سَخَّابٍ»⁽²⁾ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويغفر» [البخاري (2125)]. فالصَّحْب مَذْمُومٌ بذاته، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتِي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟!⁽³⁾.

3 - ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار، والأوساخ؛ لكي لا يُؤذَى المسلمون في حركة سيرهم، ولا بالروائح الكريهة، وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على النَّظافة، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر، قال صلى الله عليه وسلم: «اتَّقُوا اللَّعَّانِينَ»⁽⁴⁾ قالوا: وما اللَّعَّانانِ يا رسولَ الله؟! قال: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ» [مسلم (269) وأبو داود (25)].

(1) تحفة الأحوذى، بشرح جامع الترمذ (386/9).

(2) السَّخْب، ويقال: الصَّخْب: رفع الصَّوت بالخصام.

(3) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام، ص 41.

(4) اللَّعَّانين: المراد بها الأمرين الجالبين لللعن، الحاملين النَّاس عليه، وقد يكون اللعْن بمعنى الملعون، والتَّقْدِير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلُهما.

4 - الاحتراز في حمل السلاح لمن دخل السوق، ومعه سلاح؛ فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أنه قال: «إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نَبْلٌ»⁽¹⁾ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا⁽²⁾. أو قال: فليقبضْ بِكَفِّهِ - أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (7075) ومسلم (2615)] ويقاس عليه الأسلحة، مع ما فيها من خطرٍ محققٍ عند أدنى ملامسةٍ لها⁽³⁾.

5 - الأمر بالوفاء بالعقود، والعهود، وسائر الالتزامات، والتَّحذِير من نقضهما، أو الغدر فيهما، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91].

6 - السُّهولة، واليسر، والمساحة في البيع، والشِّراء، ونحوهما من صنوف التَّجَارَة، قال صلى الله عليه وسلم : «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، سَمَحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمَحًا إِذَا اقْتَضَى» [البخاري (2076) والترمذي (1320) وابن ماجه (2203)].

7 - الصِّدْق، والبيان، وعدم الكتمان من أهمِّ الآداب التي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى صلى الله عليه وسلم على التَّاجِرِ الصَّادِقِ في معاملته، الأمين في أخذه، وعطائه، وبَيَّن: أَنَّهُ يُخْشَر يوم القيامة مع النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقِينَ، والشُّهَدَاءِ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً، قال صلى الله عليه وسلم : «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ، مع النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقِينَ، والشُّهَدَاءِ» [الترمذي (1209) وفي لفظ: «يوم القيامة» ابن ماجه (2139)].

8 - وجوب الابتعاد عن الأيمان الكاذبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «الْحَلِفُ مَنَقَقَةٌ»⁽⁴⁾ لِلسَّلْعَةِ، مَحَقَّةٌ لِلرَّيْحِ» [البخاري (2087) ومسلم (1606)]، وقال صلى الله عليه وسلم : «إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ! فَإِنَّهُ يُنْفِقُ، ثُمَّ يَمَحِقُ» [مسلم (1607) والنسائي (246/7) وابن ماجه (2209)]. «فالحالف يروِّج سلعته، وينفقها، لكن هذا الرِّوَج، وذلك الانفاق موضعٌ لنقصان البركة، ومظنَّةٌ له في المال، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقةً، أو حرقاً، أو غرقاً، أو غصباً، أو نهباً، أو عوارض يُنْفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»⁽⁵⁾.

(1) النَّبْل: السِّهَامُ العربيَّة، ولا واحد لها من لفظها.

(2) النَّصْل: حديدَةُ السَّهْم، والرُّمَح، والسَّيْف ما لم يكن له مقبض.

(3) انظر: أحكام السوق، ص 44.

(4) مَنَقَقَةٌ، ومَحَقَّةٌ: فيه التَّهْي عن الحلف في البيع؛ فَإِنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ، وينضمُّ إليه ترويج البِلْعَة، وربما اغترَّ المشتري باليمين.

(5) شرح الشُّيُوطِي على سنن النَّسَائِي (246/7).

هذه بعض الآداب والتوجيهات النبوية، تتعلق بآداب التعامل في السوق الإسلامي؛ مما كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ويتحكموا فيه، وهكذا قهروا اليهود في أدق اختصاصاتهم⁽¹⁾.

ولقد تطوّرت تلك التعاليم، والآداب مع توسّع الدولة، ونزول التشريعات، وأصبح للتجارة علم، وفقه، ومبادئ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين»⁽²⁾.

زواجه صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة في مكة قبل الهجرة، وهي ابنة ست سنين، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة⁽³⁾.

وكانت حركة الدعوة والجهاد، والتربية، وبناء الدولة مستمرة، ولم تتعطل حالات الزواج في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ بل الزواج، والإكثار منه كان عادياً جداً، في حياتهم، كالطعام، والشراب، وذلك من مظاهر: أنّ الإسلام دين الفطرة، والواقع؛ بل إنّ الزواج جزء مهم في بناء المجتمع المسلم⁽⁴⁾.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وحيثما يُذكر هذا الرّقم؛ يتبادر للذهن الشيب، والضعف، ونفسية أصابتها الشيخوخة، ولا شك أنّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار الناس كقاعدة عامة؛ ولكنّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان، ونشاطه، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثلاثين يحمل في جسمه، ونفسيته أعباء الخمسين، وقد نجد في بعض الأحيان إنساناً الخمسين، فلا نحكم عليه بأكثر من الثلاثين، وشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فذة في

(1) في ظلال البشارة النبوية - الهجرة النبوية، لأبي فارس، ص 70.

(2) انظر: أحكام السوق في الإسلام، ص 53.

(3) انظر: من معين البشارة، ص 168.

(4) انظر: الأساس في السنة (420/1).

هذا الميدان، فهو - وهو في الخمسين - كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همّةً، وعزماً، ومضاءً وفحولةً؛ إنّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان، والأدلة تؤيّد ما ذهبت إليه؛ ومنها:

أ - لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل، مرّ على بني عامر بن صعصعة، وعرض عليهم أمره، فقال بَيْحَرَةُ بن فِرَاس: «والله! لو أُنِّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب»⁽¹⁾، ونلاحظ في قول بَيْحَرَةَ:

. عبّر عنه بـ (الفتى)، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر، الممتلئ حيويّةً، ونشاطاً.

. وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبر عمّا لاحظته في شخصية الرّسول الكريم صلى الله عليه وسلم من حيويّةٍ، وهمّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً، كانت هذه نظرة بَيْحَرَةَ، والرّسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنّه الشباب شكلاً، ومضموناً، مظهرًا ونفسيّةً، همّةً، وروحاً⁽²⁾.

ب - وفي خبر الهجرة، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَفُ، ونبيُّ الله صلى الله عليه وسلم شابٌّ لا يُعْرَفُ، قال: فيلقى الرّجلُ أبا بكرٍ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرّجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب: أنّه إنّما يعني الطّريق، وإنّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (3911) وأحمد (211/2)]، وكان صلى الله عليه وسلم لم يَشِبْ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ⁽³⁾.

ويلاحظ من النّصّ بوضوح: أنّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنّه الحقيقي شيخاً⁽⁴⁾؛ بينما كان صلى الله عليه وسلم يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه، كما أوضح ذلك القسطلاني بقوله: وكان صلى الله عليه وسلم لم يَشِبْ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ⁽⁵⁾.

وبذلك نستطيع أن نقول: إنّ الفارق في العمر بينه صلى الله عليه وسلم وبين عائشة، لم

(1) انظر: سيرة ابن هشام (424/1).

(2) انظر: من معين السيرة، ص 171.

(3) انظر: شرح الرُّزقاني على المواهب (355/1) نقلاً عن (من معين السيرة).

(4) انظر: من معين السيرة، ص 171.

(5) المصدر السابق نفسه.

يكن ذلك الفارق الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة، فها هو صلى الله عليه وسلم يسابق السيِّدة عائشة، فتسبقه مرَّةً، ويسبقها أخرى، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (264/6) وأبو داود (2578) وابن ماجه (1979) وابن حبان (4691)]، والأمثلة في حياته صلى الله عليه وسلم كثيرة⁽¹⁾.

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتِي كانت وراء زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عائشة رضي الله عنها، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلَع الحياة في المدينة، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته صلى الله عليه وسلم ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته، ومع أسرته، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرِّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التَّأسيَّ به، وكانت تلك مهمَّة السيِّدة عائشة رضي الله عنها - على الخصوص - وبقية أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ؛ فقد استطاعت السيِّدة عائشة رضي الله عنها، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ، أن تؤدِّي دورها على خير ما يُرام، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبين، وتؤكد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبلِّغ ما وَعَّته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرضي الله عنها!⁽²⁾.

* * *

(1) انظر: من معين البتيرة ، ص 172.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 173.

الفصل الخامس

غزوة بدر الكبرى

رمضان - السنة الثانية للهجرة

المبحث الأول مرحلة ما قبل المعركة

سببها:

بلغ المسلمون تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام، تحمل أموالاً عظيمة⁽¹⁾ لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين، وأربعين رجلاً⁽²⁾، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب بن عمرو⁽³⁾؛ لجمع المعلومات عن القافلة⁽⁴⁾، فلما عاد بسبب بالخبر اليقين، ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج، وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله ينفلكموها»⁽⁵⁾، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر، من شهر رمضان المبارك، من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد: أنه حين خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة، لم يكن في نيته قتال؛ وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو، ودمائهم مباحة، فكيف إذا علمنا: أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة، قد استولى عليها المشركون ظلماً، وعدواناً⁽⁶⁾.

كان عدد الصحابة الذين رافقوا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوته هذه إلى بدر «بضعة

عشر وثلاثمائة» [البخاري (3957) و(3958)]

(1) قُدِّرَتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي 50 ألف دينار ، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (286/1).

(2) جوامع السيرة ، لابن حزم ص 107.

(3) ورد هذا الاسم في مسلم هكنا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، رقم (1901) ، قال النووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس) ... قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والآخر لقباً».

(4) مسلم ، رقم (1901).

(5) سيرة ابن هشام (61/2) بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(6) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، د. محمد ال عابد (43/1).

وأما قوَّات قريشٍ، وأحلافها مجتمعةً للحرب، فقد بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (1763)]، معهم مئتا فرسٍ، يقودونها إلى جانب جهمهم، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بغيراً يتعاقبون ركوبها. [الطبراني في المعجم الكبير (12105) والهيتمي في مجمع الزوائد (69/6)].

العزم على ملاقاتة المسلمين بدبر:

بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته، واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل، في الوقت نفسه أرسل ضَمَضَمَ بن عمرو الغفاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلته، وأموالها⁽¹⁾، وغيرَ طريق القافلة، وأبَّجه نحو ساحل البحر⁽²⁾.

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماءُها غضباً؛ لما يَرَوْنَه من امتهانٍ للكرامة، وتعرضٍ للمصالح الاقتصادية للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ لمكانة قريشٍ بين القبائل العربية الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية⁽³⁾.

لقد جاءهم ضَمَضَمُ بنُ عمرو الغفاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جداً، يتأثر بها كلُّ من رآها أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه، وجَدَعَ أنفَ بغيره، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ، ومن دُبُرٍ، ودخل مَكَّةَ وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطِيْمَةُ اللَّطِيْمَةُ⁽⁴⁾! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد مع أصحابه، لا أرى أن تُدركوها، الغوث، الغوث!⁽⁵⁾.

وعندما أَمَنَ أبو سفيان على سلامة القافلة، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَةِ، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته، والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مَكَّةَ، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في آراء زعماء قريش، فقد أصَرَ أغلبهم على التَّقَدُّمِ نحو بدبر.

(1) انظر: موسوعة نضرة النعيم (287/1).

(2) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص 33 ، 34.

(3) انظر: موسوعة نضرة النعيم (287/1).

(4) اللَّطِيْمَةُ: القافلة المحمَّلة بشئٍ أنواع البضاعة غير الطعام.

(5) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (221/2).

وقد كان هدف قريش من التقدم نحو بدر:

تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش، وسلطانها،

مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَجَاةَ الْقَافِلَةِ، وَإِصْرَارُ زَعَمَاءِ مَكَّةَ عَلَى قِتَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ⁽¹⁾، وَأَبْدَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَدَمَ ارْتِيَا حُكْمِهِمْ لِمَسْأَلَةِ الْمَوَاجَهَةِ الْحَرِيَّةَ مَعَ قَرِيْشٍ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَقَّعُوا الْمَوَاجَهَةَ، وَلَمْ يَسْتَعِدُّوا لَهَا، وَحَاحِلُوا إِقْنَاعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهَةِ نَظَرِهِمْ، وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَوْقِفَهُمْ، وَأَحْوَالَ الْفِتْنَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَمُومًا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَّا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿[الأنفال 5 - 8] .

موقف المقداد بن الأسود:

وقد أجمع قادة المهاجرين، على تأييد فكرة التَّقدُّم لملاقاة العدو⁽²⁾، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحبُّ إليَّ ممَّا عُذِلَ به⁽³⁾: أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾، ولكنَّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (3952)].

(1) البخاري، كتاب المغازي، باب {إِذْ تَسْتَعِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، رقم (3952)، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

(2) انظر: موسوعة نضرة النعيم (288/1).

(3) المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خيَّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك، لكان حصوله أحبَّ إليه.

وفي رواية: قال المقداد: يا رسول الله! إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: وَلَكِنْ: امْضِ وَنَحْنُ ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فكأنه سُري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . [البخاري (4609)] .

وبعد ذلك عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أشيروا علي أيها الناس!» وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية، لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة، وقد أدرك الصحابيُّ سعد بن معاذ، - وهو حامل لواء الأنصار - مقصد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «أجل»، فقال: لقد آمنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، وموآثيقنا على السّمع، والطّاعة، فامض يا رسول الله! لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضّته لخضّناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إِنَّا لصُبّر في الحرب، صُدّق عند اللّقاء، ولعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسير على بركة الله. [ابن هشام (267/2) وبنحوه مسلم (1179)].

وسرّ النبي صلى الله عليه وسلم من مقالة سعد بن معاذ، ونشّطه ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «سيرُوا وأبشروا؛ فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين، والله! لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (34/3) وابن هشام (267/2)] .

كانت كلمات سعدٍ مشجّعةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وملهبةً لمشاعر الصحابة؛ فقد رفعت معنويات الصحابة، وشجّعتهم على القتال، إنّ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على استشارة أصحابه في الغزوات، يدلُّ على تأكيد أهمّية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأنّ الحروب تقرّر مصير الأمم، فإمّا إلى العلياء، وإمّا تحت الغبراء⁽¹⁾.

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص 37.

المسير إلى لقاء العدو، وجمع المعلومات عنه:

نظّم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جنده، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة، وشجاعتهم، واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض، وسلّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوّداً وبنين إلى سعد بن معاذ، وعليّ بن أبي طالب⁽¹⁾.

الاستخبارات العسكرية:

وقام صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة، لقياً شيخاً من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جيش قريش، وعن محمدٍ وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مَن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشيخ: فإنه بلغني: أنَّ محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً - ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمّا أردتما، فأخبراني مَن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء»، ثمَّ انصرف النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمّن ماء العراق؟ [ابن هشام (267/2 - 268)].

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكرٍ، أرسل صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب، والزُّبَيْر بن العوّام، وسعد بن أبي وقاص، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسكّطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين، فأتوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريش» فقالا: هم - والله! - وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالوا: كثيرٌ، قال: «ما عدّتهم؟» قالوا: لا ندري، قال الرَّسول صلى الله عليه وسلم: «كم ينحرون كلّ يوم؟» قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشرةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) انظر: زاد المعاد (172/3).

«القوم ما بين التسعمئة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» فذكر عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأمّية بن خلف، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكّة قد ألفت إليكم أفلاذكبدها» [ابن هشام (269/2)]

جوانب من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الكتمان:

1 - سؤاله صلى الله عليه وسلم الشيخ الذي لقيه في بدرٍ عن محمدٍ وجيشه، وعن قريش وجيشها.

2 - تورية الرسول صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال الشيخ: ممّن أنتم؟ بقوله (ﷺ): «نحن من ماء»، وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول (ﷺ) كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

3 - وفي انصرافه فور استجوابه كتماناً - أيضاً - وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكمة فلو أنّه أجاب هذا الشيخ ثمّ وقف عنده، لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله (ﷺ): «من ماء»⁽¹⁾.

4 - أمره صلى الله عليه وسلم بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ، فعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ. [أحمد (150/6) وابن حبان (4699) و(4702) والهيثمى في مجمع الزوائد (174/5)].

5 - كتمانته صلى الله عليه وسلم خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ لنا طلبّة؛ فمن كان ظهْرُهُ حاضراً؛ فيركب معنا» [مسلم (1901)].

قال الإمام النووي: «في هذا: استحباب التورية في الحرب، والألّ يبين الإمام جهة إغارته، وإغارة سراياه؛ لئلا يشيع ذلك؛ فيحذرهم العدو»⁽²⁾.

(1) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (110/4).

(2) انظر: التربية القيادية (21/3).

ونلاحظ: أنَّ التَّربيةَ الأُمْنِيَّةَ في المنهاج النَّبَوِيِّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجَهْرِيَّة بمكَّة، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة، وأصبحت تنمو مع تطوُّرها، وخصوصاً في غزوات الرِّسول صلى الله عليه وسلم.

مشورة الحُباب بن المُنذر في بدر:

بعد أن جمع صلى الله عليه وسلم معلوماتٍ دقيقةً عن قوَّات قريشٍ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ، وهنا قام الحُباب بن المُنذر، وقال: يا رسول الله! أرايت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرِّأي، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرِّأي، والحرب، والمكيدة» قال: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزلٍ، فاهضْ يا رسول الله بالنَّاس! حتَّى تأتِي أدنى ماءٍ من القوم - أي: جيش المشركين - فننزله، ونغور - نخرب - ما وراءه من الابار، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثمَّ نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم برأيه، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدو، فنزل عليه، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ، وغَوَّروا ما عداها من الابار [ابن هشام (272/2)، والبيهقي في دلائل النبوة (35/3)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرِّسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدلي برأيه، حتَّى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدييِّ سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد، وتأخُّره في الرتبة، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتِي ربَّى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرِّأي السَّديد، والمنطق الرِّشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً، وإن كان حديث السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد، أو آراء عصبية مهيمنة عليه، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإمَّا يفكِّر باراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرِّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم، والوصول برأيه إلى قائد جيشه [816].

فائدة: وقد جعل علم القيادة الحديث الانفتاح على الآخرين من أهم سمات الشخصية

القيادية التغييرية.

ونلاحظ عظمة التربية النبوية؛ التي سرّت في شخص الحُبّاب بن المنذر، فجعلته يتأدّب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة التي لديه؛ لكن هذا تمّ بعد السؤال العظيم، الذي قدّمه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم : «يا رسول الله! أرايت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرّأي، والحرب، والمكيدة؟».

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها، أو قائدٍ من قوّادها [817].

اتل الآيات القرآنية التي تحدثت عن غزوة بدر في سورة الأنفال.

نشاط:

المبحث الثاني

النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في ساحة المعركة

من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

النعاس:

من المَنَنِ (1) الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ: أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ النَّعَاسَ، وَالْمَطَرَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِمُوا مَعَ أَعْدَائِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11] .

وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أَنَّ قَوَّاهُمْ بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أَنَّ أَمْنَهُمْ بزوال الرُّعب من قلوبهم، كما يقال: الأَمْنُ مُنِمْ، والخَوْفُ مُسْهِرٌ (2).

إنزال المطر

وبَيَّنَّ - سبحانه وتعالى - : أَنَّهُ أَكْرَمَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهِمْ، فِي وَقْتٍ لَمْ يَكُنِ الْمَعْتَادُ فِيهِ نَزُولُ الْأَمْطَارِ، وَذَلِكَ فَضلاً مِنْهُ، وَكَرَمًا، وَإِسْنَادَ هَذَا الْإِنْزَالِ إِلَى اللَّهِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ أَكْرَمَهُمْ بِهِ. فَقَدْ بَيَّنَّ - سبحانه - : أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَطَرَ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ، فَتَطَهَّرُوا بِهِ حَسَبِيًّا، وَمَعْنَوِيًّا؛ إِذْ رَبَطَ اللَّهُ بِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَثَبَّتَ بِهِ أَقْدَامَهُمْ؛ وَذَلِكَ: أَنَّ النَّظَرَ فِي مَنْطِقَةِ بَدْرٍ يَجِدُ فِي الْمَنْطِقَةِ رَمَالًا مَتَحَرِّكَةً لَا زَالَتِ حَتَّى الْيَوْمِ، وَمِنَ الْعَسِيرِ الْمَشِيِّ عَلَيْهَا، وَلَهَا غَبَارٌ كَبِيرٌ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْأَمْطَارُ تَمَاسَكَتْ تِلْكَ الرِّمَالُ، وَسَهَّلَ السَّيْرَ عَلَيْهَا، وَانْطَفَأَ غَبَارُهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ (3). (4)

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص 66.

(2) [الْمَنَّةُ: الإحسان والإنعام، والجمع: مَنَنٌ.

(3) انظر: تفسير الطبري (195/9).

(4) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (91/1).

تحريض النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابِهِ عَلَى الْقِتَالِ:

وفي غزوة بدر الكبرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فقال عُمَيْرُ بْنُ الْحُصَيْنِ الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله! جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ، بَخٍ! (كلمة تعجب)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا والله! يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قرنيه (جعبة النشاب)، فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إني لأحياةً طويلةً، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل. [مسلم (1901)].

دَعَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتِغَاثَتُهُ:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، لما نظم صلى الله عليه وسلم صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم، وحرَّضهم على القتال؛ رجع إلى العرش الذي بُني له، ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العرش لحراسته؛ وهو شاهر سيفه، واتَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه يدعو، ويناشده النصر الذي وعده، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي! اللَّهُمَّ اتِّمِّمْ لِي مَا وَعَدْتَنِي! اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ!» فما زال يهتفُ برَّبه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك! [مسلم (1763) وأبو داود (2690) والترمذي (3081) وأحمد (30/1)]. فأُنزل الله - عز وجل -:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾

ونلاحظ: أنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ، وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، فَكَانَ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

المبحث الثالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبه بن ربيعة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار؛ ولكنَّ الرّسول صلى الله عليه وسلم أرجعهم؛ لأنَّه أحبُّ أن يبارزهم بعض أهله، وذوي قريبه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «قم يا عبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزة شيبه، فقتله، وبارز عليّ الوليد، وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة، فضرب كل واحدٍ منهما الآخر بضربةٍ موجعةٍ، فكَّر حمزة، وعليّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة، وأتيا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ما لبث أن استشهد متأثراً بجراحه. [أبو داود (2665)]⁽¹⁾.

ولمّا شاهد المشركون قتلَ الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد، وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدِّفاع، ويرمونهم بالنَّبل، كما أمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ، أَحَدٌ، ثُمَّ أمرهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالهجوم المضادِّ، محرّضاً لهم على القتال، وقائلاً لهم: «شُدُّوا»، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنة، وممّا زاد في نشاط المسلمين، واندفاعهم في القتال، سماعهم قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وعِلْمُهم، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين، ورؤيتهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتبُّ في الدَّرع وقد تقدَّمهم، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾⁽²⁾.

إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم، والسُّنَّة النبويَّة المطهَّرة، ومرويات عددٍ من الصحابة البدرين: أنَّ الله تعالى ألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (126/2).

(2) انظر: الرُّحيق المختوم، ص 116. 118، والحديث رواه البخاريُّ، رقم (4875).

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيِّ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 123 - 126].

وأورد البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر⁽¹⁾.

انتصار المسلمين على المشركين، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل القلب(2):

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش، وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تمَّ الفتح، وانهمز المشركون؛ أرسل صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رَوَاحَةَ، وزيد بن حارثة، ليشيرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين⁽³⁾.

ومكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام في بدر، فقد ذكر أنس بن مالك عن أبي طلحة: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ: أَقَامَ بِالْعَرَصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ» [البخاري (3976)] ولعلَّ الحكمة في ذلك:

1 - تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة؛ التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين.

2 - دفن من استشهد من جند الله، مما لا تكاد تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء

(1) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (291/1).

(2) القلب: البئر، والجمع: قُلُبٌ.

(3) انظر: المستفاد من قصص القرآن (133/2).

المسلمين في أرض المعركة، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلَاة عليهم، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدر⁽¹⁾.

3 - جمع الغنائم، وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ؛ حتى تُؤدَّى كاملةً إلى مستحقيها، وقد أُسندت أنفال، وغنائم بدر، إلى عبد الله بن كعب الأنصاري أحد بني مازن⁽²⁾.

4 - إعطاء الجيش الظَّافِر فرصةً يستريح فيها، بعد الجهد النَّفسي، والبدني المُضني الذي بذله أفرادُه في ميدان المعركة، ويضمِّد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر، الذي لم يكن دانيَ القُطوف، سهلَ المنال، ويتذاكر أفرادُه، وجماعته ما كان من أحداثٍ ومفاجاتٍ في الموقعة، ممَّا كان له أثرٌ فعَّالٌ في استجلاب النَّصر، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته، وجرأته على اقتحام المضائق، وتفريج الأزمات، وما تكشفَتْ عنه المعركة من دروسٍ عمليَّةٍ في الكرِّ، والفرِّ، والتَّدير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبرٍ، واستذكار أوامر القيادة العليا، وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور، المظفَّر بالنَّصر المبين.

5 - مواراة جَيْفٍ⁽³⁾ قتلى الأعداء، الَّذِينَ انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرُّف عليهم، وعلى مكائنتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاء شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأُمَّة، والذي كان من شأن رأس الكفر أُميَّة بن خلف، وأضرابهما، [ابن هشام (292/2 - 293)]

ثم أمر بهم، فسُحبوا إلى قَلْبٍ من قُلُبِ بدر، فطُرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعة! يا شيبهُ بنُ ربيعة! يا أُميَّةُ بنُ خلف! يا أبا جهل بن هشام! يا فلان! يا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقًّا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا»، فقال عمر بن الخطَّاب:

(1) انظر: موسوعة نضرة النعيم (291/1).

(2) انظر: محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لصديق عرجون (453/3).

(3) الجَيْفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أُنْتَنَتْ، والجمع: جَيْفٌ.

يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفُوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (3976) ومسلم (2873) و(2874)].

* * *

المبحث الرابع

مشاهد واحداث من المعركة

اولاً: مصارع الطُّغاة:

مصارع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِعُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةَ أَسْنَانُهُمَا، تَمْنِيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ⁽¹⁾ مِنْهُمَا، فَعَمَزَنِي⁽²⁾ أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عُمُ! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا بَنَ أَخِي؟! قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسْتُبُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لئن رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ؛ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا⁽³⁾، فَتَعَجَبْتُ لَذَلِكَ، فَعَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ⁽⁴⁾ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضْرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ! فَقَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟»، قَالَا: لَا. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ» وَكَانَا: مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ [البخاري (3141) ومسلم (1752)]⁽⁵⁾.

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله يوم بدرٍ: «مَنْ يَنْظُرُ مَا فَعَلَ أَبُو جَهْلٍ؟» فَاَنْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ حَتَّى بَرَدَ⁽⁶⁾، فَأَخَذَ بِلَحِيَّتِهِ، فَقَالَ: أَنْتَ أَبُو جَهْلٍ؟! قَالَ: وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ؟ أَوْ قَالَ: قَتَلْتُمُوهُ. [البخاري (3962) ومسلم (118/1800)].

(1) أضلع: أقوى، وأعظم، وأشد.

(2) عمزني: قرصني.

(3) حتى يموت الأعجل منا: أي: الأقرب أجلاً.

(4) أنشب: ألبس.

(5) وإنما قضى صلى الله عليه وسلم بالسلب لعمر بن الجُمُوح وحده؛ لأن السلب يستحقه من أُنخن في القتل، ولو شاركه غيره في الضرب، أو الطعن، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلاكما قتله» تطبيقاً لقلب الآخر؛ من حيث إنَّ له مشاركة في قتله، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجُمُوح هو الذي أُنخنه، وأيضاً فإنَّ مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ نَفْسَهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَقَدْ عَاشَ إِلَى زَمَانِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(6) برَدَ: قارب على الموت، وكان في النَّزْعِ الْآخِرِ، أَوْ فَتَرَ وَسَكَنَ، وَالْمَعْنَى مِتَّ قَرِيبًا.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً، فقلت: أيّ عدوّ الله، قد أخزأك الله! قال: وبم أخزاني؟ هل أَعْمَدُ من رجلٍ قتله قومه⁽¹⁾، ومعِي سيفٌ لي، فجعلت أضربه، ولا يحتك فيه شيءٌ، ومعه سيفٌ له جيّدٌ، فضربتُ يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثمّ كشفْتُ المِعْفَر عن رأسه، فضربتُ عنقه، ثمّ أتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟!» قلت: الله الذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئتُ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته.

ثانياً: من مشاهد العظمة:

استشهاد حارثة بن سُراقَة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةٌ يوم بدرٍ، وهو غلامٌ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلة حارثة مَنّي، فإن يكن في الجنة؛ أصبر، وأحتسب، وإن تكن الأخرى، تر ما أصنع؟ فقال: «ويحك! أوَهَيْلتِ! أَوْجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنّها جناتٌ كثيرةٌ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (3982)] وفي رواية: «يا أمّ حارثة! إنّها جنان في الجنة، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»⁽²⁾.

عُمَيْرُ بن أبي وقَّاص: لَمَّا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدرٍ، وعُرض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْرُ ابن أبي وقَّاص، فبكى عُمَيْرٌ، فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عُمَيْرٌ يتوارى حتّى لا يراه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال سعد: رأيت أخِي عُمَيْرُ بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إنّني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستصغرنِي، ويردَّنِي، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة⁽³⁾. وقد استشهد بالفعل.

(1) [أَعْمَدُ من رجل قتله قومه] أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليّ عازٌّ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

(2) الأساس في السُّنَّة وفقهها، السِّيرة النَّبَوِيَّة، لسعيد حوَّى (475/1).

(3) السِّيرة النَّبَوِيَّة، لأبي فارس، ص 317، نقلاً عن صفة الصفوة (294/1)، والمستدرک (188/3) والإصابة (35/3).

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النّبيّ (ﷺ)، فشهدت معه بدرًا، فالتقى النّاس، فهزم الله - تبارك وتعالى - العدو، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمُونَ ويقتلون، وأكَبَّتْ طائفةٌ على العسكر يَحْوُونَ، ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله (ﷺ)؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةٌ؛ حتّى إذا كان اللّيل، وفاءً⁽¹⁾ النّاسُ بعضهم إلى بعضٍ.

قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْنَاهَا، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحقّ بها مِنّا؛ نحن نَقَيْنَا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله (ﷺ): لستم بأحقّ بها مِنّا؛ نحن أحدقنا برسول الله (ﷺ)، وخِفْنَا أن يصيب العدوُّ منه غِرَّةٌ، واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]؛ فقسمها رسول الله (ﷺ) على فُوقٍ بين المسلمين [أحمد (324/5)].

وفي رواية: قال عبادة بن الصّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النّفْل⁽²⁾، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله - تبارك وتعالى - من أيدينا، فجعله إلى رسول الله (ﷺ)، فقسمه رسول الله (ﷺ) فينا عن بواءٍ. يقول: على السّواء. [أحمد (322/5)].

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

(1) فاءٌ قُبِيحَةٌ: رَجَعَ.

(2) النّفْل: الغنيمة ، والجمع: أنفال.

وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَجْبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: 4-1].

فائدة: تضمنت آيات سورة الأنفال عتاباً أليماً موجعاً للمؤمنين عند انتصارهم، بينما كانت آيات سورة آل عمران رقيقة رحيمة بالمؤمنين وهي تتحدث عن آثار ودروس غزوة أحد، وفي هذا توجيه تربوي حكيم للمربين في التعامل مع الناس وقت النصر أو الفوز ووقت الضعف أو الهزيمة.

وهذا العرض الرباني يؤكد حقيقة أكبر من النصر على المشركين، يؤكد: أنَّ صلاح ذات البين، والانتصار الحقيقي على مسارب النفوس، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله، وهو الأعظم في ميزان الله، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصِّفِّ واختلافٌ في القلوب. وتبين الآيات: أنَّ قضية التقوى، والإيمان، تدخل في شؤون حياة المسلم كافةً، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى⁽¹⁾.

وبعد التربية القرآنية للمؤمنين بعد اختلافهم على الغنائم جاء الجواب عن السؤال (يسألونك عن الأنفال) جاء الجواب في الآية 41

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

وهذا بعدما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم، والخمس لله، ورسوله (ﷺ)، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً، وموزعٌ على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسنة - . إنَّ التوجيه التربوي في إرجاء إنزال جواب السؤال عن

(1) المنهج التربوي للتبوية . التربية الجهادية ، للغضبان (52/1).

الغنائم، يشير إلى أَنَّ الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجؤ النفسى الروحى المناسب؛ لتحتل مكانها اللائق في العقل، والضَّمير، فتثبت، وتتمكَّن،

وتؤتي أطيب النتائج؛ إذ يتجلى فيها أكمل الحلول، وهكذا صرف المولى - جلَّ شأنه - عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أولاً، وبالغنائم ثانياً؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلمَّا تفرَّغوا للخالق، وأخلصوا في الجهاد؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون⁽¹⁾. وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء، ورعاية أبنائهم، وأسْرهم من قرابة أربعة عشر قرناً⁽²⁾.

الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلمَّا أسروا الأسارى، قال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ، والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوَّة على الكفَّار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ): «ما ترى يا بن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر، ولكي أرى أن تُمَكِّنَّا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكِّن علينا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها، فهوي رسولُ الله (ﷺ) ما قال أبو بكر، ولم يَهَوَّ ما قلتُ، فلمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله (ﷺ)، وأبو بكر قاعدان يبيكان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت، وإن لم أجد بكاءً؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عَرَضَ عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشَّجرة» - شجرة قريبة من نبيِّ الله (ﷺ) - .

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص 61. 62.

(2) انظر: البيرة النَّبويَّة، لأبي شُهبة (176/2).

وأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فَأَحْلَلَ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. [30/1 - 31)، ومسلم (1763)، وأبو داود (2690)، والترمذي (3081)].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين، والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين؛ حتى تُرهَب من قِبَل أعدائها، وفي سبيل هذه الكليّة يُطرح الاهتمام بالجزئيات - حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها -⁽¹⁾.

كانت معاملة النبي (ﷺ) للأسرى تحقُّها الرحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدعوية؛ ولذلك تعددت أساليبه، وتنوّعت طرق تعامله (ﷺ)، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنّ عليهم.

الوصيّة بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكريم:

ولمّا رجع (ﷺ) إلى المدينة فرّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»⁽²⁾؛ وبهذه التّوصية النبويّة الكريمة، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8].

فداء العباس عم النبي (ﷺ):

بعثت قريش إلى رسول الله (ﷺ) في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله! قد كنت مسلماً، فقال رسول الله (ﷺ): «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك، وأمّا ظاهرك، فقد كان علينا، فافتد نفسك، وابني أخويك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليقك عتبة بن عمرو أخي

(1) انظر: من معين البيرة، ص 209.

(2) المصدر السابق (307/3).

ابن الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأُمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصِبتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وثُمَّ؟!» قال: والله يا رسول الله! إني لأعلم أنَّك رسولُ الله، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم مِنِّي عشرين أوقيةً من مالٍ كان معي. فقال رسول الله (ﷺ): «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه، وابني أخويه، وحليفه؛ فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿[الأَنْفَال: 70 - 71].

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيةً في الإسلام عشرين عبداً، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله - عزَّ وجلَّ - [البيهقي في الدلائل (142/3 - 143)، وينحوه أحمد (353/1)] (1).

هذا، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فهذه الآية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه، وفداء ابني أخويه، وأخفى إسلامه، وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارةٍ فائقةٍ، وقدرةٍ نادرةٍ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكة، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ (2).

التَّعليم مقابل الفداء:

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان ناسٌ من الأسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ، فجعل رسولُ الله (ﷺ) فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة (3)، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان

(1) انظر شرح الحديث (4018) في فتح الباري.

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (68/3).

(3) انظر: صحيح البَيِّرة النَّبويَّة، ص 261.

المدينة القراءة، والكتابة، وكلُّ مَنْ يُعَلِّمُ عَشْرَةً مِنَ الغلمان يفدي نفسه⁽¹⁾، وقَبول النَّبِيِّ (ﷺ) تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال، يُرينا سَمَوِ الإسلام في نظرتِه إلى العلم، والمعرفة، وإزالة الأميّة، وقد استفاضت نصوصُ القرآن، والسُّنَّة في التَّزْغِيب في العلم، وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبِيُّ (ﷺ) أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأميّة، وإشاعة القراءة، والكتابة، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام⁽²⁾.

حكم الأسرى:

إنَّ حكم الأسرى في الإسلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام؛ ليختار حُكْمًا من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامّة؛ والأحكام الأربعة هي:

- 1 - القتل: وقد قتل رسول الله (ﷺ) عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ، والنَّضْر بن الحارث.
- 2 - المن: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله (ﷺ) مع أبي عَزَّة الجُمَحِيِّ.
- 3 - الفداء: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغٍ من المال، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمِّ النَّبِيِّ (ﷺ)، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وغيرهم.
- 4 - الاسترقاق: وقد حكم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل الحارِبون، وتقسم الأموال، وتُسبَى الذَّراري والنِّساء⁽³⁾.

(1) انظر: التَّربية القياديَّة (74/3).

(2) انظر: البَيِّرة النَّبَوِيَّة، لأبي شُهبة (164/2 . 165).

(3) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص 101.

المبحث السادس

نتائج غزوة بدر :

نتائج غزوة بدر:

نتائج متعلقة بالمسلمين:

1 - كان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة، وما جاورها، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكر، ويفكر قبل أن يُقدم على فعلته، وتعززت مكانة الرسول (ﷺ) في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المشكِّكون في الدَّعوة الجديدة، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم، وعداوتهم للإسلام

2- ظهر التِّفاق، والمكر، والخداع، فدخل بعض المشركين واليهود في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطنًا، فظَلُّوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرين بكفرهم، وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 143].

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّ الله عليهم، وسَمَّعَ بهم في كثيرٍ من آيَلته، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

3- ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله - سبحانه وتعالى -، وبرسوله الكريم (ﷺ)، واشتداد ساعدتهم، وقوَّتهم

4- ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكَّة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيمانًا على إيمانهم، وثباتًا على عقيدتهم.

5- كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً، وأساليبَ جديدةً في الحرب، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدَّها، بل زعامة جميع القبائل العربيَّة المنتشرة في مختلف الأصقاع⁽¹⁾ والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد، وبذلك انتعش حال المسلمين الماديِّ والاقتصاديِّ بما أفاء الله عليهم من غنائم، بعد بؤسٍ، وفقْرٍ شديدين، داما تسعةَ عَشَرَ شهرًا⁽²⁾.

نتائج متعلقة بقريش:

أمَّا قريش، فكانت خسارتها فادحةً، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم من زعماء الكفر؛ الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعةً، وقوَّةً، وبأساً

وأما الخسارة المعنويَّة: أنَّ المدينة لم تعد تُهددُ تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلّهِ⁽³⁾.

نتائج متعلقة باليهود:

أمَّا اليهود؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعزَّز الإسلام، ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله (ﷺ) دونهم الخطوة، والمكانة، فصمّموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النَّبيُّ (ﷺ) عندما قدِم المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنةً في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القول، ويعلنون ثم راحوا يكيّدون للإسلام ولرسوله (ﷺ)، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم⁽⁴⁾، وبدؤوا يتحرّشون بالنَّبيِّ (ﷺ)، والمسلمين، وما كان النَّبيُّ (ﷺ) ليخفى عليه شيءٌ من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ،

(1) الصُّقْع: النَّاحية، والجمع: أصقاع.

(2) انظر: التَّاريخ السِّيَاسي والعسكري، د. علي معطي، ص 274. 275.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 376. 375.

(4) انظر: التَّاريخ السِّيَاسي والعسكري، ص 274.

ويقظة؛ حتى استخفوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التي يعتز بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بد من حربهم، وإجلالهم عن المدينة - كما سنفصل ذلك فيما بعد إن شاء الله -
(1).

(1) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبه (171/2).

المبحث السابع

بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى، فقد بيَّن - سبحانه وتعالى - : أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10].

في هاتين الايتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله - عزَّ وجلَّ - والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزیز) أي: ذو العِزَّة؛ التي لا تُرام⁽¹⁾، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على تدميرهم، وإهلاكهم بحَوْلِهِ، وقوَّتِهِ - سبحانه وتعالى -⁽²⁾.

ويستفاد من هاتين الايتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه، مع التأكيد على أنَّ النَّصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة، أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدَّهم الله بنصره، وتوفيقه، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأنَّ النَّصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النَّبيِّ (ﷺ) المشركين بالثُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً، وبفضله ومعونته.

(1) انظر: تفسير ابن كثير (411/1).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (303/2) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرُّسول صلى الله عليه وسلم (105. 97/1).

استدل من آيات سورة الأنفال على ما يدل على أن النصر من الله وحده.

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان، وهذه التسمية أهيمَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين، وقد تحدَّث الأستاذ سيّد قطب، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

فقال: لقد كانت غزوة بدر - التي بدأت، وانتهت بتدبير الله، وتوجيهه، وقيادته، ومدده - فرقاناً ... فرقاناً بين الحقِّ والباطل - كما يقول المفسرون إجمالاً - وفرقاناً بمعنى أشمل، وأدق، وأوسع، وأعمق كثيراً.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلامية، عهد المصابرة والصبر، والتَّجَمُّع والانتظار، وعهد القوَّة، والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدولة، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيب، التي تغتصب ألوهيته⁽¹⁾.

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صوراً مشرقةً في الولاء، والبراء، وجعلت خطأً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل، فكانت الفرقان النَّفسيَّ، والماديَّ، والمفاصلة التامة بين الإسلام، والكفر، وفيها

(1) انظر: في ظلال القرآن (3/ 1521 . 1522).

تجسّدت هذه المعاني، فعاشها الصّحابة واقعاً مادّياً، وحقيقةً نفسيّةً، وفيها تهاوت القيم الجاهليّة، فالتقى الابن بأبيه، والأخ بأخيه:

1 - كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفّ المسلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد، وعمّه شيبه في صفّ المشركين، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

2 - كان أبو بكر الصّدّيق في صفّ المسلمين، وكان ابنه عبد الرّحمن في صفّ المشركين.

3 - كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفّ المشركين، ثمّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاريّ: شدّ يدك به؛ فإنّ أمّه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصيّتك بي؟! فقال مصعب: إنّّه أخي دونك، تلك كانت حقائق، وليس مجرّد كلمات: إنّّه أخي دونك⁽¹⁾!. إنّها القيم المطروحة لتقوم الإنسانيّة على أساسها، فإذا العقيدة هي اصرّة النّسب والقرابة، وهي الرّباط الاجتماعي⁽²⁾.

4 - كان شعار المسلمين في بدرٍ: (أحد... أحد) وهذا يعني: أنّ القتال في سبيل عقيدة تتمثّل بالعبوديّة للإله الواحد، فلا العصبية، ولا القبلية، ولا الأحقاد، ولا الضّعائن، ولا الثأر، هو الباعث والمحرّك؛ ولكنّه الإيمان بالله وحده.

* * *

(1) انظر: البداية والنهاية (307/3).

(2) انظر: من معين البيرة، ص 213.

المبحث الثامن

غزوة بني قينقاع:

ذكر الزُّهري: أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي، وابن سعد: أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية⁽¹⁾، وأتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله (ﷺ)، وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول (ﷺ) معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول (ﷺ) والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب، والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجأهروا بعداوتهم للمسلمين⁽²⁾.

وقد جمعهم النبي (ﷺ) في سوقهم بالمدينة، ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذَّهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدر⁽³⁾؛ غير أنهم واجهوا النبي (ﷺ) بالتحدي، والتَّهديد، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة، والمتابعة لبُود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته⁽⁴⁾.

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام، والاحترام؛ بل على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيةً، وتحدياً، واستعلاءً، واستعداداً للقتال، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْتَقَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿آل عمران: 12-13﴾

[13]

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (1/299).

(2) انظر: موسوعة نضرة النعيم (1/269).

(3) انظر: اليهود في السنة المطهرة (1/276).

(4) المصدر السابق نفسه.

1 - الأسباب المباشرة للغزوة:

لَمَّا انتصر المسلمون في بدرٍ، وقال رسول الله (ﷺ) لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتَّى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ⁽¹⁾ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغٍ يهوديٍّ، فجعلوا يُريدونها على كَشَف وجهها، فأبت، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلمَّا قامت انكشفت سوءُها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله - وكان يهودياً - وشدَّت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم، وبين بني قينقاع⁽²⁾.

فحين علم رسول الله (ﷺ) بذلك، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين، والأنصار، وذلك يوم السَّبْت لِلنِّصْف من شَوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة⁽³⁾، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف (ﷺ) على المدينة أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر العمري⁽⁴⁾، واسمه: بشير⁽⁵⁾. وحين سار إليهم رسول الله (ﷺ)؛ نبذ إليهم العهد، كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58].

(1) الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ لِيُبَاعَ فيها.

(2) انظر: سيرة ابن هشام (54/3).

(3) انظر: المغازي، للواقدي (176/1)، والطَّبَقَات، لابن سعد (28/2، 29).

(4) انظر: تاريخ الطَّبَرِيِّ (481/2).

(5) انظر: اليهود في السُّنة المطهَّرة (279/1).

2 - ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدمه (ﷺ)؛ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي (ﷺ) خمس عشرة ليلة - كما ذكر ابن هشام -⁽¹⁾، واستمرَّ الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرُّعب، واضطروا للنزول على حكمه صلى الله عليه وسلم، فقد فاجأهم (ﷺ) بأسلوب الحصار، فأربكهم، وأوقعهم في حيرة من أمرهم؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ، وجمَّد حركتهم، فعاشوا في سجنٍ؛ ممَّا جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة، والصَّبر، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله (ﷺ)، وبأنهم قوم يختلفون بأساً، وشدةً عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله (ﷺ)⁽²⁾، فأمر بهم، فزبطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله (ﷺ) على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي⁽³⁾.

3 - مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلَّ حلفاءه من وثاقهم، فعندما مرَّ عليهم قال: خُلُّوهم، فقال المنذر: أتلُّون قوماً ربطهم رسول الله (ﷺ)؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضربتُ عنقه⁽⁴⁾، فاضطر عبد الله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي (ﷺ) بفكِّ أسرهم⁽⁵⁾، فأتى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد! أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج -، قال: فأبطأ عليه رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد! أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله (ﷺ)، فقال له رسول الله (ﷺ): «أرسلني» وغضب رسول الله (ﷺ)، حتى رأوا لوجهه ظلاً⁽⁶⁾، ثم قال: «ويحك! أرسلني»، قال:

(1) انظر: سيرة ابن هشام (55/3).

(2) انظر: الصِّراع مع اليهود، لأبي فارس (144/1).

(3) انظر: اليهود في السُّنة المطهرة (280/1).

(4) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (33. 32/5).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) ظللاً: جمع ظِلَّة، وهي السَّحابة، وهي كناية عن تغيُّر وجه النبي صلى الله عليه وسلم.

لا والله، لا أرسلك حتّى تُحسن في مواليّ؛ أربعمئة حاسر⁽¹⁾، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر، والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إنيّ والله امرؤ أخشى الدّوائر! فقال رسول الله (ﷺ): «هم لك» [الطبراني في تاريخه (480/2)، والواقدي في مغازيه (177/1 - 178)، والبيهقي في الدلائل (174/3)، وابن هشام (51/3 - 52)]⁽²⁾.

فخلّى رسول الله (ﷺ) سبيلهم، ثمّ أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله (ﷺ) والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ، وقد تولّى جمع أموالهم، وإحصاءها محمّد بن مسلمة رضي الله عنه⁽³⁾، وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدّث رسول الله (ﷺ) في يهود بني قينقاع؛ لكي يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله (ﷺ) عُويم بن ساعدة الأنصاريّ الأوسيّ، فردّه عويم، وقال: لا تدخل حتّى يأذن رسول الله (ﷺ) لك، فدفعه ابن أبيّ، فغلّظ عليه عويم، حتّى جَحَشَ⁽⁴⁾ وجه ابن أبيّ الجدار، فسال الدّم⁽⁵⁾.

ويظهر في هذا الخبر، فقه النّبّي (ﷺ) السّياسي في تعامله مع ابن سلول، حيث لجّى طلبه، فلعلّ هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه، فتتمّ هدايته، فقال له: «هم لك»، ولعلّ الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبيّ يصلّحون بصلاحه، فيتماسك الصّف، ويلتحم؛ فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام⁽⁶⁾.

وهناك بُعد آخر؛ حيث حرص (ﷺ) أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنّ بعض الأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام، ويخشى أن يؤثّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ لسمعته الكبيرة فيهم⁽⁷⁾؛ ولذلك سلك (ﷺ) معه أسلوب الإدارة، والصّبر عليه، وعلى إساءاته؛

(1) حاسر: لا درع له.

(2) انظر: اليهود في السّنة المطهّرة (281/1).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) جَحَشَ: خَدَشَ.

(5) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (30/5).

(6) انظر: المنهج الحركي للسيرّة النّبوية، للغضبان، ص 247.

(7) انظر: التّاريخ الإسلامي، للحميدي (32/5).

تجنباً للفتنة، وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته، ومواقفه عند مَنْ يجهلها، ومنْ ثمَّ يفرُّ النَّاسُ مِنْ حوله، ولا يتعاطفون معه، وقد حَقَّقَ هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلولٍ لجميع النَّاسِ؛ حتَّى أقرب النَّاسِ إليه، ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكَلَّم؛ أسكتوه، وتضايقوا من كلامه⁽¹⁾، بل أرادوا قتله - كما سيأتي بإذن الله تعالى -.

4 - تبرؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لَمَّا نقضت العهدَ بنو قينقاع، سار عبادة بن الصَّامت أحد بني عوف - لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أبي - لرسول الله (ﷺ)، وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله - عزَّ وجلَّ - وإلى رسوله (ﷺ) من حلفهم، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسوله (ﷺ)، والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار، وولايتهم⁽²⁾.

نشاط:

من خلال دراستك لغزوة بني قينقاع بين أهم الدروس والعبر المستفادة منها ومن سلوك النبي عليه السلام مع عبد الله بن أبي ومن تبرؤ عبادة ابن الصامت منهم

5- بعض المناسبات الإجتماعية التي حدثت بعد غزوة بدر:

- أ- زواج النبي عليه السلام بحفصة بنت عمر.
- ب- زواج علي رضي الله عنه بفاطمة رضي الله عنها.

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (148/1).

(2) انظر: اليهود في السُّنة المطهَّرة (1/282 . 283).

الفصل السادس

غزوة أُحُدٍ

المبحث الأول

أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أُحُدٍ متعددة؛ منها: الدِّينيُّ، والاجتماعيُّ، والاقتصاديُّ، والسِّيَاسيُّ.

1 - السَّبَبُ الدِّينِيُّ:

قد أخبر المولى - عزَّ وجلَّ - : أَنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصِّدِّ عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة، وَمَنَعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، والسَّعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين، ودولتهم الناشئة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

قال الطَّبْرِيُّ: «يصرفون أموالهم، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاسَ عن الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ»⁽¹⁾.

وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أَنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»⁽²⁾.

وقال الشَّوكَايُ: «والمعنى: أَنَّ غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم، هو الصَّدُّ عن سبيل

الحقِّ، بمحاربة رسول الله (ﷺ)، وجمع الجيوش لذلك»⁽³⁾.

(1) انظر: غزوة أُحُدٍ دراسة دعويَّة، ص 71.

(2) انظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.

(3) انظر: تفسير فتح القدير لهذه الآية.

من هذا يظهر: أنَّ أهم أسباب غزوة أحدٍ، هو السَّبَب الدِّينِي؛ الَّذِي كَانَ مِنْ أَهْدَاف قُرَيْشٍ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمُحَارَبَةِ الرَّسُولِ (ﷺ)، والقضاء على الدَّعوة الإسلامية⁽¹⁾.

2 - السَّبَب الاجتماعي:

كَانَ لِلْهَزِيمَةِ الْكَبِيرَةِ فِي بَدْرٍ، وَقَتْلِ السَّادَةِ، وَالْأَشْرَافِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَعٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخِزْيِ، وَالْعَارِ الَّذِي لَحِقَ بِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ يَشْعُرُونَ بِالْمَذَلَّةِ، وَالْهَزِيمَةِ؛ وَلِذَلِكَ بَذَلُوا قُصَارَى جَهْدِهِمْ فِي غَسْلِ هَذِهِ الذَّلَّةِ، وَالْمَهَانَةِ، الَّتِي لَصِقَتْ بِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ شَرَعُوا فِي جَمْعِ الْمَالِ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَوْرَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ بَدْرٍ.

3 - السَّبَب الاقتصادي:

كَانَتْ حَرَكَةُ السَّرَايَا الَّتِي تَقُومُ بِهَا الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، قَدْ أَثَرَتْ عَلَى اقْتِصَادِ قُرَيْشٍ، وَفَرَضَتْ عَلَيْهِمْ حَصَارًا اقْتِصَادِيًّا قَوِيًّا، وَكَانَ الْاِقْتِصَادُ الْمَكِّيُّ قَائِمًا عَلَى رِحْلَتِي الشِّتَاءِ، وَالصَّيْفِ؛ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ، وَتُحْمَلُ إِلَيْهَا بَضَائِعُ الشَّامِ، وَمَحَاصِيلُهَا، وَرِحْلَةُ الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ، تَحْمَلُ إِلَيْهَا مَحَاصِيلُ الْيَمَنِ، وَبَضَائِعُهَا، وَقَطْعُ أَحَدِ جَنَاحِي هَاتَيْنِ الرِّحْلَتَيْنِ ضَرٌّ لِلجَنَاحِ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ تِجَارَتَهُمْ إِلَى الشَّامِ قَائِمَةٌ عَلَى سِلْعِ الْيَمَنِ، وَتِجَارَتُهُمْ إِلَى الْيَمَنِ قَائِمَةٌ عَلَى سِلْعِ الشَّامِ⁽²⁾. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَلَافُ قُرَيْشٌ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿ [قُرَيْش: 1 - 4] .

4 - السَّبَب السياسي:

أَخَذَتْ سَيَادَةُ قُرَيْشٍ فِي الْاِنْهِيَارِ بَعْدَ بَدْرٍ، وَتَزَعَزَعَ مَرْكَزُهَا بَيْنَ الْقَبَائِلِ بِوصفها زعيمة لها، فَلَا بَدَّ مِنْ رَدِّ الْاِعْتِبَارِ، وَالْحِفَافِ عَلَى زَعَامَتِهَا؛ مَهْمَا كَلَّفَهَا الْأَمْرُ مِنْ جُهْدٍ، وَمَالٍ وَضَحَايَا.

(1) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص 71.

(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص 74.

هذه أهم الأسباب التي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكرية ضدَّ الدولة الإسلامية بالمدينة⁽¹⁾.

ثانياً: خروج قريش من مكة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السبت، لسبع خلون من شوال، من السنة الثالثة من الهجرة⁽²⁾، وعَبَّأت جيشها المكوّن من ثلاثة الاف مقاتل، مستصحبين معهم النساء، والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريشٌ بحدّها، وحديدها وأحايشها⁽³⁾، ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة، وخرجوا بالطُّعْن⁽⁴⁾، التماس الحفيظة؛ لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان - وهو قائد الناس - بهند بنت عُتبة بن ربيعة⁽⁵⁾، وخرج صفوان بن أمية بن خلف بَبْرَزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة⁽⁶⁾، فأقبلوا حتّى نزلوا ببطن السَّبْخَة من قناة، على شفير الوادي ممّا يلي المدينة⁽⁷⁾.

كانت التَّعبئة القرشيّة قد سبقتها حملة إعلاميّة ضخمة، تولّى كبرها أبو عزة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزُّبَيْر، وقد حققت نتائج كبيرة⁽⁸⁾، وبلغت النفقات الحربيّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً⁽⁹⁾.

(1) انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويّة، ص 75.

(2) البداية والنهاية (11/4)، والمغازي، للواقدي (199/1).

(3) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب، وانضم إليهم.

(4) الطُّعْن: النساء، واحدتها طعينة، والطَّعْنَة: المرأة في الهودج.

(5) انظر: الإصابة (346/8)، رقم (11860).

(6) انظر: البيرة النبويّة، لابن هشام (70/3).

(7) انظر: غزوة أحد، دراسة دعويّة، ص 78.

(8) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص 17.

(9) المصدر السابق نفسه، ص 16.

ثالثاً: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكرية، فلمّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباس رسالة عاجلةً إلى النبي (ﷺ)، ضمّنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدّ في السير؛ حتّى إنّ قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً - في ثلاثة أيام، وسَلَمَ الرسالة إلى النبي (ﷺ)، وهو في مسجد قُباء⁽¹⁾.

كان النبي (ﷺ) يتابع أخبار قريش بدقّة بواسطة عمّه العباس. قال ابن عبد البر: «وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله (ﷺ)، وكان المسلمون يتقوّنون به بمكة، وكان يحبُّ أن يقدم على رسول الله (ﷺ)، فكتب إليه رسول الله (ﷺ): أنّ مقامك في مكة خير»⁽²⁾. كانت المعلومات التي قدّمها العباس لرسول الله (ﷺ) دقيقة؛ فقد جاء في رسالته: «إنّ قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجّهوا إليك، وهم ثلاثة الاف، وقادوا مئتي فرس، وفيهم سبعمئة دارع، وثلاثة الاف بعير، وأوعبوا⁽³⁾ من السلاح»⁽⁴⁾.

وقد احتوت هذه الرسالة على أمورٍ مهمّة؛ منها:

- 1 - معلومات مؤكّدة عن تحرك قوّة المشركين نحو المدينة.
 - 2 - حجم الجيش، وقدراته القتالية، وهذا يعين على وضع خطّة تواجه هذه القوّة.
- لم يكتفِ النبي (ﷺ) بمعلومات المخابرات المكيّة؛ بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجدّدة مع تلاحق الزّمن، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين، بأهميّة متابعة الأخبار

(1) انظر: الرّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص 250.

(2) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (812/2).

(3) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(4) انظر: مغازي الواقدي (204/1).

التي يتولّد عنها وضع خططٍ، واستراتيجيّات نافعة؛ ولذلك أرسل (ﷺ) الحُبَاب بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مَكّة، وحَزَرَ⁽¹⁾ عَدَدَهُ، وعُدَدَهُ، ورجع، فسأله رسول الله (ﷺ): «ما رأيْت؟» قال: رأيْتُ يا رسول الله! عدداً، حزرتم ثلاثة الاف يزيدون قليلاً، أو ينقصون قليلاً، والخيّل مثناً فرسٍ، ورأيْت دروعاً ظاهرة حزرتم سبعمئة درعٍ، قال: «هل رأيْت طُغْناء؟» قال: رأيْتُ النِّساء معهنّ الدِّفاف، والأكبار⁽²⁾، فقال رسول الله (ﷺ): «أَرَدَنْ أن يَحْرِضَن القوم، ويُدَكِّرَهُمْ قتلى بدرٍ، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم! بك أجولُ، وبك أصولُ»⁽³⁾.

كما أرسل (ﷺ) أنساً، ومؤنساً ابني فضالة يَتَنَصَّتان⁽⁴⁾ أخبار قريشٍ، فأَلْفَيَاهَا⁽⁵⁾ قد قاربت المدينة، وأرسلت خَيْلَهَا، وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا، فأخبراه بخبر القوم⁽⁶⁾.

وبعد أن تأكّد من المعلومات حَرَصَ (ﷺ) على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديّ؛ خوفاً من أن يُوَثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدّة؛ ولذلك حين قرأ أُبَيُّ بن كعب رسالة العَبَّاس؛ أمره (ﷺ) بكتمان الأمر، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرّأي مع قادة المهاجرين، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان (ﷺ) قد أطلع سيّد الأنصار سعد بن الرّبيع على خبر رسالة العَبَّاس فقال: والله! إنّي لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إيّاه؛ فلمّا خرج رسول الله (ﷺ) من عند سعد؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أمّ لك! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأخبرته بما أسرّ به الرّسول (ﷺ)، فاسترجع سعد، وقال: يا رسول الله! إنّي خفت أن يفشو الخبر، فترى أنّي أنا المفشي له؛ وقد استكتمتني

(1) حَزَرَ الشّيء: قَدَّره بالتَّخمين.

(2) الأكبار: جمع: كَبَر ، والكَبَر: هو الطُّبْل؛ الذي له وجه واحد.

(3) انظر: مغازي الواقدي (1/207 . 208).

(4) تَنَصَّت: تَسَمَّعَ.

(5) أَلْفَاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.

(6) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شعبة (2/187).

إِيَّاهُ، فقال رسول الله (ﷺ): «خَلِّ عَنْهَا»⁽¹⁾.

وفي هذه الحادثة، درسُ بالغُ للعسكريين، وتحذيرُ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية،

وخططهم، وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدد الأمة، ومستقبلها بكارثة كبرى.

إنَّ تاريخ الأمم والشُّعوب في القديم، والحديث محدثنا: أنَّ كثيراً من الهزائم، والماسي، والالام، قد حَلَّتْ بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسرُّب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنة، أو خائنٍ في ثوب صديق، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوٌّ في الحقيقة، والواقع⁽²⁾.

رابعاً: مشاورته (ﷺ) لأصحابه رضي الله عنهم:

بعد أن جمع (ﷺ) المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ، جمع أصحابه رضي الله عنهم، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها، أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النَّبِيِّ (ﷺ) البقاء في المدينة، وقال: «إِنَّا فِي جُنَّةٍ حَصِينَةٍ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا، وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا، فَإِنْ أَقَامُوا؛ أَقَامُوا بِشَرِّ مُقَامٍ، وَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا؛ قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا»⁽³⁾ وكان رأيُ عبد الله بن أبيِّ بن سلول مع رأي رسول الله (ﷺ)⁽⁴⁾، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين مَنَّ فاتتهم بدرُّ قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: «وَأَبَى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْخُرُوجَ إِلَى الْعَدُوِّ، وَلَمْ يَتَنَاهَاوْا إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَرَأْيِهِ، وَلَوْ رَضُوا بِالَّذِي أَمَرَهُمْ كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ غَلَبَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، وَعَامَّةٌ مِّنْ

(1) انظر: البتيرة الحلبية (489/2).

(2) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص 22.

(3) انظر: تاريخ الطُّبري (60/2).

(4) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص 82.

أشار عليه بالخروج رجالاً لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»⁽¹⁾.

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناسُ برسول الله (ﷺ) الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتَّى دخل رسول الله (ﷺ) بيته، فلبس لأُمته⁽²⁾، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ الله (ﷺ) بأمرٍ، وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ الله (ﷺ): «أمرنا لأمرِكَ تَبِعْ»، فأثنى حمزُهُ، فقال له: يا نبيُّ الله! إنَّ القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرِكَ تبع، فقال رسول الله (ﷺ): «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأُمته أن يضعها؛ حتَّى يقاتل» [أحمد (351/3)، وعبد الرزاق في المصنف (364/5 365)، وابن سعد (38/2)، والبيهقي في الدلائل (208/3)، ومجمع الزوائد (107/6)]⁽³⁾.

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنياً على أمورٍ منها:

- 1 - أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثانية، على نصرة الرسول (ﷺ)، فكان أغلبهم يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.
- 2 - أنَّ الأقلية من المهاجرين، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة، ومهاجمة قريش، وصدِّها عن زرع الأنصار.
- 3 - أنَّ الذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرِّقون شوقاً من أجل ملاقات الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.
- 4 - أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة، ظفراً يجب ألاَّ تحلُم به، كما توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمدّه، فيصبح المسلمون مهتدين بقطع المؤن عنهم⁽⁴⁾.

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنٍ على التَّخطيط الحربيِّ الآتي:

- 1 - إنَّ جيش مكَّة لم يكن موحدًا العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً

(1) انظر: البداية والنهاية (14/4).

(2) لأمة الحرب: عدتها.

(3) انظر: البيرة النبوية لابن هشام (71/3).

(4) انظر: غزوة أحد، لأحمد عز الدين، ص 51. 52.

طويلاً؛ إذ لابدّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً، أو آجلاً.

2 - إنَّ مهاجمة المدن المصمَّمة على الدِّفاع عن حياضها، وقلاعها، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

3 - إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أنبيائهم، وحماية نسائهم، وبناتهم، وأعراضهم.

4 - مشاركة النِّساء، والأبناء في القتال، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

5 - استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم⁽¹⁾.

من الواضح: أنَّ الرِّسول (ﷺ)، عوّد أصحابه على التَّصريح بآرائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة، ومعالجة مشكلات الأُمَّة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرِّأي، ولم يحدث أن لام الرِّسول (ﷺ) أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده، ولم يوفِّق في رأيه، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلزمٌ للإمام.

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحد:

أ - من الأسباب المهمَّة الَّتِي اتَّخذها (ﷺ) لملاقاة أعدائه اختياره لوقت التحرك، والطَّرِيق الَّتِي تناسب خطَّته، فقد تحرَّك بعد منتصف اللَّيل، حيث يكون الجوُّ هادئاً، والحركة قليلةً، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء - غالباً - في نومٍ عميق؛ لأنَّ الإعياء، ومشقَّة السَّفر قد أخذوا منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف: أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثَقِيلَ النَّوم، فلا يشعر بالأصوات العالية،

(1) انظر: القيادة العسكريَّة، للرَّشيد، ص 374.

والحركة الثقيلة. قال الواقدي - رحمه الله - : ونام رسول الله (ﷺ) حتى أدلج، فلمّا كان في السّحر؛ قال: «أين الأدلاء؟»⁽¹⁾»⁽²⁾.

ثمّ إنّه (صلى الله عليه وسلم) اختار الطّريق المناسب الذي يسلكه حتّى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطّريق، وهي السّريّة، حتّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القومِ مِنْ كَثَبٍ⁽³⁾ من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟»، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداداه قائلاً: أنا يا رسول الله! فنفذ به في حرّة بني حارثة وبين أموالهم، حتّى سلك به في مالٍ لرعي بن قَيْظٍ - وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قَيْظٍ -، وكان رجلاً منافقاً ضير البصر، فلمّا أحس برسول الله (ﷺ) ومن معه من المسلمين، قام يَحْثِي في وجوههم التّراب، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أحلُّ لك أن تدخل حائطي.

وقد ذُكر: أنّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده، ثمّ قال: والله! لو أعلم: أيّ لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك، فابتدره القوم: ليقتلوه، فقال (ﷺ): لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل⁽⁴⁾ قبل نهي رسول الله (ﷺ) عنه، فضربه بالقوس في رأسه، فشجّه. [الواقدي في المغازي (218/1)، والطبري في تاريخه (506/2)، وابن هشام (69/3)].

ولا شك في أنّ مروره (صلى الله عليه وسلم) بين الأشجار، والبساتين، يدُلُّنا على حرصه (صلى الله عليه وسلم) على الأخذ بالاحتياطات الأمنيّة المناسبة في أثناء السّير؛ لأنّ الطّرق العامّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين، وهذا أمرٌ محذورٌ، فالرسول (ﷺ) علّم الأُمَّة الأخذ بالسّريّة من حيث المكان، ومن حيث الزّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم،

(1) الدّليل: المرشد. والجمع: أدلاء.

(2) انظر: المغازي، للواقدي (217/1).

(3) الكُتَب: يقال: رماه من كُتَبٍ: قُرْبٍ، ومكُنِّي.

(4) بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.

فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة، وإعدادهم لجيوشهم في مهبط الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرسول (ﷺ) حينما مرّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظِيٍّ، وترتب على ذلك إفساد المزرعة؛ مرّ ولم يعبا بذلك؛ لأنّ في ذلك مصلحة الجيش باختصار الطريق إلى أحد، فبين (صلى الله عليه وسلم) أنّ ما يكون به مصلحة للدين مقدّم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحة عامة، ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة، وهي مقدّمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال⁽¹⁾.

ب - انسحاب المنافق ابن سلول بثلاث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشّوط⁽²⁾، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة: أنّه لن يقع قتال مع المشركين، ومعتزلاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: أطاع الولدان، ومن لا رأي له، أطاعهم، وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟!⁽³⁾ وكان هدفه الرئيس من هذا التمرّد، أن يحدث بلبلة، واضطراباً في الجيش الإسلامي، لتنهيار معنوياته، ويتشجّع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظيمة، وبُغضٍ للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطيّب؛ حتّى لا يختلط المخلص بالمعرّض، والمؤمن بالمنافق⁽⁴⁾.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 179].

(1) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة ص 168.

(2) الشّوط: اسم حائط. أي: بستان. بين المدينة، وأحد.

(3) انظر: البداية والنهاية (14/4).

(4) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة، ص 84.

فالجين، والنُّكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضَّحهم القرآن⁽¹⁾.

سادساً: خطَّة الرِّسول (ﷺ) لمواجهة كفار مكَّة:

أ - وَضَعَ الرِّسول (ﷺ) خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريش؛ حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب مَنْ يصلح للقتال، وردَّ من لم يكن صالحاً، واختار خمسين منهم للرِّماية، وشدَّد الوصِيَّة عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

- 1 - كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه.
 - 2 - كتيبة الأوس من الأنصار: وأعطى لواءها أُسيد بن حضير رضي الله عنه.
 - 3 - كتيبة الخزرج من الأنصار: وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه⁽²⁾.
- ب - وكان من هديه (ﷺ) أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثُّهم على التَّحلي بالصَّبر في ميادين القتال، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة، ويصمدوا عند ملاقات أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أُحد.

ج - أدرك الرِّسول (ﷺ) أهْمية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرِّسول (ﷺ) ظهورهم إلى الجبل، ووجههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْر⁽³⁾، ووضعهم فوق جبل عَيْنين المقابل لجبل أحد، وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إن رأيتمونا نخطُّفنا الطَّير؛ فلا تَبْرَحُوا مكانكم هذا حتَّى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمننا القوم،

(1) انظر: مرويات غزوة أحد، لحسين أحمد، ص 71.

(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة، ص 89.

(3) انظر: الإصابة (278/2).

وأوطأناهم فلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ» [البخاري (3039)، وأحمد (293/4)، وأبو داود (2662)].

وقال رسول الله (ﷺ) للجيش: «لا تَبْرَحُوا حَتَّى أَوْذَنَكُمْ»، وقال: «لا يقاتلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى امره بالقتال».

وقال لأمير الرُّمّة: «انضح الخيلَ عنا بالنَّبَل؛ لا يأتونا مِنْ خَلْفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا، أو علينا» [الطبري في تاريخه (507/2)، والواقدي في المغازي (225/1)، والبيهقي في الدلائل (227/3)، وابن هشام (70/3)]. وقال للرُّمّة: «الزموا مكانكم، لا تَبْرَحُوا منه، فإذا رأيتُمونا فَهْزِمُهم حَتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتُمونا نُقْتل؛ فلا تَغِيثُوا، ولا تدفعوا عَنّا، وارشقوهم بالنَّبَل؛ فَإِنَّ الخيلَ لا تقدم على النَّبَل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ»⁽¹⁾.

سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مَكَّة ليواجه أُنحَدًا، وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمّة الرُّمّة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صدُّ الخيل عن المسلمين⁽²⁾.

د - تسوية الصُّفوف، وتنظيم الجيش؛ تقدّم رسولُ الله (ﷺ) أصحابه، وصَفَّهم على هيئة صفوف الصَّلَاة، وجعل رسولُ الله (ﷺ) يمشي على رجله، يُسَوِّي تلك الصُّفوف⁽³⁾.

هـ - عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبْرِيُّ: «فجعل ظهره، وعسكره إلى أَحَدٍ، وقال: لا يقاتلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نأمره بالقتال»⁽⁴⁾.

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمّةٌ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليّة؛ لأنَّه (ﷺ) أدرك بالصلحة.

(1) انظر: السيرة الحلبية (496/2)، وانظر: سيرة ابن هشام (نزل الرسول (ص) بالشعب، وتعيينه للقتال)، وفتح الباري شرح حديث رقم (4043)، والرَّحِيقُ المَخْتوم (خطة الدفاع)، وتاريخ الطَّبْرِيِّ (507/2).

(2) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة، ص 90.

(3) انظر: المغازي، للواقدي (219/1).

(4) انظر: تاريخ الطَّبْرِيِّ (507/2).

المبحث الثاني

في قلب المعركة

أولاً: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال، حاول أبو سفيان أن يُوجدَ شرخاً، وتصدّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره⁽¹⁾.

ولمَّا فشلت المحاولة الأولى؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الرَّاهب، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! فلمَّا سمع ردَّهم عليه؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة⁽²⁾.

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحُدٍ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان، وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحدٌ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله - تعالى - يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، فقال له عليُّ رضي الله عنه: واللَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة، فضربه عليٌّ فقطع رِجله، فوقع على الأرض، فانكشفت عورته، فقال: يا بن عمِّي! أنشدك الله، والرحم! فرجع عنه، ولم يجهز عليه، فكبر رسولُ الله (ﷺ).

(1) انظر: إمتاع الأسماع، للمقريزي (120/1).

(2) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شُهبة (192/2)، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).

وقال بعض الصحابة لعلِّي: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشدني الرَّحم حين انكشفت عورته، فاستحييتُ منه⁽¹⁾.

والتحم الجيشان، واشتدَّ القتال، وشرع رسولُ الله (ﷺ) يشحذ همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم.

شحذ الهمم ورفع المعنويات:

أخذ النبي عليه السلام سيفاً، وقال: «مَنْ يأخذُ مِنِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقه؟» قال: فأحجم القوم، فقال سِمَاكُ بْنُ حَرْشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: وما حقه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني»، قال: أنا اخذه بحقه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب - أي يمشي مشية المتكبر -، وحين رآه رسول الله (ﷺ) يتبختر بين الصَّفَّين قال: «إنَّها لمشيةٌ يُغضُّها الله إلا في مثل هذا الموطن»، وأخذه، وفلق به هامَ المشركين [أحمد (123/3)، ومسلم (2470)، والحاكم (556/3)، والبيهقي في الدلائل (232/3)].

وهذا الزُّبير بن العَوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحُدٍ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله (ﷺ) السَّيْفَ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمتي، ومن قريشٍ، وقد قمتُ إليه، وسألته إِيَّاه قَبْلَهُ، فأعطاه أبا دُجَانَةَ، وتركني، والله! لأنظرنَّ ما يصنع، فاتبعته، فأخرج عصابةً له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجَانَةَ عِصَابَةَ الموت - وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها -، فخرج؛ وهو يقول:

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي وَتَحَنُّنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ
أَلَا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوُولِ⁽²⁾ أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ⁽³⁾

(1) انظر: السِّيرة الحلبية (497/2 . 498)، وتفسير الطُّبري (218/7)، والقصة بنحوها في ابن هشام.

(2) الكيُول: آخر الصُّفوف في الحرب.

(3) البداية والنهاية (17/4)، وسيرة ابن هشام (تمام قصة أبي دجانة).

ثانياً: مخالفة الرُّمّة لأمر الرسول (ﷺ):

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين، وكان شعارهم: أُمِتْ.... أُمِتْ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ، سجَّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً من البطولة، والشَّجاعة⁽¹⁾، وسجَّل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبي دُجانة، وأبي طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير⁽²⁾، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة⁽³⁾.

ولما رأى الرُّمّة الهزيمة التي حَلَّت بقريشٍ، وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظناً منهم: أَنَّ المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبَيْر: «الغنيمة أي قَوْم! الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْر: أُنْسِيْتُ ما قال لكم رسولُ الله (ﷺ)؟ قالوا: والله لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصِيبَنَّ من الغنيمة» [البخاري (3039)].

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم، ولم يعبئوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرُّمّة في ذلك الموقف، فقال: «فلَمَّا غنم النَّبيُّ (ﷺ)، وأباحوا عسكر المشركين، أكَبَّ الرُّمّة جميعاً، فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله (ﷺ)، فهم هكذا - وشبك بين أصابع يديه -، والتبسوا، فلَمَّا أخلَّ الرُّمّة تلك الحَلَّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ (ﷺ)، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقُتِل من المسلمين ناسٌ كثير» [أحمد (287/1 - 288)].

ورأى خالد بن الوليد - وكان على خيالة المشركين -، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولمَّا رأى المشركون ذلك، عادوا إلى القتال من جديدٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ، فأصبحوا يقاتلون

(1) انظر: نضرة التَّعِيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (303/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

متفرّقين، فلا نظام يجمعهم، ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميّزون بعضهم، فقد قتلوا اليَمانَ - والد حذيفة بن اليَمان - خطأً [البخاري (4065)، وابن هشام (129/3)]. وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتّصالهم بالرسول (ﷺ)، وشاع: أَنَّهُ قُتِلَ⁽¹⁾، واختلط الحابلُ بالنّابل⁽²⁾ واشتدّت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كلّ من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريباً من النّبيّ (ﷺ)، فرموه بحجر كسر أنفه الشّريف، ورباعيته⁽³⁾، وشجّه⁽⁴⁾ في وجهه الكريم، فأثقله تفجّر الدّم⁽⁵⁾ منه (ﷺ).

عن أنسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رسول الله (ﷺ) كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يوم أُحُدٍ، وشجّ في رأسه، فجعل يسلّ الدّم عنه، ويقول: كيف يُفلح قومٌ شجّوا نبيّهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟ [البخاري تعليقاً (112/8)، ومسلم (1791)] فأَنزل الله - عزّ وجلّ -: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 128].

وحمل ابن قَمِيَّة على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديد الشّبه برسول الله (ﷺ)، فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمّداً⁽⁶⁾.

وشاع: أَنَّ محمّداً قد قُتِلَ، فتفرّق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل، واختلطت على الصّحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة⁽⁷⁾، ففرّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، واثّر آخرون الشّهادة بعد أن ظنّوا: أَنَّ رسول الله (ﷺ) قد مات؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النّضر، الَّذي كان يأسف لعدم شهوده بدرًا، والَّذي قال في ذلك: «والله! لئن أُراني الله مشهداً مع

(1) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة، ص 98.

(2) اختلط الحابلُ بالنّابل: اضطربت الأمور.

(3) الرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيّة، والثّاب.

(4) شجّه شجّاً: شقّ جلد رأسه أو وجهه.

(5) انظر: فقه البّيّرة، للغزالي، ص 294.

(6) انظر: البّيّرة النّبوية، لابن هشام (81/3).

(7) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة، ص 100.

رسول الله (ﷺ) ليرين الله كيف أصنع» وقد صدق في وعده، فقد مرَّ يومٌ أحدٍ على قومٍ ممن أذهلتهم الشائعة، وألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسولُ الله (ﷺ)! فقال: يا قوم! إن كان محمدٌ قد قُتل، فإن ربَّ محمدٍ لم يُقتل، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللهم إني أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء - يعني: المسلمين -، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء - يعني: المشركين -، ثم لقي سعد بن معاذ، فقال: يا سعد! إني لأجد ريح الجنة دون أحدٍ، ثم ألقى بنفسه في أتونِ المعركة، وما زال يقاتل؛ حتَّى استشهد، فوجد فيه بضْعُوثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم، فلم تعرفه إلا أخته بنانته [البخاري (4048)، وابن هشام (88/3)]⁽¹⁾.

وفي هذا، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

العفو عن الفئة التي فرت من المعركة:

أمَّا أولئك النفر الذين فرُّوا لا يلبون على شيءٍ رغم دعوة النبي (ﷺ) لهم بالصُّمود، والثبات، فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُحْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153]. ولقد حكى القرآن الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصحابة، الذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي (ﷺ)، الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول (ﷺ)، وأنَّه حيٌّ هو الصحابيُّ كعب بن مالك، الذي رفع صوته بالبُشرى، فأمره النبي (ﷺ) بالسُّكوت حتَّى لا يفتنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (1108)، وفي الكبير (100/19)، ومجمع الزوائد (112/6)]⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ص 101.

(2) سيرة ابن هشام، (أول من عرف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة).

وقد نصَّ القرآن الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فُرت.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

فائدة: وفي هذا توجيه قرآني سديد لأهمية اللطف والترفق بالمخطئين خاصة عقب الشدائد والمصائب.

ثالثاً: خطَّة الرسول (ﷺ) في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين، والهدف الرئيس فيه شخص النبي (ﷺ)، لم يتزحزح (ﷺ) من موقفه؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه، وحوصر رسول الله (ﷺ) في قلب المشركين، وليس معه إلا تسعة من أصحابه؛ سبعة منهم من الأنصار. [مسلم (1789)].

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله (ﷺ)، واستشهدوا واحداً بعد الآخر⁽¹⁾، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أُثخنَ، وأصيب بسهم شَلَّت يمينه، وأراد النبي (ﷺ) أن يصعد صخرة فلم يستطع، فقع طلحة تحتَه حتى استوى على الصَّخرة قال الزُّبير: فسمعت النبي (ﷺ) يقول: «أوجب طلحة» [أحمد (165/1)، والترمذي (1692)]⁽²⁾.

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله (ﷺ)، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارم يا سعد! فداك أبي، وأمِّي!» [أحمد (137/1)، والبخاري (4055)، ومسلم (2412)].

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الذي كان من أمهر الرُّماة، وهو الذي قال عنه

(1) انظر: نضرة النعيم (304/1).

(2) انظر: صحيح البيهقي النبوي، ص 296، وهذه الفصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرسول صلى الله عليه وسلم عن النهوض ومعاونة طلحة له)، والترمذي، وأحمد، والحاكم، وصححها ووافقه الذهبي. انظر: الرَّحِيقُ الْمَخْتوم (طلحة ينهض بالنبي صلى الله عليه وسلم) وتخرجه لهذا الحديث.

النَّبِيُّ (ﷺ): «لصوت أبي طلحة في الجيش، أشدُّ على المشركين من فئة» [أحمد (203/3)، وعبد بن حميد (1384)]. وقد كان متترساً على رسول الله ﷺ بحجفة له، وكان رامياً شديداً النَّزْع، كَسَرَ يومئذٍ قوسين، أو ثلاثاً، وكان الرَّجُل يَمُرُّ معه الجَعْبَةُ⁽¹⁾ من النَّبْلِ، فيقول رسولُ الله (ﷺ): «انثرها لأبي طلحة»، ثمَّ يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف⁽²⁾ يصيبك سهمٌ من سهام القوم، نُخْرِى دون نحرِكَ⁽³⁾!» [البخاري (4064)].

ووقفت نُسَيْبَةُ بنت كعب تذبُّ عن رسول الله (ﷺ) بالسَّيْف، وترمي بالقوس، وأُصِيبَتْ بجراحٍ كبيرةٍ، وترَّسَ أبو دجانة دون رسول الله (ﷺ) بنفسه؛ يقع النَّبْلُ في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْلُ⁽⁴⁾.

والتفَّ حول الرَّسُولِ (ﷺ) في تلك اللَّحْظَاتِ العَصِيْبَةُ أبو بكرٍ، وأبو عبيدة، وقام أبو عبيدة بنزع السَّهْمَيْنِ من وجه النَّبِيِّ (ﷺ) بأسنانه، ثمَّ توارَدَ مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ ، يذودون عن رسول الله (ﷺ)؛ منهم: قتادة، وثابت بن الدَّحْداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطَّاب، وعبد الرَّحْمَنِ بن عوف، والزُّبَيْر بن العَوَّام.

واستطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضاداً، قاده خالد ضدَّ المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصَّحَابَةُ الَّذِينَ كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف، وعاد المسلمون، فسيطروا على الموقف من جديد⁽⁵⁾، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرِ حاسمٍ، وتعبوا من طولها، ومن جَلَادَةِ المسلمين، وانسحب النَّبِيُّ (ﷺ) بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أُحُدٍ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم، والخوف، والغَمِّ لما أصاب رسولَ الله (ﷺ)، وما أصابهم

(1)الجمعة: الكنانة الَّتِي تجعل فيها السَّهَام.

(2)لا تشرف: لا تتطلع.

(3)نخري دون نحرِكَ: جعل الله نخري أقرب إلى السَّهَام من نحرِكَ لأصاب بها دونكَ.

(4)انظر: البداية والنهاية (35/4 . 36) ، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أُحُدٍ ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان

عن الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم) .

(5)انظر: السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ ، لمنير الغضبان ، ص 468 . 470.

رغم نجاحهم في ردّ المشركين⁽¹⁾، فأنزل الله عليهم النعاس، فناموا يسيراً، ثمّ أفاقوا امنين مطمئنين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

وقد أجمع المفسرون على أنّ الطائفة التي قد أهتمت أنفسهم هم المنافقون⁽²⁾.

أمّا قريش فإثما يئست من تحقيق نصرٍ حاسمٍ، وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلدهم، وخاصةً بعد أن اطمأنوا، وأنزل الله عليهم الأمانة، والصمود، فالتقوا حول النبي (ﷺ)؛ ولذلك كفّوا عن مطاردة المسلمين، وعن محاولة اختراق قوّاتهم⁽³⁾.

رابعاً: من شهداء أحد:

أ - حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه سيّد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسد الله حمزة قتلاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة، والإقدام، كمن له وحشي؛ حتى تمكّن منه، ثمّ رماه بحرّته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشياً يخبرنا عن هذا المشهد المؤلم. قال وحشي: إنّ حمزة قتل طعيمة بن عديّ بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إنّ قتل حمزة بعمي؛ فأنت حرّ، فلمّا أن خرج النّاسُ عام عيّنين - وعينين جبلّ بجيال أحدٍ، بينه وبينه وادٍ -، خرجت مع النّاس إلى القتال، فلمّا اصطقوا للقتال؛ خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع! يا بن أمّ أنمار!

(1) انظر: نضرة النعيم (305/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر نضرة النعيم (306/1).

مُقَطَّعة البُظور⁽¹⁾، أتحادُ الله ورسوله (ﷺ)؟ ثمَّ شدَّ عليه، فكان كأمس الذَّاهِب، قال: وَكَمَنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلمَّا دنا مِنِّي رميته بحرْبتي، فأضعُها في ثُنَّتِه⁽²⁾ حتَّى خرَّجت من بين وَركيه، قال: فكان ذاك العهد به⁽³⁾، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم، فأقمت بمكَّة حتَّى فشا فيها الإسلام.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف، فأرسلوا إلى رسول الله (ﷺ) رُسلاً، فقل لي: إنَّه لا يهيج الرُّسل⁽⁴⁾، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله (ﷺ)، فلمَّا راني؛ قال: «أنت وحشي؟» قلت: نعم، قال: «أنت قتلتَ حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تُعَيِّبَ وجهك عني؟» قال: فخرجتُ، فلمَّا قبض رسولُ الله (ﷺ)، فخرج مسيلمةُ الكذاب، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمَةِ جدار⁽⁵⁾ كأنَّه جمل أَوْرقُ⁽⁶⁾ ثائر الرأس، قال: فرميته بحرْبتي، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه، قال: ووُثب إليه رجلٌ من الأنصار، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «فقالَت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أَمِيرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (4072)، والبيهقي في الدلائل (241/3 - 243)، والطبري في تاريخه (516/2 - 517)].

1 - سؤال النَّبي (ﷺ) عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة، سأل رسولُ الله (ﷺ) أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيتُ مقتله، قال: «فانطلق أرنا» فخرج رسولُ الله (ﷺ) حتَّى وقف على حمزة، فرآه وقد شُقَّ

(1) مُقَطَّعة البُظور: كانت أمه حَتَّانة بمكَّة تخنن النِّساء.

(2) فأضعها في ثُنَّتِه: أي في عانته، وقيل: ما بين السُّرَّة والرَّكبة.

(3) ذلك العهد به: كناية عن موته.

(4) لا يهيج الرُّسل: أي: لا يبالغ منه مكروه.

(5) في ثَلَمَةِ جدار: أي خلل جدار.

(6) أَوْرق: لونه كالرماد.

بطئته، وقد مُثِّل به، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله! [الطبراني في الكبير (82/19)، ومجمع الزوائد (119/6)]⁽¹⁾. وفي رواية: لما بلغ النبي (ﷺ) قتل حمزة؛ بكى، فلمَّا نظر إليه شهق، ووقف بين ظهراي القتل، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء، كفَّنوهم في دمائهم، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يدمي؛ لوَّنه لون الدَّم، وريحه ريح المسك، قدِّموا أكثرهم قرآنًا، فاجعلوه في اللحد» [البخاري (2079)، وأبو داود (3138)، والترمذي (1036)، والنسائي (1954)، وابن ماجه (1514)].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله (ﷺ) في أحدٍ تحققت رؤيا رسول الله (ﷺ)، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أحدٍ، فقال: «رأيت في سفي ذي الفقار فلا⁽²⁾، فأولَّته فلاَّ يكون فيكم (أي: انهزاماً)، ورأيت أيَّ مردفٍ كبشاً، فأولَّته كبش الكتيبة، ورأيت أيَّ في درع حصينة، فأولَّتها المدينة، ورأيت بقرًا تُذبح، فبقرٌ والله خير! فبقرٌ والله خير!» فكان الذي قال رسول الله (ﷺ). [أحمد (271/1)، والترمذي (1561)]⁽³⁾.

2 - صبر صفيّة بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوّام رضي الله عنه: إنَّه لمَّا كان يوم أحدٍ؛ أقبلت امرأة تسعى، حتَّى كادت أن تشرف على القتلى، قال: فكَّرَ النبي (ﷺ) أن تراهم، فقال: المرأة ... المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أمَّها صفيّة، قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلَدَمَتُ⁽⁴⁾ صدري، وكانت امرأة جُلْدَةً، قالت: إليك عني، لا أرض لك! فقلت: إنَّ رسول الله (ﷺ) عزم عليك.

قال: فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتلَه، فكفَّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجلٌ من

(1) سيرة ابن هشام (دفن الشهداء)، وانظر: صحيح السيرة النبويَّة، ص 283.

(2) الفلُّ: القلم في السيف.

(3) انظر شرحه في فتح الباري، وكذا كتاب المغازي، باب غزوة أحد (في مقدِّمة الباب)، وسيرة ابن هشام (رؤيا راها رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(4) لدمت: ضربت، ودفعت.

الأنصار قتيل فُعلَ به كما فُعلَ بحمزة، قال: فوجدنا غضاضةً وحياءً أن يكفّن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفّن له، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاري ثوبٌ، فقدّرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفّنا كل واحدٍ منهما في الثوب الذي صار له. [أحمد (165/1)، والبخاري (1797)، وأبو يعلى (686)، والبيهقي في الدلائل (290/3)، ومجمع الزوائد (118/6)]⁽¹⁾.

ب - مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خَبَاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله (ﷺ) ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مَضَى فِي سَبِيلِهِ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، مِنْهُمْ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَمْ يَتْرِكْ إِلَّا نَمْرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا رَأْسَهُ؛ بِدَرَجَلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بِدَا رَأْسِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «غَطُّوا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الْإِذْخِرَ»⁽²⁾، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِيهَا⁽³⁾. [البخاري (1276) و(3897)]. وَمِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ، وَكَانَ صَائِماً، فَقَالَ: قُتِلَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَكَانَ خَيْرَ مَنْيٍّ، فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةً، وَقَتْلَ حَمْزَةٍ - أَوْ رَجُلٍ آخَرَ - خَيْرٌ مِنِّي، فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةً، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ [البخاري (1274)، و(1275)، و(4045)]. وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) حِينَ انْصَرَفَ مِنْ أُحُدٍ، مَرَّ عَلَى مَصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ؛ وَهُوَ مَقْتُولٌ عَلَى طَرِيقِهِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «أَشْهَدُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ شُهَدَاءُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاتَّوَهُمُ، وَزَوْرُوهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا رُدُّوا عَلَيْهِ» [الحاكم (200/3)، والبيهقي في الدلائل (284/3)].

(1) انظر: صحيح البيهقي النبوية، ص 285، وانظر: سيرة ابن هشام (صفحة وحزنها على حمزة).

(2) الإذخر: نوع من العشب.

(3) أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

ج - عمرو بن الجموح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد⁽¹⁾، يشهدون مع رسول الله (ﷺ) للمشاهد، وهم: خلاّد، ومعوذ، ومعاذ، وأبو أيمن، فلمّا كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا: إنّ الله - عزّ وجلّ - قد عذرك، فأتى رسول الله (ﷺ)، فقال: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فو الله! إنّني لأرجو أن أطا بعرجتي هذه في الجنّة. فقال له رسول الله (ﷺ): «أمّا أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاّ تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقه الشّهادة» فخرج؛ وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردني إلى أهلي خائباً. فقتل شهيداً رضي الله عنه.

خامساً: من دلائل الثبوت:

1 - مقتل أبي بن خلف:

كان أبي بن خلف يلقي رسول الله (ﷺ) بمكّة، فيقول: يا محمد! إنّ عندي العوذ؛ فرساً أغلفه كلّ يوم فرقاً⁽²⁾ من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله (ﷺ): «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمّا كان يوم أحد، وأُسند رسول الله (ﷺ) في الشعب؛ أدركه أبي بن خلف، وهو يقول: أي محمد! لا نجوت إن نجوت! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله (ﷺ): «دعوه»، فلمّا دنا، تناول رسول الله (ﷺ) الحربة من الحارث بن الصّمة، فلمّا أخذها رسول الله (ﷺ) منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء⁽³⁾ عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثمّ استقبله، فطعنه في عنقه طعنة تدأ⁽⁴⁾ منها عن فرسه مراراً، فلمّا رجع إلى قريش وقد حدّشه في عنقه حدشاً غير كبير، فاحتقن الدّم، قال: قتلتني والله محمد! قالوا له: ذهب والله

(1) الأسد: جمع أسد.

(2) الفرق: مكبلاً يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مُدّاً.

(3) الشعراء: ذباب له لدغ، واللّدغ: غَضُ الحية، والعقرب، والدّباب.

(4) تدأ: تقلّب عن فرسه، فجعل يتدحرج.

فؤادك! والله إن بك من بأسٍ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلك، فو الله! لو بصق عليّ؛ لقتلني، فمات عدوُّ الله بسرفٍ⁽¹⁾ وهم قافلون به إلى مكَّة. [الطبري في تاريخه (518/2 - 519)، والواقدي فيالمغازي (251/1)، وابن سعد (46/2)، والبيهقي في الدلائل (211/3 و258)](2).

وفي هذا الخبر مثلاً رفيعٌ على شجاعة رسول الله (ﷺ)، فقد كان أبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّلاح، ومتدِّراً بالحديد الواقى، ومع ذلك استطاع رسولُ الله (ﷺ) أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه بين الدِّرع، والبيضة، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله (ﷺ) القتاليَّة، ودقَّتَه في إصابة الهدف. وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبِيِّ (ﷺ)، فقد أخبر أُمَيَّا بأنه سوف يقتله بمشيئة الله، وتمَّ ذلك، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشركين بصدق النَّبِيِّ (ﷺ)، وأنه إذا قال شيئاً وقع، فقد كان أُمَيُّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سيموت من تلك الطَّعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم، وعبادة أهوائهم⁽³⁾.

(1)سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.

(2)انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة ، لابن هشام (93/3 . 94).

(3)انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (169/5). قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذُوا لَكُمْ آلِهَةً مِّن دُونِ اللَّهِ فَتَقَدَّرَ إِلَيْهِمُ الْيَوْمَ الْعَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [33].

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرسول (ﷺ) وأصحابه:

قال البراء رضي الله عنه: وأشرف أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله (ﷺ): «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطّاب؟ فقال: إنّ هؤلاء القوم قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه، فقال: كذبت يا عدوّ الله! أبقى الله عليك ما يُخزبك. قال أبو سفيان: اعلّ هُبْل⁽¹⁾! فقال النبي (ﷺ): «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَى. ولا عُزَى لكم. فقال النبي (ﷺ): «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجّالٌ، وتجدون مثلاً لم امرّ بها، ولم تَسُوْنِي. [البخاري (4043)، والبيهقي في الدلائل (268/3)]⁽²⁾ وفي رواية: قال عمر: لا سواء! قتلنا في الجنة، وقتلناكم في النار». [أحمد (463/1)(3)، ومجمع الزوائد (110/6)].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله (ﷺ)، وأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنّه في علمهم أنّهم أهل الإسلام، وبهم قام صَرْحُهُ، وأركان دولته، وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنّه لا يقوم الإسلام بعدهم. وكان السُّكُوت عن إجابة أبي سفيان أولاً؛ تصغيراً له، حتّى إذا انتشى، وملأه الكِبَرُ؛ أخبروه بحقيقة الأمر، وردُّوا عليه بشجاعة⁽⁴⁾.

(1) اعلّ هُبْل: ظهر دينك.

(2) السيرة النبوية الصحيحة (392/2).

(3) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (392/2)، وسيرة ابن هشام (شهادة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).

(4) المصدران السابقان.

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بالهتة، وبشره؛ تعظيماً للتوحيد، وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يُغلب، ونحن حزبه، وجنده، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كلمهم لم يكن برد في طلب القوم، وناز غيظهم بعد متوقّدة، فلمّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُمهم؛ حمي عمر بن الخطّاب، واشتد غضبه، وقال: كذبت يا عدوّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشّجاعة، وعدم الجبن، والتّعرّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذّنهم بقوة القوم، وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا، ولم يَضْعُفُوا، وأنه، وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقي الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنّه، وظنّ قومه: أنهم قد أُصيبوا من المصلحة، وغيظ العدوِّ، وحزبه، والفتّ في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً، واحداً، فكان سؤاله عنهم، ونعيهم لقومه آخر سهام العدوِّ، وكيده، فصبر له النبيّ (ﷺ) حتّى استوفى كيده، ثمّ انتدب له عمر، فردّ بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً: فإنّ في ترك إجابته حين سألهم إهانةً له، وتصغيراً لشأنه، فلمّا منّته نفسه موتهم، وظنّ: أنهم قد قُتلوا، وحصل له بذلك من الكبر، والأشر⁽¹⁾ ما حصل، كان في جوابه إهانةً له، وتحقير، وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبيّ (ﷺ): «لا تجيبوه» فإنّه إنّما نهي عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم يَنْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلّ حال، فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً⁽²⁾.

(1) أشرّ أشرّاً: بطر واستكبر، فهو أشرّ.

(2) انظر: زاد المعاد (202/3 . 203).

ثانياً: تفقد الرسول (ﷺ) الشهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة، ذهب الرسول (ﷺ) ليتفقد أصحابه رضي الله عنهم.

قال جابر بن عبد الله في رواية البخاري: إِنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتَلَى أَحَدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذاً لِلْقُرْآنِ؟» فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدٍ؛ قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، وَمُلِيعَسَلُوا. [البخاري (4079)، وأبو داود (3138)، والترمذي (1036)، والنسائي (62/4)، وابن ماجه (1514)].

ولمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَقَدْ مُتِّلَ بِهِ؛ حَزَنَ حَزْناً شَدِيداً، وَبَكَى حَتَّى نَشَغَ⁽¹⁾ مِنَ الْبُكَاءِ⁽²⁾.

ثالثاً: دعاء الرسول (ﷺ) يوم أحدٍ:

صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ قَاعِداً لِكثَرَةِ مَا نَزَفَ مِنْ دَمِهِ، وَصَلَّى وَرَاءَهُ الْمُسْلِمُونَ قَعُوداً، وَتَوَجَّهَ النَّبِيُّ (ﷺ) بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ، وَالشَّاءَ عَلَى مَا نَالَهُمْ مِنَ الْجُهْدِ، وَالْبَلَاءِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «اسْتَوُوا حَتَّى أَتِيَّ عَلَى رِجِّي - عَزَّ وَجَلَّ»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفاً، ثُمَّ دَعَا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَمَقِ الْإِيمَانِ⁽³⁾، فَقَالَ (ﷺ): «اللَّهُمَّ! لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضَلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبْعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ.

اللَّهُمَّ! ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ؛ الَّذِي لَا يَحُولُ، وَلَا يَزُول. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْغَلْبَةِ، وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ. اللَّهُمَّ! عَائِذُكَ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَنَا. اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا،

(1) النَّشَغَ: الشَّهَقَ حَتَّى يَكَادَ يَبْلُغُ بِهِ الْغَشْيَ.

(2) انظر: مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لمحمد بن عبد الوهاب، ص 331.

(3) انظر: البشارة النبوية، لأبي شهبه (210/2).

وكرِهَ إلينا الكفر والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الرّاشدين. اللَّهُمَّ توفِّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصّالحين غير خزايا، ولا نادمين، ولا مفتونين. اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الذين يكذبون رُسُلَكَ، ويصدُّون عن سبيلك، واجعلْ عليهم رجزك، وعذابك. اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذِينَ أوتوا الكتاب، إله الخلق» [أحمد (424/3)، والبخاري (1800)، والطبراني في المعجم (4549)، والبخاري في الأدب المفرد (699)، ومجمع الزوائد (121/6 - 122)] ثمَّ ركب فرسه، ورجع إلى المدينة.

أَنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر، والفتح، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه.

رابعاً: معرفة وجهِ العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله (ﷺ) عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ، فقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ⁽¹⁾، وامتطوا الإبل⁽²⁾» [الواقدي في المغازي (298/1)، والطبري في تاريخه (527/2)، والبيهقي في الدلائل (282/3)؛ فإنَّهم يريدونمكَّةَ، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصنعون، فَجَنَّبُوا الخيلَ، وامتطوا الإبلَ، ووجَّهوا إلى مكَّةَ⁽³⁾، فرجع عليٌّ رضي الله عنه، وأخبر رسول الله (ﷺ) بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرِّسول (ﷺ)، ومراقبته الدَّقيقة لتحركات العدوِّ، وقدرته (ﷺ) على تقدير الأمور، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النَّبي (ﷺ) بعليٍّ رضي الله عنه، ومعرفته بمعادن

(1) جَنَّبُوا الخيلَ: قادوها إلى جنوبهم.

(2) امتطى الدَّابة: ركبها.

(3) انظر: البداية والنهاية (41/4)، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في آثار القوم).

الرِّجال، وفيه شجاعة عليّ رضي الله عنه؛ لأنّ هذا الجيش لو أبصره ما تورّع عن محاولة قتله⁽¹⁾. ونلاحظ: أنّ النّبيّ (ﷺ) أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت؛ تفقّد خلالها الجرحى، والشّهداء، وأمر بدفنهم، ودعا ربّه، وأثنى عليه سبحانه، وأرسل عليّاً ليتتبّع خبر القوم؛ كلّ ذلك من أجل أن يحافظ على النّصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أُحُدٍ، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنّصر أسباباً، وللّهزيمة أسباباً، فمن أخذ بأسباب النّصر، وصدق التّوكل على الله - سبحانه وتعالى - حقيقة التّوكل؛ نال النّصر بإذن الله - عزّ وجل -، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23]. ويتجلّى فقه النّبيّ (ﷺ) في ممارسة سنّة الأخذ بالأسباب، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرّوايات: أنّ النّبيّ (ﷺ) تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتّى بعد رجوعهم إلى مكّة، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمّد، وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحُدٍ، وبلغوا الرّوّحاء⁽²⁾، قال أبو سفيان: لا محمّداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتن، شرّ ما صنعتم! فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) [الطبراني في المعجم الكبير (11632)، وجمع الزوائد (121/6)]. وتفيد هذه الرّواية خبر استطلاع الرّسول (ﷺ) أعداءه حتّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنّ على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

(1) انظر: غزوة أُحُدٍ، لأبي فارس، ص 95 - 96.

(2) الرّوّحاء: تبعد عن المدينة 73 كيلو متراً، في طريق مكّة.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحد يوم السبت للتّصف من شَوّال، فلمّا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شَوّال؛ أذن مؤذن رسول الله (ﷺ) في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرجنّ معنا أحدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه، فأذن له، وإمّا خرج مُرهباً للعدوّ، وليظنّوا أنّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوّهم. [ابن هشام (107/3)، والبيهقي في الدلائل (314/3)]⁽¹⁾. وقد استجاب أصحاب النّبي (ﷺ) لنداء الجهاد، حتّى الذين أُصيبوا بالجروح؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أُحداً أنا، وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله (ﷺ) بالخروج في طلب العدو؛ قلت لأخي - أو قال لي - : أتفوتنا غزوة مع رسول الله (ﷺ)؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ، فخرجنا مع رسول الله (ﷺ)، وكنت أيسر جرحاً منه، فكان إذا غلب؛ حملته عُقبه ومشى عُقبه (فترة)، حتّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون⁽²⁾.

وسار رسول الله (ﷺ) إلى حمراء الأسد، واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدّى المشركين، فلم يتشجّعوا على لقائه، ونزاله، وكان رسول الله (ﷺ) قد أمر بإشعال النيران، فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمئة نار⁽³⁾.

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله (ﷺ) فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذه، فلحقه بالروحاء - ولم يعلم بإسلامه - فقال: ما وراءك يا معبد؟! فقال: محمّد وأصحابه، فقد تحرقوا⁽⁴⁾ عليكم، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟! فقال: ما أرى أن ترتحل حتّى يطلع أوّل الجيش من وراء هذه الأكمة⁽⁵⁾، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم. قال معبد: فإنّي

(1) انظر: البداية والنهاية (50/4).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص 144، نقلاً عن الطبقات الكبرى، لابن سعد (43/2).

(4) يتحرّقون: يلهبون من الغيظ.

(5) انظر: زاد المعاد (245/3).

أنهاك عن ذلك وأخبره بأنه رأى جيشاً عظيماً، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

واستمرّ المسلمون في معسكرهم، واثرت قريش السّلامة، والأوبة⁽¹⁾، فرجعوا إلى مكّة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قويّة متوثّبة، غسلت عارَ الهزيمة، ومسحت مغبّة⁽²⁾ الفشل، فدخلوها أعزّة رفيعة الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزّوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين، واليهود في المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجّل ظواهرها⁽³⁾ بقوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران 172 - 175] ووقع في أسر النّبيّ ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة، أبو عزّة الجمحيّ الشّاعر، فقتل صبراً؛ لأنّه أخلف وعده للرّسول ﷺ) بالاً يقاتل ضده عندما منّ عليه ببدرٍ، وأطلقه، فعاد فقاتل في أحدٍ، وقد حاول أبو عزّة أن يتخلّص من القتل، وقال: يا رسول الله! أفلني⁽⁵⁾، فقال رسول الله ﷺ: «لا والله! لا تمسح عارضيك⁽⁶⁾ بمكّة بعدها، وتقول: خدعتُ محمّداً مرّتين، اضرب عنقه يا زبير!» [ابن سعد (43/2)، والبيهقي في السنن الكبرى (7) (65/9)، وفي دلائل النبوة (280/3 - 281)]. فاضرب عنقه، فقال النّبيّ ﷺ حينئذٍ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ واحدٍ مرّتين» [البخاري (6133)، ومسلم (2998)]⁽⁸⁾، فصار هذا الحديث مثلاً، ولم يسمع قبل ذلك.

(1) اب أوبة: رجع.

(2) المغبّة من كلّ شيء: عاقبته واخره.

(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النبويّ في المدينة، ص 142.

(4) انظر تفسير هذه الايات في ابن كثير.

(5) أقال الله عنّته: صفّح عنه وتجاوز.

(6) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (742/2).

(7) انظر: البيرة النبويّة لابن هشام (116/3).

(8) انظر شرحه وسببه في الفتح.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض، الدَّاعين إلى الفتنة، ولأنَّ في المِرِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤسَّر من المشركين سوى أبي عَزَّة الجُمَحِيِّ⁽¹⁾.

وأما عدد القتلى من المسلمين في أحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165] أنَّها نزلت تسليّةً للمؤمنين عَمَّنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ يومُ أُحُدٍ. قال ابن عطية - رحمه الله -: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدْرٍ سبعين، وأسروا سبعين⁽²⁾. أما عدد الَّذِينَ قُتِلُوا يومَ أُحُدٍ من المشركين، فكان اثنين وعشرين قتيلاً⁽³⁾.

كان خروج رسول الله (ﷺ) لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمّة؛ منها:

- 1 - ألا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذِينَ خرجوا يومَ أُحُدٍ هو الشُّعور بالهزيمة.
- 2 - إعلامهم: أنَّ لهم الكَرَّةَ على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضَّعف، والفشل، واستجابوا لدعوة الله، ورسوله (ﷺ).
- 3 - تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم.
- 4 - إعلامهم: أنَّ ما أصابهم في ذلك اليوم، إمَّا هو منحةٌ، وابتلاءٌ اقتضتها إرادة الله، وحكمته، وأنَّهم أقوياء، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء⁽⁴⁾.

كما أنَّ في خروج النَّبي (ﷺ) إلى حمراء الأسد إشارةً نبويَّةً إلى أهميَّة استعمال الحرب النَّفسيَّة

(1) انظر: البداية والنهاية (53/4).

(2) المحرر الوجيز ، لابن عطية (411/3).

(3) مرويات غزوة أُحُد ، للباكري ، ص 367 . 369.

(4) انظر: في ظلال القرآن (519/1).

للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج (ﷺ) بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران، فكانت تُشاهد من مكانٍ بعيدٍ، وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى حُيِّل لقريش: أنَّ جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به، فانصرفوا؛ وقد ملأ الرعب أفئدتهم⁽¹⁾.

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحد:

كانت غزوة أُحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وقد ظهرت بطولاتُ النساء، وصدق إيمانُهنَّ في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى، ويداوين الجرحى، ومنهنَّ مَنْ قامت برِدِّ ضربات المشركين الموجهة للرَّسول (ﷺ)، ومَنْ شاركن في غزوة أُحدٍ: أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّديق، وأمُّ عمارة، وحَمَنَةُ بنت جَحْشٍ الأَسديَّة، وأمُّ سَلَيْط، وأمُّ سُلَيْم، ونسوةٌ من الأنصار. [مسلم (1809 و1810 و1811)].

أدوار النساء في المعركة

أ - سقي العطشى من المجاهدين

ب - مداواة الجرحى، ومواساة المصابين

ج - الدِّفاع عن الإسلام ورسوله (ﷺ) بالسَّيف

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيْبة المازنيَّة رضي الله عنها.

سابعاً: دروس في الصَّبْر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأُمَّة:

أ - صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لَمَّا اسْتُشْهِدَ أَخُوها حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه في أُحدٍ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مثَّلَ به المشركون، فجعدوا أنفه، وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه، ومذاكيره، فقال رسول الله (ﷺ) لابنها الزُّبير بن العوّام: «الْقُها، فَأَرْجِعْها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إِنَّ

(1) انظر: غزوة أُحدٍ، لأبي فارس، ص 51.

رسول الله (ﷺ) يأمر أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني: أنه قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلَمَّا جاء الزُّبَيْر بن العَوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره بذلك، قال: «خَلِّ سبيلها» فأنته، فنظرت إليه، فصلَّت عليه، واسترجعت⁽¹⁾، واستغفرت له. [سبق تخرجه](2).

ب - حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لَمَّا فرغ رسول الله (ﷺ) من دفن أصحابه رضي الله عنهم، ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ، فقال لها رسول الله (ﷺ): يا حمنة! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبد الله بن جحشٍ، فاسترجعت، واستغفرت له، ثمَّ قال لها رسول الله (ﷺ): احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطلب، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. ثمَّ قال لها: احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجك مصعب بن عُمَيْرٍ، قالت: واحزنه!

وصاحت، ووَلَوْتُ. فقال رسول الله (ﷺ): «إِنَّ زوج المرأة منها لِمَكَانٍ»؛ لما رأى من تَشَبُّهها عند أخيها، وخالها، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (1590)، والطبري في تاريخه (532/2)، والبيهقي في الدلائل (301/3)، وابن هشام (104/3)]. ثمَّ قال لها: ولمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرتُ يُتَمُّ بنيه، فراعني، فدعا لها رسول الله (ﷺ)، ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ⁽³⁾، فترَوَّجت طلحة بنت عبيد الله، فولدت منه محمداً، وعمران⁽⁴⁾، وكان محمد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها⁽⁵⁾.

(1) استرجعت: أي قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(2) انظر: البيرة النبوية، لابن هشام (108/3).

(3) انظر: البداية والنهاية (47/4)، وغزوة أحد دراسة دعوية، ص 236.

(4) انظر: الإصابة (88/8)، رقم (11060).

(5) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص 109.

ج - المرأة الدّينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: مرّ رسول الله (ﷺ) بامرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها، وأخوها، وأبوها مع رسول الله (ﷺ) بأحدٍ، فلمّا نُعوا لها؛ قالت: فما فعل رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: خيراً يا أمّ فلان! هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرؤنيه حتّى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتّى إذا رآته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ⁽¹⁾. [الواقدي في المغازي (292/1)، والطبري في تاريخه (533/2)، والبيهقي في الدلائل (302/2)، وابن هشام (105/3)].

. تريد: صغيرةً - . وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

(1) انظر: البداية والنهاية (48/4)، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدّينارية).

المبحث الرابع

بعض الدُّروس، والعبر، والفوائد

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 137-139].

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحد:

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِيَمْحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [آل عمران: 140 - 143].

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القرآن الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ)، على عكس ما نزل في بدرٍ من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه، أشدَّ من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُمْنَحَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [الأنفال: 67 - 68].

وقال في أُحدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِآذِنِهِ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿آل عمران: 152﴾ وفي هذا
حكمةً عمليّةً، وتربية قرآنيّةً، يحسن أن يلتزمها أهل التّربية، والقائمون على التّوجيه⁽¹⁾.

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَأَسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿آل عمران: 146 - 148﴾.

خامساً: مخالفة وليّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

إنّ طاعة وليّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدّينية، حتّى أدرجها الأئمّة في جملة
العقائد الإيمانيّة»⁽²⁾.

ولها أهميّة في تربية الأئمّة، وإقامة الدّولة، ويمكن أن نلخص أهميّة الطّاعة في النقاط الآتية:

1 - الامتثال لأمر الله - عزّ وجلّ -، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: 59].

2 - إنّ طاعة وليّ الأمر وسيلة وليست غاية؛ وسيلة لإقامة شرع الله في الأرض،
وإحقاق الحقّ، وإقامة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأئمّة، وإعلاء كلمة
التّوحيد، وإفراد العبوديّة لله - عزّ وجلّ -.

3 - اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنّ في الخلاف فساد أحوالهم، في دينهم، ودنياهم⁽³⁾.

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: مجموع الفتاوى (246/28).

(3) بدائع الشّالك في طبائع الممالك، لابن الأزرقي (77/1).

4 - أن يستعينوا بها على إظهار دينهم، وطاعة ربهم.

5 - إنَّ فيها سعادة الدُّنيا.

سادساً: خطورة إثارة الدُّنيا على الآخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من آيات، وأحاديث، تبين منزلة الدُّنيا عند الله، وتصف زخارفها، وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذّر من الحرص عليها، ولهذا أنزل الله تعالى في سورة عمران (التي نزلت عقب غزوة أحد) قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ﴾ [آل عمران: 14].

سابعاً: التعلُّق والارتباط بالدِّين وليس بالشخص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَئِنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

ثامناً: معاملة النَّبيِّ (ﷺ) للرُّماة الذين أخطؤوا، والمنافقين الذين انخدلوا:

أ - الرُّماة:

إنَّ الرُّماة الذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخْرِجْهم الرَّسولُ (ﷺ) خارج الصَّفِّ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النِّقص، والضعف، بل قبل ضعفهم هذا في رحمة، وعفو، وفي سماحة، ثمَّ شمل - سبحانه وتعالى - برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة، رغم ما وقع من بعضهم من أخطاءٍ جسيمةٍ، وما ترتَّب عليه من خسائرٍ فادحةٍ، فعفا - سبحانه وتعالى - عنهم عفواً غسلاً به خطاياهم، ومحا به آثار تلك الخطايا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

وهناك أمرٌ مهمٌ يتصل بهذا العفو، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوقها بعض الشيء، ذلك هو موقف رسول الله (ﷺ) مما حدث منهم؛ إنهم يشعرون: أَنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) هو وحده الذي تحمّل نتيجة تلك الأخطاء، فلا بدّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم، وتتمّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله - سبحانه وتعالى - نبيّه (ﷺ) بأن يعفو عنهم، وحثّه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم، والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم، ومشورتهم⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

ب - انخزال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، أن يحدث بلبلةً، واضطراباً في الجيش الإسلامي؛ لتنهار معنوياته، ويتشجّع العدو، وتعلو همّته. وعمله هذا ينطوي على استهانةٍ بمستقبل الإسلام، وغدرٍ به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخزال، إلا أنهم رفضوا دعوته⁽²⁾، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِي الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ

(1) انظر: غزوة أحد دراسة دعويّة، ص 218.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 219.

لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦﴾ [آل عمران: 166 - 167].

فبالرَّغم من خطورة الموقف، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين، وكثرة جيش قريش، إلا أنَّ الرَّسول (ﷺ) ترك هؤلاء المنافقين، وشأنهم، ولم يُعرِّهم أيَّ اهتمامٍ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس⁽¹⁾، وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول.

تاسعاً: «أُحد جبل يُحِبُّنا ونُحِبُّه»:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إِنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) طَلَعَ لَهُ أُحُدٌ، فقال: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا، ونُحِبُّه» [البخاري (4084) ومسلم (1365)].

أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ، والإحساس المرفه مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟! قال الأستاذ صالح الشَّامي: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها، أو زمانها، وحتى لا تنسحب هذه العادة، وتستمر بعد أن جاء الإسلام، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِّ، وابتعاداً عن الطَّيرة، والتَّشاؤم⁽²⁾.

عاشراً: الملائكة في أُحد:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله (ﷺ) وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابٌ بياضٌ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل، ولا بعدُ - يعني: جبريل، وميكائيل عليهما السَّلام - [البخاري (4054)، ومسلم (2306)].

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبِيِّ (ﷺ)؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصمته من النَّاس، ولم يصحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ سوى هذا القتال - وإنَّ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم -؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّبْر، والتَّقوى، وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقَّق هذه

(1) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة، ص 220.

(2) انظر: من معين البيرة، ص 427.

الأمر، فلم يحصل الإمداد⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران 124-125].

حادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال، وال عمران:

1 - النصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله - عزَّ وجلَّ - وليس مُلكاً لأحدٍ من الخلق، يهبه الله لمن يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء، مثله مثل الرِّزق، والأجل، والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: 10].

2 - وحين يقدر الله تعالى النصر؛ فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة؛ فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة. قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: 160].

3 - ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله - عزَّ وجلَّ - نحن بحاجة إلى فهمها، فلا بد أن تكون الرؤية خالصةً لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]، ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه، والجهاد في سبيله.

4 - ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساس في النصر. وتفريق الكلمة، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمة. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: 46].

5 - وطاعة أمر الله تعالى، ورسوله (ﷺ) وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أمَّا المعصية؛

(1) انظر: البيرة النبوية الصحيحة 391/2.

فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

6 - وحب الدنيا، والتهافت عليها يُفقد الأمة عون الله، ونصره. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

7 - ونقص العدد والعدة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

8 - ولكن لا بد من الإعداد المادي، والمعنوي لمواجهة العدو⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

9 - والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء، من العوامل الرئيسية في النصر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

10 - ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد، أو العدة، أو الذات، والتبرؤ من الحول، والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر⁽²⁾. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

(1) انظر: فقه البيعة النبوية، للغضبان، ص 461. 462.

(2) انظر: فقه البيعة النبوية، للغضبان، ص 463.

ثاني عشر: فضل الشهداء وما أعدّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله (ﷺ): لما أُصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ، تردُّ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش، فلمّا وجدوا طيبَ مشربهم، ومأكلهم، وحسنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا يَنكُلو⁽¹⁾ عن الحرب! فقال - عزَّ وجلَّ - : أنا أبليّهم عنكم، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - على رسوله (ﷺ) هذه الآيات. [أحمد (266/1)، وأبو داود (2520)، وأبو يعلى (2331)]⁽²⁾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾⁽³⁾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾ [آل عمران: 169 - 171].

(1) نكل عن الأمر نكولاً: نكص.

(2) انظر: تفسير الطبري (170/4)، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أحد).

الفصل السابع

أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأول

محاولات المشركين لزعة الدولة الإسلامية

كانت غزوة أحدٍ مشجعةً لأعداء الدولة الإسلامية على مواجهتها، وساد الشعور لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين، والتغلب عليهم، واتجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة؛ لاستئصال شأفتهم⁽¹⁾، وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهذلي لجمع الحشود؛ لكي يهاجم بها المدينة، وتجرت عضل وقارة⁽²⁾ على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل بقتل الفراء الدعاة الامنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله (ﷺ)، فتصدى لهذه المحاولات الماكرة الحبيب المصطفى (ﷺ) بشجاعة فائقة، وسياسة ماهرة، وتخطيط سليم، وتنفيذ دقيق.

أولاً: غدر قبيلتي عضل والقارة، وفاجعة الرجيع⁽³⁾:

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي (ﷺ) هذه السرية، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو [البخاري 4086]، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها: أنه قدم على رسول الله (ﷺ) رهط من قبيلتي عضل، والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا: «إنّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا، ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام»⁽⁴⁾ ويظهر: أنّ قبيلة هذيل قد سعت للتأثر من المسلمين لخالد ابن سفيان الهذلي، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد

(1) استأصل الله شأفته: أزاله من أصله.

(2) عضل والقارة: بطنان من الهون، (الهون) بن خزيمه بن مدركة.

(3) الرجيع: اسم موضع من بلاد هذيل.

(4) انظر: المغازي، للواقدي (1/354-355).

جزم الواقدي⁽¹⁾ بأنَّ السبب هو أن بني لحيان - وهم حيٌّ من هُذَيْل - مَشَتْ إلى عَضَل، والقَارَة، وجعلت لهم جُعلاً ليخرجوا إلى رسول الله (ﷺ) ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مَكَّة⁽²⁾.

وهكذا بعث الرسول (ﷺ) هذه السريّة التي تتألف من عشرةٍ من الصّحابة [البخاري (3989)]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتّى إذا كانوا بين عُسْفان ومَكَّة أغار بنو لحيان - وهم قريبٌ من مئتي مقاتل -، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمّة كافر⁽³⁾، وقال عاصم بن ثابت: إني نذرت ألا أقبل جوار مشرك أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم، وهو يقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدُ نَابِلٍ النَّبْلُ وَالْقَوْسُ هَا بِلَابِلٍ⁽⁴⁾
تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا الْمَعَابِلُ⁽⁵⁾ الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ بَاطِلُ
وَكُلُّ مَا حَمَّ⁽⁶⁾ إِلَهُ نَازِلٍ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ إِلَيْهِ آئِلُ
إِنْ لَمْ أَقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ⁽⁷⁾

فرماهم بالنَّبْل؛ حتّى فنيّت نبْلُه، ثمّ طاعنهم بالرُّمَح حتّى كُسِرَ رُحْمُه، وبقي السَّيْف فقال: اللَّهُمَّ حَيِّثُ دِينِكَ أَوَّلُ نَهَارِي، فَاحْمِ لِي لَحْمِي آخِرَه! وكانوا يجردون كُلَّ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِه، فكَسَرُ غِمْدَ سَيْفِه، ثُمَّ قَاتَلَ

حَتَّى قُتِلَ، وَقَدْ جَرَحَ رَجُلَيْنِ وَقَتَلَ وَاحِداً، وَكَانَ يَقُولُ؛ وَهُوَ يَقَاتِلُ:

أَبُو سُلَيْمَانَ وَمِثْلِي رَامِي وَكَانَ قَوْمِي مَعْشَرًا كَرَامَا

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: نضرة التَّعِيم (314/1).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) بلايل: جمع بليلة ولبال، وهو شدةُ الهم.

(5) المعابيل: جمع معبلة، وهو نصل طويل عريض.

(6) حَمَّ: قَدَّرَ.

(7) انظر: مغازي، الواقدي (355/1).

ثمَّ شرعوا فيه الأسنة حتَّى قتلوه، وكانت سُلالة بنت سعد بن الشَّهيد قد قُتِل زوجها وبنوها أربعة، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث، ومُسافعا، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحف⁽¹⁾ رأسه الخمر، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مئة ناقة، قد علمت بذلك العرب، وعلمته بنو لحيان، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصم؛ ليذهبوا به إلى سُلالة بنت سعد ليأخذوا منها مئة ناقة، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبر⁽²⁾ فحمته، فلم يدنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه، وجاء منها شيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبر، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سيلاً - ولم يكن في السَّماء سحابٌ في وجهه من الوجوه -، فاحتمله، فذهب به؛ فلم يصِلوا إليه. [البهقي في الدلائل (328/3)، وابن هشام (180/3)]⁽³⁾.

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريَّة بالنَّبل، ثمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثلاثة الباقين، فقبلوا؛ غير أنَّهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة، وهما خبيب، وزيد بن الدَّثنة؛ فباعوهما لقريش⁽⁴⁾ وكان ذلك في صفر سنة 4 هـ⁽⁵⁾.

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتَّى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسى من بعض بنات الحارث ليستحذَّ بها، فأعارته، وغفلت عن صبيِّ لها، فدرج فجلس على فخذه، ففرغت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه، فقال خبيبٌ: أتخشين أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة

(1) القحف: الجزء الأعلى من الجمجمة.

(2) الدَّبر: الرُّنابير (جمع الرُّنبار، وهي حشرة أليمة اللَّسع)، والتَّحل.

(3) انظر: المغازي، للواقدي (356/1).

(4) انظر تفصيل ذلك كلِّه في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرِّجيع ورعلٍ وذكوآنٍ وبئر معونة، وحديث عضل والقارة وعاصم بن

ثابت، وخبيب وأصحابه، رقم (4086) وما بعده.

(5) جوامع السِّيَر، لابن حزم، ص 176.

يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزق رَزَقَهُ اللهُ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصل ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تقولوا إن ما بي جَزَعٌ من الموت؛ لزدت، فكان أول مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ عند القتل هو⁽¹⁾، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عِدْداً، واقتلهم بَدَداً⁽²⁾»، ولا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا» [البخاري (3989)، والبيهقي في الدلائل (324/3 - 325)، وابن هشام (181/3 - 182)] ثُمَّ قَالَ:

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَرَّعٍ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخْشَعًا وَلَا جَزَعًا إِلَيَّ إِلَى اللَّهِ مَرْجَعِي

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك: أنَّ مُحَمَّدًا عندنا يُضْرَبُ عنقه؛ وأنتك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أيُّ في أهلي، وأنَّ مُحَمَّدًا في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثُمَّ قُتِلَ، وصلبوه، ووَكَّلُوا به مَنْ يَحْرُسُ جُثَّتَهُ، فجاء عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، فاحتمله بجذعه ليلاً، فذهب به، ودفنه⁽³⁾ وأما زيد بن الدثينة، فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه أمية بن خلف الَّذي قُتِلَ ببدر، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ مُحَمَّدًا الآن عندنا مكانك تضربُ عنقه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ مُحَمَّدًا الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالسٌ في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من النَّاسِ أحداً

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (399/1).

(2) بَدَدَ الشَّيْءَ: فَزَعَهُ، بَدَداً: مَتَفَرِّقِينَ فِي الْقَتْلِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ.

(3) زاد المعاد (245/3)، وفتح الباري (شرح حديث رقم 4086)، وسيرة ابن هشام (ذكرى يوم الرجيع)

يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا⁽¹⁾. وقد عُرفت هذه الحادثة المفجعة بالرجيع، نسبةً إلى ماء الرجيع الذي حصلت عنده.

وفي هذه الحادثة دروسٌ، وعبرٌ، وفوائدٌ منها:

1 - فوائد ذكرها ابن حجر:

«وفي الحديث: أنَّ للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه؛ ولو قُتل؛ أنفةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدَّة، فإن أراد الأخذ بالرُّخصة؛ فله أن يستأمن. قال الحسن البصريُّ: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوريُّ: أكره ذلك. وفيه الوفاء للمشرَكين بالعهد، والتورُّع عن قتل أولادهم، والتلطُّف بمن أريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدُّعاء على المشرَكين بالتَّعميم، والصَّلابة عند القتل، وفيه إنشاء الشَّعر، وإنشاده عند القتل، ودلالة على قوَّة يقين خبيب، وشدَّته في دينه.

وفيه: أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه، ليشيبه، ولو شاء ربُّك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم، وإكرامه حيًّا وميتاً، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل. وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشرَكين، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّهادة، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمة بقطع لحمه»⁽²⁾.

2 - تعظيم سنَّة النَّبيِّ (ﷺ):

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ (ﷺ)، وكيف أن حُبِّيًّا مع أنَّه في أسر المشرَكين، ويعلم:

أنَّه سيقتل بين عشيةٍ، أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد، واستعار السِّكِّين لذلك، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا

(1) انظر: البيَّرة النَّبويَّة الصَّحيحة (400/2)، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدُّثنة ومثله من وفاته للرَّسول صلى الله عليه وسلم).

(2) فتح الباري، شرح حديث رقم (4086)، فقرة: «فلم يقدروا منه على شيء».

ينبغي أن يشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمرُّ بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنة والدُّخول في شرائع الإسلام كافة⁽¹⁾.

3 - الإسلام ينتزع الغدر، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيِّ لي، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه، فوضعه على فخذِه فلما رأيته؛ فزَعْتُ منه فِرْعَةً عرف ذلك مِنِّي، وفي يده المِوسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. [البخاري (4086)]⁽²⁾.

إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سَمَوِّ الرُّوح، وصفاء النَّفس، والالتزام بالمنهج الإسلامي، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]. إنَّه الوفاء يتعلَّمه النَّاسُ مِّنْ غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرِّخاء، والسِّدَّة⁽³⁾.

4 - حبُّ النَّبيِّ (ﷺ) عند الصَّحابة:

إنَّ حظَّ الصَّحابة من حبِّه (ﷺ) كان أتمَّ، وأوفرَ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرَةُ المعرفة، وهم بقدره (ﷺ)، ومنزلته أعلم، وأعرف مِنْ غيرهم، فبالتَّالي كان حُبُّهم له (ﷺ) أشدَّ، وأكبر⁽⁴⁾.

في حادثة الرِّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادئ بين أبي سفيان، وبين زيدِ ابن الدثنة؛ إذ قال له أبو سفيان: أتحبُّ أنَّ محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحبُّ أنَّ محمداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكة؛ وإني جالسٌ في أهلي⁽⁵⁾. وهذا الحبُّ من الإيمان، فقد قال (ﷺ): «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وَمَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا الله، وَمَنْ يكره أن يعود في

(1) انظر: وقفات تربويَّة مع السيرة النَّبويَّة، لأحمد فريد، ص 234.

(2) انظر: صحيح السيرة النَّبويَّة، ص 320.

(3) انظر: من معين السيرة، ص 259.

(4) انظر: حقوق النَّبي صلى الله عليه وسلم على أمته، د. محمَّد التميمي (314/1).

(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص 154.

الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار» [البخاري (21)، ومسلم (43)].

ثانياً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (4هـ):

عامر بن الطفيل زعيم من زعماء بني عامر، كان متكبراً متغطرساً، طامعاً في الملك، وكان يرى: أنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربية؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النَّبِيِّ (ﷺ)، وقال له: أُخَيِّرْكَ بين ثلاث خصالٍ: أن يكون لك أهل السَّهل، ولي أهل المدَر، أو أكونَ خليفَتَكَ، أو أغزوك بأهل عَطَفَان بألف أشقر وألف شقراء [البخاري (4091)].

فرفض (ﷺ) تلك المطالب الجاهليَّة، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسنَّة سيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطفيل، وقَدَّم إلى النَّبِيِّ (ﷺ) هَدِيَّةً، فعرض عليه النَّبِيُّ (ﷺ) الإسلام، فلم يُسَلِّمْ، ولم يَبْعُدْ من الإسلام، وقال: يا محمد! لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله (ﷺ): إني أخشى عليهم أهل نجد، قال مُلاعِبُ الأسنَّة (أبو براء): أنا لهم جازر، فابعث إلى أهل نجد مَنْ شئت. فبعث إليهم بقوم فيهم المنذر بن عمرو، وهو الَّذي يقال له: الْمُعْنِقُ لِيَمُوت⁽¹⁾، أو أعنق الموت، فاستجاش⁽²⁾ عليهم عامر بن الطفيل بني عامر، فأبوا أنيطيعوه، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة، فاستجاش عليهم بني سُليم، فأطاعوه، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رام، فأدركهم بئر معونة، فقتلوهم إلا عمرو بن أمية⁽³⁾.

ومن حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبِيِّ (ﷺ)، فقالوا: أن ابعث معنا رجلاً يَعْلَمُونا القرآن، والسُّنَّة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم القُرَّاء، فيهم خالي حَرَام، يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلَّمون، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون، فيبيعونه، ويشترون به الطَّعام لأهل الصُّفَّة، وللفقراء، فبعثهم النَّبِيُّ (ﷺ) إليهم، فعَرَضُوا لهم، فَقَتَلُوهم، قبل أن يَبْلُغُوا المكانَ، فقالوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا: أَنَّا

(1) المعنق ليموت: أي: المسرع، وإنما لُقِبَ بذلك؛ لأنَّه أسرع إلى الشَّهادة.

(2) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

(3) انظر: صحيح البيهقي التَّوَيَّة، ص 322، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرِّجيع)، والبخاري (الأحاديث من 4086 إلى 4096)، وانظر شرحها في الفتح، ففيها تفصيلات وفوائد كثيرة، وكذا مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجَنَّة للشَّهيد، رقم 677).

قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا.

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ من خلفه، فطعنه بِرُمَحٍ حَتَّى أَفْقَدَهُ، فقال حرام: فُزْتُ وربَّ الكعبة، فقال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: «إِنَّ إخوانكم قد قُتِلُوا، وإِهم قالوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَا قَدْ لَقِينَاكَ، فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا» [أحمد (416/1)، ومسلم (677)، والبيهقي في الدلائل (344/3)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة، والفاجعة المفجعة دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

1 - لا بدَّ للدَّعوة من توضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصحاب الرِّجِيع من القُرَّاء، الَّذِينَ أَرْسَلَهُم النَّبِيُّ (ﷺ) مُعَلِّمِينَ، وَمُفَقِّهِينَ فِي غَزْوَةِ الرِّجِيعِ، وَهَذَا هُنَا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ يَغْدِرُ بِالسَّبْعِينَ الْقُرَّاءَ، الَّذِينَ اسْتَنْفَرُوا لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّفْقِيهِ فِي دِينِ اللَّهِ، فِي مَجْزَةِ رَهْبِيَّةٍ دَنِيَّةٍ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ بَرٍّ مَعُونَةٍ. وَقَدْ تَرَكْتُ هَذِهِ الْمَصَائِبَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) آثَاراً غَائِرَةً، بَعِيدَةً الْأَعْمَاقِ، حَتَّى إِنَّهُ لَبَثَ شَهْرًا يَقُتُّ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ دَاعِيًا عَلَى قِبَائِلِ سُلَيْمٍ؛ الَّتِي عَصَتْ اللَّهَ، وَرَسُولَهُ (ﷺ) ⁽¹⁾؛ فَعَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ، وَالْعَصْرِ، وَالْمَغْرَبِ، وَالْعِشَاءِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ، فِي دَبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ، إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ» مِنَ الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ، يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ؛ عَلَى رِغْلٍ وَذُكْوَانٍ وَعُصَيَّةٍ وَيُؤْمِنُ مَنْ خَلْفَهُ. [أحمد (301/1 - 302)، وأبو داود (443)، وابن خزيمة (618)].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا فَتَّرَ مِنْ حِمِيَّتِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَلَا كَسَرَ مِنْ عَزْمِهِمْ فِي مُوَاصَلَةِ الدَّعْوَةِ، وَخِدْمَةِ دِينِ اللَّهِ، لِأَنَّ مَصْلَحَةَ الدَّعْوَةِ فَوْقَ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ؛ بَلْ إِنَّ الدَّعْوَةَ لَا يَكْتَبُ لَهَا النَّصْرُ؛ إِذَا لَمْ تُبَدَّلْ فِي سَبِيلِهَا الْأَرْوَاحُ، وَلَا شَيْءٌ يُمْكِنُ لِلدَّعْوَةِ فِي الْأَرْضِ مِثْلَ الصَّلَابَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ، وَالْأَزْمَاتِ، وَاسْتِرْخَاصِ التَّضْحِيَّاتِ مِنْ أَجْلِهَا. إِنَّ

(1) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبَوِيِّ في المدينة، ص 151.

الدَّعَوَاتِ بدون قوَى، أو تَضَحِيَّاتٍ، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات، وأخيلةٍ، تَلْفُهَا الكُتُبُ، وتروِيها الأساطير، ثُمَّ تُطَوَّى مع الزَّمنِ.

إنَّ حَادِثِي الرَّجِيعِ وبِئْرَ مَعُونَةٍ، تُبَصِّرَانَا بالمسؤولية الضَّخْمة عن دين الله، والدَّعْوَةُ إليه، وَضَعْتَ نُصَبَ أَعْيُنِنَا⁽¹⁾ نَمَازِجَ مِنَ التَّضَحِيَّاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مِنْ أَجْلِ عَقِيدَتِهِمْ، وَدِينِهِمْ، وَمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ.

إِنَّ لِلسَّعَادَةِ ثَمَنًا، وَإِنَّ لِلرَّاحَةِ ثَمَنًا، وَإِنَّ لِلْمَجْدِ وَالسُّلْطَانِ ثَمَنًا، وَثَمَنُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ دَمٌ زَكِيٌّ يُرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ شَرَعِ اللَّهِ وَنِظَامِهِ، وَتَثْبِيتِ مَعَالِمِ دِينِهِ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ⁽²⁾.

2 - فزت وربّ الكعبة:

صَاحِبُ الْكَلِمَةِ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعِنْدَمَا اخْتَرَقَ الرُّمُحُ ظَهْرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ صَدْرِهِ، وَأَصْبَحَ يَتَلَقَّى الدَّمَ بِيَدَيْهِ، وَيَمْسَحُ بِهِ وَجْهَهُ، وَرَأْسَهُ، وَقَالَ: فَزَتْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. [البخاري (4092)].

إِنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ يَجْعَلُ أَقْسَى الْقُلُوبِ، وَأَعْظَمَهَا تَحْجُرًا يَتَأَثَّرُ، وَيَسْتَصْغِرُ نَفْسَهُ أَمَامَ هَؤُلَاءِ الْعَظَمَاءِ الَّذِينَ لَا تَصْفَرُّ وَجُوهُهُمْ فِرْعَاءً مِنَ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا يَعْلُوها الْبِشْرُ وَالشُّرُورُ، وَتَغْشَاها السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ⁽³⁾.

نشاط:

استنتج دروساً أخرى من فاجعتي الرجيع وبئر معونة.

(1) نُصَبَ أَعْيُنُنَا: أي أماننا.

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص 152.

(3) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (50/6).

المبحث الثاني

زواج النبي (ﷺ) بأمّ المساكين، وأمّ سلمة، وأحداث متفرقة

أولاً: زينب بنت خزيمة أمّ المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوّجها رسول الله (ﷺ) في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتُوفيت في حياته (ﷺ) في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت في مدينة رسول الله (ﷺ) (1).

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رثاب، الذي قُتل في معركة أحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى، فتزوّجها (ﷺ) إكراماً لها بعد أن فُجعت بقتل زوجها في معركة أحدٍ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً، فكانه (ﷺ) كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها (2).

ثانياً: زواج النبي (ﷺ) بأمّ سلمة رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أمية خذافة بن المغيرة القرشيّة المخزومية، كانت زوجة ابن عمّها أبي عبد الله بن عبد الأسد، وزوجها هذا هو ابن عمّة الرسول (ﷺ) برة بنت عبد المطلب، وهو أيضاً أخو رسول الله (ﷺ) من الرضاعة، وقد هاجرت أمّ سلمة رضي الله عنها وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين، ثمّ رجعا إلى مكّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله (ﷺ) والمسلمون (3)، واستشهد زوجها ابو السلمة في غزوة أحد.

(1) انظر: تفسير القرطبي (166/14).

(2) انظر: المفصل في أحكام المرأة، لعبد الكريم زيدان (469/11).

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (202/2).

الحكمة في زواج أم سلمة:

والحكمة في هذا الزَّواج - كما يقول صاحب تفسير المنار -: ليس لأجل التَّمَتُّع المباح له؛ وإنما كان لفضلها؛ الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية، ولتعزيتها - أي: بوفاة زوجها⁽¹⁾ - ولا ننسى كذلك: أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزَّ بطون قريش، وهي التي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله (ﷺ)، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة، وتقريب قلوب أبنائها، وتوطئة، وتحبُّب إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهار رسول الله (ﷺ)⁽²⁾.

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبي (ﷺ) في البناء الدَّاخلي للأُمَّة، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهم، وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن ينهلنَّ من نور الثُّبوة ما يشاء الله أن ينهلنَّ لكي يُبلِّغنَّ عن رسول الله⁽³⁾.

وكانت أم سلمة آخر مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين، وكانت وفاتها سنة إحدى وستين، وقد رَوَتْ عن رسول الله أحاديث، يبلغ مسندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً؛ واتفق البخاريُّ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة، وانفرد البخاريُّ بثلاثة، ومسلمٌ بثلاثة عشر⁽⁴⁾. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله (ﷺ)، وبموثها انطفأ آخر مصباحٍ من مصابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّور، والهُدى، والعلم؛ فرضي الله عنها، وأرضاها!⁽⁵⁾.

(1) انظر: تفسير المنار (372/4).

(2) انظر: التَّربية القياديَّة (356/3).

(3) المصدر السابق نفسه (357/3).

(4) انظر: سير أعلام النبلاء (210/2).

(5) انظر: البشيرة النَّبويَّة ، لأبي شعبة (248/2 . 249).

ثالثاً: مولد الحسن بن علي رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : «وُلِدَ الْحَسَنُ فِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ، وَعَلَى هَذَا وَلَدَ الْحُسَيْنِ قَبْلَ تَمَامِ السَّنَةِ مِنْ وَلَادَةِ الْحَسَنِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ: أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَّقَتْ بِالْحُسَيْنِ بَعْدَ مَوْلِدِ الْحَسَنِ بِخَمْسِينَ لَيْلَةً، وَجَزَمَ النَّوَائِيُّ فِي التَّهْذِيبِ أَنَّ الْحَسْنَ وُلِدَ لِحَمْسٍ خُلُونٍ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ⁽¹⁾».

رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (4هـ):

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) أَمَرَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ كِتَابَ الْيَهُودِ؛ لِيَقْرَأَهُ لِلنَّبِيِّ (ﷺ) إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ [البخاري (7195)]، فتعلَّمه في خمسة عشر يوماً⁽²⁾.

وبدل هذا الأمر على:

- 1- معرفة النبي عليه السلام بإمكانات أصحابه ويتضح ذلك من اختيار زيد لتعلم اللغة وهذه السرعة في تعلمها.
- 2- أهمية الترجمة.
- 3- ذكاء زيد رضي الله عنه وقوة حافظته.

(1) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (10/1).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (429/2).

المبحث الثالث

إجلاء يهود بني النضير

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ - تاريخ الغزوة:

يرى المحققون من المؤرخين: أنَّ غزوة بني النضير، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة.

ب - أسباب الغزوة:

1 - نقض بني النضير عهدهم؛ الَّتِي تحتم عليهم ألا يؤووا عدوًّا للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

قال موسى بن عقبة - صاحب المغازي - : «كانت بنو النضير قد دسُّوا إلى قريش، وحضُّوهم على قتال رسول الله (ﷺ)، ودلُّوهم على العورة»⁽¹⁾.

2 - محاولة اغتيال النَّبيِّ (ﷺ):

خرج النَّبيُّ (ﷺ) في نفر من أصحابه عن طريق قُبَاء إلى ديار بني النضير، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةً جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله (ﷺ) لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ (ﷺ) وبين بني النضير حول أداء الدِّيَّات، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النضير وبين بني عامر من عقود، وأحلاف.

استقبل بنو النضير النَّبيَّ (ﷺ) بكثيرٍ من البشاشة، والكياسة، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله، والغدر به، ويبدو أنَّهم اتَّفَقوا على إلقاء صخرةٍ عليه (ﷺ) من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه، ولكنَّ الرسول (ﷺ) - الَّذي كان برعاية الله وحفظه - أدرك مقاصد

(1) انظر: فتح الباري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (332/7).

بني النَّضِير؛ إذ جاءه الخبر من السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ، فنهض، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة، ثُمَّ تبعه أصحابه بعد قليل⁽¹⁾.

ثانياً: إنذار بني النَّضِير بالجلَاء وحصارهم:

أ - إنذار بني النَّضِير:

سَجَّلَتْ معظمُ كتب السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، خبرَ إنذار النَّبِيِّ (ﷺ) لبني النَّضِير بالجلَاء خلال عشرة أيام.

وفي تلك المَدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول مَنْ يقول لهم: اثبتوا، وَتَمَنَّعُوا؛ فَإِنَّا لَنُؤَسِّلَمَكُم، وَإِن قُوتِلْتُمْ؛ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِن أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ⁽²⁾، وَلَا تَخْرُجُوا فَإِنَّ مَعِيَ مِنَ الْعَرَبِ، وَمَنْ انْضَوَى إِلَى قَوْمِي أَلْفِينَ، فَأَقِيمُوا، فَهَمَّ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حَصُونَكُمْ، وَيَمُوتُونَ عَنْ آخِرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكُمْ⁽³⁾.

فَعَادَتْ لِلْيَهُودِ بَعْضُ ثِقَتِهِمْ، وَتَشَجَّعَ كَبِيرُهُمْ (حُيَيُّ بْنُ أَخْطَب) وَأَرْسَلَ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) جُدِّي بن أَخْطَب يَقُولُ لَهُ: إِنَّا لَنَزِيمٌ - أَي: لَنَنْجِيكَ - دَارِنَا، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ! فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَقَالَ: حَارَبَتْ يَهُودُ⁽⁴⁾.

ب - ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة، ولم يخرجوا من ديارهم، فَتَحَرَّكَتْ جِيُوشُ الْمُسْلِمِينَ صَوْبَهُمْ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْحَصَارَ لِمَدَّةِ خَمْسِ عَشْرَةَ لَيْلَةً.

وَأَمَرَ (ﷺ) بِحَرْقِ نَخِيلِهِمْ، وَقَضَى بِذَلِكَ عَلَى أَسْبَابِ تَعَلُّقِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَضَعَفَتْ حِمَاسَتُهُمْ لِلْقِتَالِ، وَجَزِعُوا، وَتَصَايَحُوا: يَا مُحَمَّد! قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفُسَادِ، وَتَعْيِيهِ عَلَى مَنْ يَفْعَلُهُ؛ فَمَا

(1) انظر: الواقدي (365/1)، والتَّارِيخُ السِّيَاسِيُّ والعسكري، ص 190.

(2) انظر: سيرة ابن هشام (212/3).

(3) انظر: تاريخ الطَّبْرِيِّ (553/2).

(4) انظر: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، لابن كثير (146/3).

بال قطع النّخيل، وتخريبها؟! وألقى الله في قلوبهم الرُّعب، وأدرك بنو النّضير الّا مفرّاً من جلائهم، وخاصّةً بعد أن أخلف ابن أبيّ وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً، أو يدفعوا عنهم شراً؛ فأرسلوا إلى النّبيّ (ﷺ) يلتمسون منه أن يؤمّنهم حتّى يخرجوا من ديارهم، فوافقهم النّبيّ (ﷺ) على ذلك، وقال لهم: «اخرجوا منها، ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا الحلقة - وهي الدُّروع، والسِّلاح -»؛ فرضوا بذلك⁽¹⁾.

ثالثاً: الدُّروس، والعبر في هذه الغزوة:

تحدّث القرآن الكريم عن غزوة بني النّضير في سورة كاملة، هي سورة الحشر، وقد بينت السورة عدداً من الدروس والعبر المستفادة من هذه الغزوة:

1 - الثناء على الله وتمجيده:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 1].

2 - الرُّعب جنديّ من جنود الله:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾

[الحشر: 2-4].

إنّ هذه الغزوة درسٌ للأمة في جميع عصورها، تذكّرهم أنّ طريق النصر قريب، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه، والتّسليم لشريعته، وتقديره حقّ قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون، نصرهم الله، ولو كان عدوهم قوياً، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلم (257/1).

3 - تخريب ممتلكات الأعداء:

لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِجَيْشِهِ، وَحَاصِرَ بَنِي النَّضِيرِ تَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحَصُونِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِقَطْعِ النَّخْلِ، وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا، فَنَادَوْهُ يَا مُحَمَّدُ! قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفُسَادِ، وَتَعْيِيهِ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ، وَتَحْرِيقِهَا؟⁽¹⁾، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5]⁽²⁾⁽³⁾.

وَقَدْ تَوَسَّعَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ أَبُو زَهْرَةَ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ مَا مَلَحَّصَهُ بَعْدَ أَنْ سَأَلَ آراءَ الْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ:

وَالَّذِي نَنْتَهِي إِلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَكُونُ فِي الْحَرْبِ مِنْ هَدْمٍ، وَتَحْرِيقٍ، وَتَخْرِيبٍ: أَنَّهُ يُسْتَفَادُ مِنْ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ، وَأَعْمَالِ النَّبِيِّ (ﷺ) فِي حُرُوبِهِ:

1 - أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ عَدَمُ قَطْعِ الشَّجَرِ، وَعَدَمُ تَخْرِيبِ الْبِنَاءِ؛ لِأَنَّ الْهَدَفَ مِنَ الْحَرْبِ لَيْسَ إِيذَاءُ الرَّعِيَةِ، وَلَكِنْ دَفْعُ أَذَى الرَّاعِي الظَّالِمِ، وَبِذَلِكَ وَرَدَتْ الْآثَارُ.

2 - أَنَّهُ إِذَا تَبَيَّنَ: أَنَّ قَطْعَ الشَّجَرِ، وَهَدْمَ الْبِنَاءِ تَوْجِبُهُ ضَرُورَةٌ حَرِيَّةٌ لَا مَنَاصَ مِنْهَا؛ كَأَن يَسْتَتِرَ الْعَدُوُّ بِهِ، وَيَتَّخِذَهُ وَسِيلَةً لِإِيذَاءِ جَيْشِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا مَنَاصَ مِنْ قَطْعِ الْأَشْجَارِ، وَهَدْمِ الْبِنَاءِ؛ عَلَى أَنَّهُ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْقِتَالِ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ (ﷺ) هُنَا، وَفِي حَصَنِ ثَقِيفٍ.

3 - أَنَّ كَلَامَ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ أَجَازُوا الْهَدْمَ، وَالْقَلْعَ يَجِبُ أَنْ يُخْرَجَ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الضَّرُورَاتِ، لَا عَلَى أَسَاسِ إِيذَاءِ الْعَدُوِّ، وَالْإِفْسَادِ الْمَجْرَدِ، فَالْعَدُوُّ لَيْسَ الشَّعْبُ، إِنَّمَا الْعَدُوُّ هُمُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ؛ لِيُقَاتِلُوا⁽⁴⁾.

نشاط:

استنتج دروساً أخرى من قصة غزوة بني النضير.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (274/1).

(2) انظر: تفسير الطبري (34/28).

(3) اللين: كل أنواع النخل، والواحدة: لينة.

(4) انظر: خاتم النبیین، للشيخ محمد أبو زهرة (265/2، 269).

المبحث الرابع

غزوة بني المصطلق

شعبان من السنة الخامسة للهجرة

أولاً: ما أسبابها، وأهم أحداثها؟

1- أسباب هذه الغزوة:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

أ - تأييد هذه القبيلة لقريش، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب - سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة⁽¹⁾.

ج - أنَّ الرِّسولَ (ﷺ) بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم فلماً سمع بهم خرج إليهم، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قُدَيْدٍ إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة⁽²⁾.

2 - أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله (ﷺ) بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي، للتأكُّد من نيَّتهم، وأظهر لهم بريدة: أنَّه جاء لعونهم، فتأكَّد من قصدهم، فأخبر الرِّسولَ (ﷺ) بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج

(1) انظر: صحيح البيهقي النَّبَوِيَّة، للعلي، ص 332.

(2) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرِّسول صلى الله عليه وسلم (315/1).

الرَّسُولَ (ﷺ) من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ⁽¹⁾، وثلاثين فارساً⁽²⁾ متوجّهاً إلى بني المصطلق، ولمّا كان بنو المصطلق ممّن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفّار في غزوة أُحُدٍ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاريُّ [2541]، ومسلمٌ [1730]: أنّ رسول الله (ﷺ) أغار عليهم، وهم غارئون - أي: غافلون - وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار⁽³⁾.

ثانياً: زواج رسول الله (ﷺ) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسّم رسول الله (ﷺ) سبايا بني المصطلق، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث، وكانت بركةً على قومها، ولنعرف قصّتها من السيّدة عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: لما قسم رسول الله (ﷺ) سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهمٍ لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عمّ له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأةً حلوةً مُلّاحةً⁽⁴⁾، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله (ﷺ) لتستعينه في كتابتها، قالت: فوالله! ما هو أن رأيته على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنّه سيرى منها ما رأيته، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقع في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عمّ له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟!

قال: «أقضي عنك كتابك، وأتزوّجك». قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنّ رسول الله (ﷺ) قد تزوّج جويرية بنت الحارث.

(1) انظر: تاريخ الإسلام، والمعازي، للدّهبي، ص 259.

(2) انظر: الواقدي (405/1).

(3) انظر: البيهقي التّبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 433.

(4) المّلّاحة: الشّديدة المّلّاحة، أي: الفاتقة الجمال.

فقال النَّاسُ: أصهار رسول الله (ﷺ) فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظمَ بركةً على قومها لها. [أحمد (277/6)، وأبو داود (3931)، وابن حبان (4054 و4055)، وابن هشام (307/3) - 308] (1).

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين (2).

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة آثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين، وكان يغلب عليهم التَّخَلُّفُ في الغزوات السَّابِقة، لكنَّهم لمَّا رأوا اطراد النَّصر للمسلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة (3).

وعند ماء المُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذِي يَضُمُّونَهُ للإسلام والمسلمين، فكَلَّمَا كَسَبَ الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبهم تتطَلَّع إلى اليوم الَّذِي يُهْزَم فيه المسلمون، لتشفى من الغلِّ، فلمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى آثارة العصبية بين المهاجرين، والأنصار، فلمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرِّسُول (ﷺ) في نفسه، وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسيةً مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتِي اختلقوها.

ويحكى شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاريُّ ما حدث عند ماء المريسيع، وأدَّى إلى كلام المنافقين لآثارة العصبية، وتمزيق وحدة المسلمين، قال: «كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ (4) رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله (ﷺ)، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله!

(1) انظر: البداية والنهاية (4/160، 161)، الإصابة، لابن حجر (كتاب النساء).

(2) انظر: الطَّبَقَات، لابن سعد (8/121)، وخليفة بن خياط، تاريخه، ص 234.

(3) انظر: حديث القرآن الكريم (1/318).

(4) كسع: ضربه برجله.

كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنها منتنة»، فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فبلغ النَّبِيَّ (ﷺ)، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النَّبِيُّ: «دعه، لا يتحدث الناس: أنَّ محمدًا يقتل أصحابه». [البخاري (3518)، ومسلم (63/2584)]⁽¹⁾.

أهمّ الدُّروس والعبر :

1 - الحفاظ على الشُّمعة السِّيَاسِيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخِلِيَّة:

وهذا الدَّرْس يظهر في قوله (ﷺ): «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمدًا يقتل أصحابه؟!» [سبق تخرجه] ⁽²⁾.

ولم يقف النَّبِيُّ (ﷺ) موقفاً سلبياً حيال تلك المؤامرة، الَّتِي تزعمها ابنُ سلولٍ لتصديق الصَّفِّ المسلم، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

أ - سار رسول الله (ﷺ) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى، وليلتهم حتَّى أصبح، وصدَّر يومهم الثَّاني حتَّى اذتَمَّ الشَّمْس، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً⁽³⁾. وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّيَاسة الرَّشيَّدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أبيّ.

ب - لم يواجه النَّبِيُّ (ﷺ) ابن سلولٍ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة، واستعمال السِّلَاح، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم.

وقد كان لتسامح الرَّسول (ﷺ) مع رأس المنافقين أبعْدُ الآثار فيما بعد، فقد كان ابنُ أبيّ بن سلولٍ كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذِينَ يُعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه.

(1) انظر: السِّيَرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة (409/2).

(2) انظر: السِّيَرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة (409/2).

(3) انظر: السِّيَرة النَّبَوِيَّة ، لأبي شُهبة (255/2).

2- مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله، ولسوله، وتقديم محبتهم، ومراضيهما على محبة، ومراضى الأبوة⁽¹⁾.

3 - محاربة العصبية الجاهلية:

إنَّ العصبية الممقوتة والتي نَصَفُها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية؛ أي: الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى، أو وصفٍ معيَّن يجعل المشركين فيه يتعاونون، ويتناصرون فيما بينهم بالحق، وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى، أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النبيُّ (ﷺ) فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النبيُّ (ﷺ): «دعوها؛ فإنها منتنة» [سبق تخرجه] ⁽²⁾.

ووجه الدلالة بهذا الخبر: أنَّ النبيَّ (ﷺ) أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية، مع أنَّ المنادي استعمل اسماً استعمله القرآن، وهو (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فالمهاجريُّ استنصر بالمهاجرين مع أنَّه هو الذي كسع، فكأنَّه بدائه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإياهم في معنى واحد، وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاريُّ استنصر بالأنصار؛ لأنَّه منهم، ويشترك وإياهم في وصفٍ واحدٍ ومعنى واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصار)؛ وكان حقَّ الاثنين - إذا كان لابدَّ من الاستنصار بالغير - أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها، سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أيِّ أساسٍ آخر، من بلدٍ، أو مذهبٍ، أو حزبٍ، أو عِرْقٍ، أو لونٍ، أو دمٍ، أو جنسٍ، وأن يكون الولاء، والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها،

(1) انظر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، محمد الصادق عرجون (163/3).

(2) انظر: البيرة النبوية الصحيحة (209/2).

وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحق، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي⁽¹⁾.

لقد أوضح الرسول (ﷺ): أَنَّ العصبية هي من دعاوى الجاهلية وقال: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً» فقال رجل لرسول الله (ﷺ): أنصره إذا كان مظلوماً أفأرى إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تجزه - أو تمنعه - من الظلم، فإن ذلك نصره»، [البخاري (6952)، والترمذي (2255)، وأحمد (201/3)]

فجعل التناصر في طلب الحق، والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهلي: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً»⁽²⁾.

إنَّ مهمَّة الدُّعاة، وطلاب العلم، والعلماء، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله (ﷺ)، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ، ولكنها ليست مستحيلةً، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النفوس⁽³⁾.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدُّعاة والدُّعاة (301/2 ، 302).

(2) انظر: البَيِّرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة (209/2).

(3) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدُّعاة والدُّعاة (302/2).

الفصل الثامن

غزوة الأحزاب (5 هـ)

المبحث الأول

تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما إن استقروا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتَّفقت كلمتهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الرِّبيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبي عمَّار⁽¹⁾.

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة، وفي السِّلَب، والنَّهب، وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ، وأنتم أولى بالحقِّ منه⁽²⁾.

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيةً الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ - أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا سِتَّة آلاف مقاتلٍ.

ب - أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ⁽¹⁾.

(1) انظر: البسيرة النَّبويَّة، لابن هشام (237/3).

(2) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص 310.

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرة ألف مقاتل؛ أربعة آلاف من قريش، وأحلافها، وستة آلاف من غطفان، وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب، ويرصد تحركاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولاً، ثم غطفان ثانياً، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول (ﷺ) في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين، والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناتج عن مساعي اليهود الخبيثة⁽²⁾، فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصدد عدوان الأحزاب، فأعجب النبي (ﷺ) بذلك، قال الواقدي رحمه الله: فقال سلمان: يا رسول الله! إننا إذا كنا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين⁽³⁾.

وعندما استقر الرأي - بعد المشاورة - على حفر الخندق تم اختيار موقع الخندق شمال المدينة لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو، والذي يستطيع منه دخول المدينة، وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم⁽⁴⁾ من جهة الشرق، وحرّة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت اطام بني قريظة

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص 141.

(2) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص 144 ، 145.

(3) انظر: مغازي الواقدي (444/2) ، والطبقات الكبرى (6/2) ، ومحمد صلى الله عليه وسلم: لمحمد رضا (حفر الخندق).

(4) هي حرّة المدينة الشرقية. انظر: معجم معالم الحجاز (283/2 ، 285).

في الجنوب الشرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول (ﷺ) وبنِي قريظة عهدٌ ألاّ يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدوًّا ضده (1).

وبهذا يكون الرسول (ﷺ) هو أوّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين. وقد كان استخدام الخندق من أهم عوامل تحقيق المفاجأة حيث قام بها المسلمون بأعلى درجات الإتقان والسرية وسرعة الإنجاز.

ثالثاً: اهتمام النبي (ﷺ) بالجبهة الدّاخلية:

1 - لمّا علم النّبي (ﷺ) بقدوم جيش الأحزاب، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين، ونسائهم، وصبيّانهم في حصن بني حارثة؛ حتّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك (ﷺ)؛ لأنّ حماية الدّراري، والنّساء، والصّبيان لها أثرٌ فعّالٌ على معنويات المقاتلين؛ لأنّ الجندي إذا اطمأنّ على زوجته، وأبنائه يكون مرتاح الصّميم، هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة، يُسحّر كل إمكانيّاته، وقدراته العقليّة، والجسديّة للإبداع في القتال.

2 - ومن الأمور الّتي أسهمت في تقوية، وتماسك الجبهة الدّاخلية مشاركةُ النبي (ﷺ) جنده أعباء العمل في حفر الخندق.

3 - وكان (ﷺ) يشارك الصّحابة رضي الله عنهم في آلامهم، وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمّة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنّه (ﷺ) كان يعاني ألم الجوع كغيره، بل أشدّ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشّريف من شدّة الجوع (2)، ثمّ إنّه (ﷺ) شاركهم في آلامهم، فحين وجد ما يسدّ رمقه بعد هذا الجوع الّذي استمر ثلاثاً، لم يستأثر بذلك دونهم.

(1) انظر: العبقريّة العسكريّة في غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلم، ص 442.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 116 ، 117.

4 - رفع معنويات الجنود وإدخال الشُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمّة، فقد كان الجو بارداً، والريّح شديدةً، والحالة المعيشية صعبةً، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقَّعون في كلّ لحظةٍ ولهذا نجد: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) كان يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل التُّراب:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا	وَتَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا	وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَمْدُ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا. [البخاري (4106)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ (ﷺ) كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا	عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقَيْنَا أَبَدًا
أَوْ قَالَ عَلَى الْجِهَادِ، وَالنَّبِيُّ (ﷺ) يَقُولُ:	
اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الْآخِرِ	فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِ

[البخاري (2834)، ومسلم (130/1805)].

لقد كان لهذا التَّبَسُّطِ، والمرح في ذلك الوقت أثره في التَّخْفِيفِ عن الصَّحَابَةِ ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروفِ الصَّعْبَةِ، الَّتِي يعيشونها، وكما كان له أثره في بعث الهِمَّةِ، والنَّشَاطِ، بإنجاز العمل الذي كُلفوا بإتمامه، قبل وصول عدوِّهم⁽¹⁾.

5 - تقدير ظروف الجند، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم على قدرٍ كبيرٍ من الأدب مع النَّبِيِّ (ﷺ)، فكانوا يستأذنونهم في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورةٌ، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبةً في الخير، واحتساباً له، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرُّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص 482.

جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا
اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ [النور: 62].

6 - تقسيم الصَّحابة إلى دورياتٍ للحراسة: قسم النَّبِيُّ (ﷺ) أصحابه إلى مجموعاتٍ للحراسة، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق، وحراسة نبيِّهم (ﷺ)، واستطاعوا أن يصدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشركون شنَّه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً، وقيادةً، حتَّى إنَّهم استمروا ذات يوم من السَّحر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني، ويفوت المسلمين الصَّلواتُ الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع عليُّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّحابة أن يصدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ، بل تصدَّى عليُّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ، وقتله⁽¹⁾، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النَّبِيِّ (ﷺ) في كلِّ ليلةٍ على رأسهم عبَّاد بن بشرٍ رضي الله عنه.

استخرج من أحداث غزوة الأحزاب الصفات القيادية التي تمثلها النبي

نشاط:

عليه السلام.

(1) انظر: فقه البتيرة، لمنير الغضبان، ص 504.

وانظر: البداية والنهاية (فصل: نزول قريش بمجتمع الأسبال يوم الخندق)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين، وراجع: الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر.

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما:

أولاً: نَقْضُ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قَرِظَةَ الْعَهْدِ، وَمَحَاوَلَةُ ضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأنَّ قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول (ﷺ) يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم، ولا ذمَّة، ولذلك انتدب النبي (ﷺ) الزبير بن العوام «رجل المهمَّات الصَّعبة» ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزُّبير، فنظر ثمَّ رجع، فقال: يا رسول الله! رأيتهم يصلحون حصونهم، ويُدْرِبُونَ⁽¹⁾ طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم⁽²⁾.

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد؛ أرسل رسول الله (ﷺ) سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وعبد الله بن رواحة، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم، وقال لهم: انطلقوا حتَّى تنظروا: أحقُّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم، أم لا؟ فإن كان حقًّا؛ فالحنوا لي لحناً⁽³⁾ أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أَعْضَادِ النَّاسِ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا بهللنَّاس. [ابن هشام (232/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (429/3)]⁽⁴⁾.

(1) يُدْرِبُونَ طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين.

(2) انظر: مغازي الواقدي (457/2).

(3) لحناً: أي: كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي.

(4) انظر: البشيرة النَّبَوِيَّة، لابن كثير (199/3)، والقرطبي، تفسير آية (9) من سورة الأحزاب، والطَّبْرِي، والبداية والنهاية، لابن كثير (فصل: في

فخرجوا حتّى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فرجعوا، فسلموا على النّبيّ (ﷺ)، وقالوا: عضلٌ والقارة⁽¹⁾، فعرف النّبيّ (ﷺ) مرادهم⁽²⁾.

واستقبل النّبيّ (ﷺ) غدر بني قريظة بالثّبات، والحزم، واستخدم كلّ الوسائل الّتي من شأنها أن تقوّي روح المؤمنين، وتصدّع جبهات المعتدين، فأرسل النّبيّ (ﷺ) في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمّلة تماًراً، وشعيراً، وتيناً؛ لتمدّهم بها، وتقويهم على البقاء، إلّا أنّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النّبيّ (ﷺ)⁽³⁾.

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتدّ الكرب على المسلمين، وتأزّم الموقف، وقد تحدّث القرآن الكريم عن حالة الحرج، والتدهور، الّتي أصابت المسلمين، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع، وخوف، وفزع في تلك المحنة الرّهيبية أصدق وصف، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: 10، 11].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قوياً، وقد سجّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

وأما المنافقون؛ فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتّى قال مُعَتِّب بن قُشير أخو بني

نزل قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).

(1) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم في ذات الرّجيع.

(2) انظر: البداية والنهاية (4/95)، والسيرة النبويّة، لابن هشام (غزوة الخندق).

(3) انظر: السيرة الحلبية (2/323).

عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجن، والإرجافوتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية، والإرجاف، والتخذيل⁽¹⁾.

ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير⁽²⁾، والآيات هي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب: 13-20].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصبح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مئتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات استشهاد فيها الطفيل

(1) انظر: المعجم الكبير للطبراني (376/11)، ومجمع الزوائد (131/6).

(2) انظر: البيرة النبوية الصحيحة (424/2).

بن النُّعْمان، والذي قتله وحشيٌّ - قاتل حمزة يوم أحدٍ - رماه بحربةٍ عبر الخندق، فأصابته منه مقتلًا⁽¹⁾، واستطاع حَبَّان بن العَرِقة، من المشركين أن يرمي سهمًا أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله⁽²⁾، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقيني لها، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ اذوا رسولك، وكذبوه، وأخرجوه. اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني من بني قريظة. [أحمد (141/6 - 142)، وابن حبان (7028)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ (ﷺ) تخفيف حدة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

1 - سياسة النَّبيِّ (ﷺ) في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته (ﷺ) وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته، وترجع إلى بلادها، فهو يعلم (ﷺ): أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها وأهمُّ البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ - عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.
ب - توادع غطفان المسلمين، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدهم (وخاصَّة في هذه الفترة).

ج - تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرُّسول صلى الله عليه وسلم (424/2).

(2) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة، إذا قطع لم يرقأ الدم.

د - يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلّها من مختلف الأنواع، ويظهر: أن ذلك لسنة واحدة⁽¹⁾.

وقد أبرز (ﷺ) في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النبوة في التحرك لفكّ الأزمات عند استحكامها، وتأزمها؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء⁽²⁾، وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله (ﷺ) الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة، وقال السعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد: يا رسول الله! أمراً تحبّه، فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيءٌ أصنعه لكم، والله! ما أصنع ذلك إلا لأبيّ رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم - أي: اشتدوا عليكم - من كلّ جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنّا وهؤلاء على الشّرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرئ - أي: الطّعام الذي يُصنع للضيّف - أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السيّف، حتّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النّبي (ﷺ): «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصّحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليُجهدوا علينا. [ابن هشام (234/3)]⁽³⁾.

كان رد زعيمى الأنصار: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد في غاية الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النّبي (ﷺ) وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضات مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى، فلا مجال لإبداء الرّأي بل لا بدّ من التّسليم، والرّضا.

(1) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد باشبيل ، ص 201 ، 202.

(2) انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (176/4).

(3) انظر: البداية والنهاية (106/4).

والثاني: أن يكون شيئاً يحبه رسول الله (ﷺ)، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدّم، وله الطاعة في ذلك.

الثالث: أن يكون شيئاً عمله الرسول (ﷺ) لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

ولمّا تبين للسّعديين من جواب الرسول (ﷺ): أنّه أراد القسم الثالث: أجاب سعد بن معاذ بجوابٍ قويٍّ، كبت به زعيمى غطفان، حيث بيّن أنّ الأنصار لم يذلّوا لأولئك المعتدين في الجاهليّة؛ فكيف وقد أعزّهم الله تعالى بالإسلام؟! وقد أعجب النبي (ﷺ) بجواب سعدٍ، وتبيّن له منه ارتفاع معنويّة الأنصار، واحتفاظهم بالروح المعنويّة العالية، فألغى بذلك ما بدأ من الصّلح مع غطفان⁽¹⁾.

وفي قوله (ﷺ): «إني قد علمت: أنّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» [الطبراني في الكبير (5409)، وابن هشام (234/3)، ومجمع الزوائد (131/6)]⁽²⁾.

دليلٌ على أنّ رسول الله (ﷺ) كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفّاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدّة أمورٍ، منها:

- أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.
- أن يكون الهدف الاستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى، والشورى، والمصلحة الانيّة، والمستقبلية للإسلام⁽³⁾.

(1) انظر: التّاريخ الإسلامي، للحميدي (125/6).

(2) انظر: البداية والنهاية (106/4).

(3) انظر: الأساس في السُّنة (687/2).

وفي استشارة رسول الله (ﷺ) للصحابة يتبين لنا أسلوبه في القيادة، وحرصه على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى، ولا ينفرد به فردٌ حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله (ﷺ) ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد، ولم ينزل به وحياً⁽¹⁾.

إن قبول الرسول (ﷺ) رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة؛ حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي (ﷺ) مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة⁽²⁾.

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ - أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب - أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصاهاهم بالله ورسوله (ﷺ) وبالإسلام.

ج - أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه⁽³⁾.

2 - اهتمام الرسول (ﷺ) بث الإشاعات في صفوف الأعداء:

استخدم النبي (ﷺ) سلاح التشكيك والدعاية لتمييز ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم (ﷺ) أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى - عز وجل - نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله (ﷺ) ليعلن إسلامه ويقول له: يا رسول الله، إن

(1) انظر: العبقريّة العسكرية في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 414.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 414.

(3) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 415، 416.

قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال له رسول الله (ﷺ): إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة. [ابن هشام (240/3)، والبيهقي في دلائل النبوة (445/3)-] (1).

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله (ﷺ)، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنحالا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة (2).

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرس روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتثبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ - أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصيح.

ب - أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول (ﷺ)، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج - أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتف كل طرف بما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب (3).

* * *

(1) انظر: البداية والنهاية (113/4).

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (430/2).

(3) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 477.

المبحث الثالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدة تضرع الرسول (ﷺ) ونزول النصر:

جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى، قال: دعا رسول الله (ﷺ) على الأحزاب، فقال: «اللهم! منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب، اللهم! اهزمهم، وزلزلهم». [البخاري (2933)، ومسلم (1742/ 20 و21)].

فاستجاب الله - سبحانه - دعاء نبيه (ﷺ) فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم، وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

قال القرطبي - رحمه الله - : وكانت هذه الريح معجزة للنبي (ﷺ)؛ لأن النبي (ﷺ)، والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم بها...، بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط⁽¹⁾، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضُها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتى كان سيّد كلّ خباء يقول: يا بني فلان! هلمّ إليّ، فإذا اجتمعوا؛ قال لهم: النجاء، النجاء! لما بعث الله عليهم الرعب⁽²⁾.

وحرص الرسول (ﷺ) أن يؤكّد لصحبه، ثمّ للمسلمين في الأرض: أنّ هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة الاف مقاتل لم تُهزم بالقتال من المسلمين - رغم تضحياتهم - ولم تهزم بعقوبة

(1) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية في السفر، وهو دون السرادق.

(2) انظر: تفسير القرطبي (14/144)، وجامع البيان للطبري (تفسير سورة الأحزاب).

المواجهة، إِنَّمَا هُزِمَتْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدُهُ، وَنَصْرُ عَبْدِهِ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ». [البخاري (4114)، ومسلم (2724)].

ودعاء رسول الله (ﷺ) رَبِّهِ، واعتماده عليه وَحْدَهُ، لَا يَتَنَاقَضُ أَبَدًا مَعَ التَّمَاسِ الْأَسْبَابِ الْبَشَرِيَّةِ لِلنَّصْرِ، فَقَدْ تَعَامَلَ (ﷺ) فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ مَعَ سُنَّةِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، فَبَذَلَ جُودَهُ لِتَفْرِيقِ الْأَحْزَابِ، وَفَكَ الْحَصَارَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا⁽¹⁾.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَعْلَمُنَا سُنَّةَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَضُرُورَةَ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادِيَّةِ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا تَجْدِي وَسَائِلُ الْقُوَّةِ كُلُّهَا إِذَا لَمْ تَتَوَفَّرْ وَسِيلَةُ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِكْتِسَارِ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالْدُّعَاءِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ، فَقَدْ كَانَ الدُّعَاءُ وَالتَّضَرُّعُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَكَرِّرَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي فَرَعَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا⁽²⁾.

ثَانِيًا: تَحْرِيقُ انْصِرَافِ الْأَحْزَابِ:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَتَابِعُ أَمْرَ الْأَحْزَابِ، وَيَحِبُّ أَنْ يَتَحَرَّى عَمَّا حَدَثَ عَنْ قَرَبٍ فَقَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» [مسلم (1788)]، فَاسْتَعْمَلَ (ﷺ) أَسْلُوبَ التَّرْغِيبِ، وَكَرَّرَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَعِنْدَمَا لَمْ يُجِدْ هَذَا الْأَسْلُوبَ لَجَأَ إِلَى أَسْلُوبِ الْجَزْمِ، وَالْحَزْمِ فِي الْأَمْرِ، فَعَيَّنَ وَاحِدًا بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حَذِيفَةَ! فَاتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ» [مسلم (1788)].

وَفِي هَذَا مَعْنَى تَرْبُؤِيٍّ وَهُوَ أَنَّ الْقِيَادَةَ النَّاجِحَةَ هِيَ الَّتِي تُوَجِّهُ جُنُودَهَا إِلَى أَهْدَافِهَا عَنْ طَرِيقِ التَّرْغِيبِ، وَالتَّشْجِيعِ، وَلَا تَلْجَأُ إِلَى الْأَمْرِ، وَالْحَزْمِ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ.

(1) انظر: فقه البيرة النبوية، للغضبان، ص 503.

(2) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 222.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنما أمشي في حمّام، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنّار - أي: يدفعه، ويدنيه منها - فوضعت سهماً في كبد القوس، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله (ﷺ): «لا تدعهم علي»، ولو رميته لأصبت، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمّام، فأتيت رسول الله (ﷺ)، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله (ﷺ)، وألبسني فضل عبّاءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتّى أصبحت، فلمّا أصبحت، قال رسول الله (ﷺ): «قم يا نومان!». [مسلم (1788)].

ويؤخذ من قصّة حذيفة دروس، وعبرٌ منها:

- 1 - معرفة رسول الله (ﷺ) بمعادن الرجال.
- 2 - الانضباط العسكري الذي كان يتحلّى به حذيفة.
- 3 - كرامات الأولياء: إنّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوّ باردٍ ماطرٍ شديد الرّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوّ البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمّام، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقاءه بين الأحزاب وحتّى عودته إلى معسكر المسلمين، لاشك هذه كرامةٌ يمنّها الله بها على عباده المؤمنين⁽¹⁾.
- 4 - لطف النّبي (ﷺ) مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان (ﷺ) يترفّق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة اللّيل، وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمّها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه؛ ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتّى أتمّ صلاته، بل حتّى بعد أن أفضى إليه بالمهمّة، فلمّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ، وخفّة، ودُعاة، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعاة تقطر حلاوةً، وتفيض بالحنان، وتسيل رقةً، إنّها صورةٌ نموذجيّةٌ للرّافة، والرّحمة، اللّتين تحلّي بهما فؤاد الرّسول (ﷺ)، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام⁽²⁾.

(1) انظر: البشيرة النبويّة، لأبي فارس، ص 367.

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص 246.

5 - وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزُّرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي عليلد الَّذي على يميني، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص....⁽¹⁾.

وهكذا بدَّرهم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه، وبهذا تخلَّص من هذا المأزق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته⁽²⁾.

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب، ونتائجها:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه، وقد سجَّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب، وبني قريظة، والقرآن كعهدنا به يُسجِّل الخالدات الَّتِي تسع الزَّمان، والمكان، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم، في عواصم بلدانهم، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً، فإذا كان القرآن قد سجل حادثتي الأحزاب، وبني قريظة، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور⁽³⁾؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتِي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، والَّذي يتدبَّر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ، من أهمِّها ما يلي:

1 - تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

(1) انظر: شرح الزُّرقاني (120/2).

(2) انظر: من معين البَيِّرة ، ص 293.

(3) انظر: الأساس في السُّنَّة (662/2).

2 - التّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿وَإِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10].

3 - الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

4 - حضّ المؤمنين في كلّ زمانٍ، ومكانٍ على التّأسي برسول الله (ﷺ)، في أقواله، وأفعاله، وجهاده، وكلّ أحواله، استجابةً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

5 - مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ، ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

6 - بيان سنّة من سنن الله الّتي لا تتخلّف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25].

7 - امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعّة بدون قتالٍ يُذكر، حيث ألقى - سبحانه - الرّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله، ورسوله (ﷺ)⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 26 - 27].

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلم (490/2 ، 491).

8- وقد نزلت عقب غزوة الاحزاب اية الحجاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59]. والاية واضحة في بيان فرضية الحجاب على ازواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ونساء المؤمنين

شروط لباس المرأة المسلمة :

أولاً: لا بد أن يكون فضفاضاً سابغاً لكل الجسد، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].
الشرط الثاني: ألا يكون زينة في نفسه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

الشرط الثالث: ألا يصف ما تحته، وألا يحد العضو ولا يحجمه.

الشرط الرابع: ألا ترتدي ثوباً خاصاً بالرجال، ولا فيه تشبه بالكافرات.

رابعاً: التَّخْلُصُ مِنْ بَنِي قَرِيطَةَ:

بعد عودة النبي (ﷺ) من الخندق، ووضعه السِّلَاح أمر الله تعالى نبيّه (ﷺ) بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب (ﷺ) أصحابه بالتوجه إليهم، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل؛ ليزلزل حصونهم، ويقذف في قلوبهم الرُّعب، وأوصاهم بأن «لا يصلينَّ أحدُ العصر إلا في بني قريظة» [البخاري (4119)، ومسلم (1770)].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلة⁽¹⁾، ولمَّا اشتدَّ الحصار، وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسُولُ (ﷺ) فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، ونزلوا على حكمه، ورأوا: أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين

(1) انظر: صحيح البيهقي النبوي، ص 373.

قومه الأوس، فجيء بسعدٍ محمولاً؛ لأنه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والدُّرَيْتَةُ، وأن تُقسم أموالهم، فأقرّه رسول الله (ﷺ) وقال: «قضيت بحكم الله» [البخاري (3043 و4122)، ومسلم (64/1768)].

ونفَّذَ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة، حيث حفرت أخاديد، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جداً بسبب وفائها للعهد، ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم، وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر، وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنَّهب، ونساءهم، وذراريهم للسَّبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً⁽¹⁾.

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهودي، وصارت خالصةً للمسلمين، وخلت الجبهة الداخليّة من عنصرٍ خطيرٍ، لديه القدرة على المؤامرة، والكيد، والمكر، واضمحل حلم قريش؛ لأنّها كانت تعوّل، وتوكل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدّ المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوّة⁽²⁾.

إنّ حماية الجبهة الداخليّة للدولة الإسلاميّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، رسمه الحبيب المصطفى (ﷺ) للأمة المسلمة.

لقد كانت غزوة الأحزاب (وما حل ببني قريظة) من الغزوات المهمّة التي خاضها المسلمون ضدّ أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمّة منها:

❖ انتصار المسلمين، وانهمزام أعدائهم، وتفرُّقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم، قد خابت أمانيتهم، وأمالهم.

(1) انظر: السيرة النبويّة الصّحيحة (1/315، 316، 317).

(2) انظر: سيرة الرّسول صلى الله عليه وسلم، دروزة (2/76) نقلاً عن دراسات في عهد النبوة، للشجاع، ص 153.

❖ غير الموقف لصالح المسلمين؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي (ﷺ) حيث قال: «الآن نغزوهم، ولا يَغزوننا، نحن نسير إليهم». [البخاري (4110)، وأحمد (262/4، و394/6)].

❖ كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة، وحقدتهم على المسلمين، وترئص الدَّوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي (ﷺ) في أحلك الظروف، وأصعبها.

❖ كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين، وحقيقة المنافقين، وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين، وإظهاراً لحقيقة المنافقين، واليهود. كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي (ﷺ) في أحلك الظروف، وأقساها⁽¹⁾.

❖ يظهر في هذه الغزوة أهمية بناء الشخصية الإسلامية فقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه مثالاً للتربية النبوية في حكمه على يهود بني قريظة بما يريد الله تعالى وهنا تظهر أهمية بناء رجال الدولة.

نشاط:

استنتج أهم العبر والدروس المستفادة من غزوة الأحزاب.

(1) المصدر السابق نفسه (442/2).

الفصل التاسع

ما بين غزوة الأحزاب، والحديبية من أحداثٍ مهمّة

المبحث الأول

«الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»

[البخاري (4110)، وأحمد (262/4)].

كان (ﷺ) يعمل حساب كلّ القوى المجاورة، ولا يغفل عن أيّ قوّة منها، وقد صرّح بعد غزوة الخندق بأنّ الخطّة القادمة هي غزو قريش؛ فقد تغيرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر من قبل، فسعى (ﷺ) لبسط سيادة الدّولة على ما تبقي من قوى حول المدينة؛ لأنّ ذلك له صلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقّة، فقد قام (ﷺ) خلال عامٍ واحدٍ - العام السّادس - بغزوتين، وأرسل أربع عشرة سرّيّة، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري، وهذه الأعمال والتّحرّكات قصد منها المزيد من إنْهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليل أظفارها من خلال اقتطاع كلّ ما يمدّها بالقوّة من حلفائها⁽¹⁾.

أولاً: سرّيّة محمّد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النّجدية من أجراً العناصر البدويّة الوثنيّة على المسلمين؛ لأنّ النّجديين أهل قوّة، وبأس، وعددٍ غامر، وقد رأينا كيف أنّ العمود الفقريّ لقوّة الأحزاب الضّاربة كان من هذه القبائل النّجدية؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشّراسة يشكّلون الأغلبية السّاحقة من تلك القوّة الضّاربة، ستة الاف مقاتل من غطفان، وأشجع، وأسلم، وفزارة، وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصروهم أهل المدينة.

ولهذا فإنّ أوّل حملةٍ عسكريّةٍ وجهها النّبي (ﷺ) لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي

(1) انظر: دراسات في عهد النّبوة، للشّجاع، ص 139.

تلك الحملة التي جرّدها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب؛ الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية⁽¹⁾ على مسافة سبع ليالٍ من المدينة، ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجّه (ﷺ)⁽²⁾ سريةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشنّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة (6 هـ)⁽³⁾، وقد داهمهم على حين غرة، فقتلوا منهم عشرة، وفرّ الباقيون، وغنم المسلمون إبلهم، وماشييتهم، وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفيّ سيّد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي (ﷺ)، فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني، تقتل ذا دم، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكِرٍ، وإن كنت تريد المال؛ فسَل منه ما شئت . فتركه حتّى كان الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إن تُنعم؛ تُنعم على شاكِرٍ.

فتركه حتّى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل، ثمّ دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسولُ الله، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدّين إليّ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد إليّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسولُ الله (ﷺ)، وأمره أن يعتمر. فلمّا قدم مكّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكيّ أسلمت مع محمّدٍ رسول الله (ﷺ)، ولا والله لا يأتِيكم من الإمامة حَبّةُ حنطةٍ حتّى يأذن فيها النبي (ﷺ) [البخاري (462)، ومسلم (59/1764)]⁽⁴⁾.

(1) قرية عامرة قديمة على وجه الدّهر في طريق مكّة من البصرة من نجد.

(2) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 24.

(3) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي، المغازي، ص 351.

(4) انظر: نضرة النعيم (330/1).

وقد برّ بقسمه ممّا دفع وجوه مكّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله (ﷺ) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمّامة ليخلّي لهم حمل الطّعام⁽¹⁾، فاستجاب النّبي (ﷺ) لرجاء قومه بالرّغم من أنه في حالة حربٍ معهم، وكتب إلى سيّد بني حنيفة ثُمّامة: «أن حلّ بين قومي وبين ميرتهم». فامتثل ثُمّامة أمر نبيّه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكّة، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة⁽²⁾.

وفي هذه القصّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 - جواز ربط الكافر في المسجد.

2 - جواز المنّ على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأنّ ثُمّامة أقسم: أنّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ، لما أسداه النّبي (ﷺ) إليه من العفو والمنّ بغير مقابل.

3 - الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمّامة حين أسلم.

4 - الإحسان يُزيل البُغض، ويُنبت الحُبّ.

5 - يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمّ أسلم أن يستمرّ في عمل ذلك الخير.

6 - الملاحظة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام، ولا سيّما من يتبعه على إسلامه العددُ الكثيرُ من قومه⁽³⁾.

7 - الإسلام يُغيّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين، كما فعل ثُمّامة بعدم إرساله القمح لأهل مكّة إلا بإذنٍ من الرّسول (ﷺ).

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: البشيرة الحلبية (298/2)، والاستيعاب، لابن عبد البر: ترجمة ثُمّامة بن أثال الحنفي.

(3) انظر: صحيح البشيرة النبوية، ص 386، 387.

8 - ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السابقة، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه⁽¹⁾.

ثانياً: سرِّيَّة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سرِّيَّة أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ (ﷺ) العسكريَّة لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديًّا على المدى الطَّويل، فقد بعث (ﷺ) أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل؛ ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجمع، فكان قَدَر مَزَوْد تمرٍ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرَّة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ، أو ضجرٍ، بل إنَّهم ساهموا في خَطَّة قائدهم التَّقشُّفِيَّة، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ⁽²⁾، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه السَّرِّيَّة: (كُنَّا نَمصُّها كما يَمصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى اللَّيل)⁽³⁾، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرَّة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ. [البخاري (4360)، ومسلم (18/1935)].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر، قال جابر رضي الله عنه: وكُنَّا نضرب بعصيّنا الحَبْط⁽⁴⁾، ثُمَّ نبلِّه بالماء، فنأكله⁽⁵⁾، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الحَبْط»⁽⁶⁾، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادَة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّرِّيَّة الشُّجاعَة، وهو

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 387.

(2) انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص 118.

(3) مسلم شرح النووي (84/13) ، باب: إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب: (في دواب البحر).

(4) الحَبْط: ضرب الشجر بالعصا لينثر ورقها ، واسم الورق الساقط: حَبْط.

(5) شرح النووي (84/31).

(6) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (4361).

رجلٌ من أهل بيت اشتهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر⁽¹⁾، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إنَّ أبا عبيدة نَماه. [البخاري (4361)، ومسلم (19/1935)].

فبينما هم كذلك من الجوع، والجهد الشديدين، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً، فألقاه على الشاطئ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب، فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكتيب الضخم⁽²⁾، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر⁽³⁾، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ، ثمَّ قال: لا، بل نحن رسل رسول الله (ﷺ) وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلُّوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتَّى سَمِئنا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب⁽⁴⁾ عينيه بالقِلال⁽⁵⁾ الدُّهن، ونقتطع منه الْفِدْر⁽⁶⁾ كالثَّور، أو قدر الثَّور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثمَّ رَحَّلَ أعظمَ بعيرٍ منا، فمرَّ من تحتها⁽⁷⁾ وتزوَّدنا من لحمه وشائق، فلمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله (ﷺ)⁽⁸⁾، فقال: «ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدَّابة⁽⁹⁾، فقال: «هو رزقٌ أخرجهُ الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله (ﷺ) منه، فأكله. [البخاري (4362)، ومسلم (17/1435)]⁽¹⁰⁾.

كانت هذه السَّريَّة على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر

(1) جمع جزور ، والجزور: البعير ، أو خاص بالناقة.

(2) الكتيب: التل من الرمل.

(3) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.

(4) الوقب: الثَّغرة التي تكون فيها العين.

(5) القلال: جمع قُلَّة ، وهي الجُرَّة العظيمة.

(6) الفدر: جمع فدره وهي القطعة من اللحم.

(7) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبَوِّية ، ص 121.

(8) انظر: شرح النَّووي (85/13 . 87).

(9) صحيح سنن النسائي ، للألباني رحمه الله (910/3).

(10) شرح النَّووي (87/13).

ابن سعد⁽¹⁾، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أَنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) لم يَغْزُ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام، والثَّاني: أَنَّ رَجَبَ سَنَةِ ثَمَانٍ هُوَ ضَمَنُ فَتْرَةِ سَرِيَانِ صَلَاحِ الْحَدِيثِ⁽²⁾.

وذكر ابن سعد، والواقدي⁽³⁾: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) بعثهم إلى حَيٍّ من جهينة، وقال ابن حجر⁽⁴⁾: إِنَّ هَذَا لَا يَغَايِرُ ظَاهِرَهُ مَا فِي الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِهِمْ يَتَلَقَّوْنَ عِيْرًا لِقَرِيْشٍ، وَيَقْصِدُونَ حَيًّا مِنْ جُهَيْنَةَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَلْقِيَهُمْ لِلْعِيْرِ لَيْسَ لِمَحَارِبَتِهِمْ، بَلْ لِحَفْظِهِمْ مِنْ جُهَيْنَةَ، وَيَقْوِي هَذَا الْجَمْعُ مَا عِنْدَ مُسْلِمٍ، أَنَّ الْبَعْثَ كَانَ إِلَى أَرْضِ جُهَيْنَةَ [مسلم (21/1935)]⁽⁵⁾.

وفي هذه القصة دروس، وعبر؛ منها:

1 - حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درسٌ تعلّمه من رسول الله (ﷺ) عملياً أكثر من مرّة.

2 - كرم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، ففي رواية الواقدي: أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَدَانَ هَذِهِ التُّوْقَ مِنْ رَجُلٍ جُهَيْنِيٍّ، وَأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَهَاةً قَائِلًا: تَرِيدُ أَنْ تَخْفِرَ ذِمَّتَكَ، وَلَا مَالَ لَكَ⁽⁶⁾، فَأَرَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ الرِّفْقَ بِهِ⁽⁷⁾.

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر، وينحر حتّى نَهَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ، فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! أَتَرَى أَنَّ أَبَا ثَابِتٍ يَقْضِي دِيُونَ النَّاسِ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ، وَيَطْعَمُ فِي الْمَجَاعَةِ، لَا يَقْضِي عَنِّي تَمَرِ الْقَوْمِ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ⁽⁸⁾، وَقَالَ ذَلِكَ قَيْسٌ لِأَبِي عُبَيْدَةَ لِأَنَّهُ قَدْ اتَّفَقَ مَعَ رَجُلٍ مِنْ

(1) انظر: الطبقات ، لابن سعد (132/2) ، والمغازي ، للدَّهْلِيِّ ، ص 519.

(2) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص 125.

(3) انظر: المغازي (774/2) ، والسيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية ، ص 480.

(4) انظر: السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية ، ص 480.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) انظر: من معين البتيرة ، ص 323 ، والسرايا والبعوث النبوية ، ص 119.

(7) انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص 119.

(8) انظر: من معين البتيرة ، ص 323 نقلاً عن الرُّقَانِي فِي شَرْحِهِ (282/2).

جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمرًا بالمدينة، وقد وافق الجهني على تلك الصفقة.

عندما علم سعد بن عباد بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة: أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَدُّ منه خمسون وسقاً⁽¹⁾.

3 - الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّريَّة بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التَّمرة الواحدة طعامَ الرَّجل طوال يومٍ كاملٍ في سفرٍ، ومشقةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر، وأكل الخبط على الجهني - الَّذي اشترى منه قيس - أو على قومه، فما يخطر بفرعهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم - في جملة ما حفظ - وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين⁽²⁾.

4 - جواز أكل ميتة البحر:

وتدلُّ القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنَّها لم تدخل في قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3].

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: 96].

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 324.

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وعبد الله بن عباسٍ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم:
(أنَّ صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً، وموقوفاً: (أُحِلَّتْ لنا ميتتان، ودمان: فأَمَّا الميتتان؛
فالسَّمك، والجراد، وأَمَّا الدَّمان؛ فالكبد، والطِّحال) [أحمد (97/2)، وابن ماجه (3218)، والدارقطني
(271/4 و272)]

حديثٌ حسنٌ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قولاً للصَّحابي: (أُحِلَّ لنا كذا، وحُرِّمَ
علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيِّ (ﷺ) وتحريمه⁽¹⁾، كما أنَّ في أكل الرَّسول (ﷺ) من لحم الحوت
الَّذي تغدَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر⁽²⁾، كما يستحبُّ للمفتي
أن يتعاطى بعض المباحات الَّتِي يشكُّ فيها المستفتي؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي، وكان
فيه طمأنينةٌ للمستفتي، قاله النَّوويُّ⁽³⁾.

5 - بعض الأحكام الَّتِي ذكرها الإمام النَّوويُّ:

قال النَّوويُّ: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب، واغتيالهم، والخروج لأخذ ما لهم،
واغتنامه، وأنَّ الجيوش لا بدَّ لها من أميرٍ يضبطها، وينقادون لأمره، ونهيهِ، وأنَّه ينبغي أن يكون
الأمير أفضلهم، أو من أفضلهم، قالوا: ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس، وإن قُلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم
عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط
أزوادهم، ليكون أبرك، وأحسن في العشرة وألاً يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ، والله أعلم⁽⁴⁾.

(1) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص 123.

(2) انظر: السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص 480.

(3) شرح النَّوويِّ على مسلم (86/13).

(4) المصدر السابق نفسه (86/13).

ثالثاً: غزوة بني لحيان:

بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وahan الوقت لتأديب بني لحيان - الذين غدروا بحبيب، وأصحابه يوم الرِّجيع - وأخذ ثار الشهداء، فخرج إليهم في مئتي صحابيٍّ، في ربيعِ الأوَّل، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة⁽¹⁾.

أ - تضليل العدو:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال، وهي مسافةٌ بعيدة، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها، ولكنَّ النَّبيَّ (ﷺ) كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الذين استشهدوا (عَدِراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة التي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النَّبيِّ (ﷺ) في تضليل العدوِّ الذي يريد مهاجمته، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النَّبيُّ (ﷺ) قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتَّجه بهم متوجِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً... في حركةٍ تمويهيةٍ - على العدوِّ - بارعةٍ.

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصبّاً نحو الجنوب⁽²⁾.

(1) انظر: البيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصلية، ص 468.

(2) انظر: صلح الحديبية، لباثميل، ص 34، 35.

ب - فرار اللّحيانيّين قبل وصول النّبيّ (ﷺ):

كانت بنو لحيان على غاية التّيقّظ، والانتباه، فقد بثّت الأرصاد، والجواسيس في الطُّرق ليتحسّسوا لها، ويتجسّسوا لذلك، فما كاد النّبيّ (ﷺ) يقترب بجيشه من منازلهم حتّى انسحبوا منها فارّين، وهربوا إلى رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيوئهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولمّا وصل النّبيّ (ﷺ) بجيشه عسكر في ديارهم، ثمّ بثّ السّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرّون عليه، واستمرّت السّرايا النّبويّة في البحث والمطاردة يومين كاملين، إلا أنّها لم تجد أيّ أثرٍ لهذه القبائل التي تمتعت في رؤوس تلك الجبال الشّاهقة، وأقام (ﷺ) في ديارهم يومين لإرهابهم، وتحديهم، وليظهر للأعداء مدى قوّة المسلمين، وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة، حتّى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا⁽¹⁾.

ج - إرهاب المشركين بمكّة:

رأى النّبيّ (ﷺ) أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكّة، فقرّر أن يقوم بمناورة عسكريّة يرهّب بها المشركين في مكّة، فتحرك بجيشه حتّى نزل به وادي عسفان⁽²⁾، وهناك استدعى أبا بكر الصّدّيق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه، وأمره بأن يتحرّك بهم نحو مكّة ليثّ الدُّعر، والفرع في نفوسهم، فأجّجه الصّدّيق بالفرسان العشرة نحو مكّة حتّى وصل بهم كراع الغميم⁽³⁾، وهو مكان قريب جداً من مكّة، فسمعت قريش بذلك، فظنّت: أنّ النّبيّ (ﷺ) ينوي غزوها، فانتابها الخوف، والفرع، والرُّعب، وساد صفوفها الدُّعر، هذا هو الذي هدف إليه النّبيّ (ﷺ) بهذه الحركة التي كلّف الصّدّيق أن يقوم بها.

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 36.

(2) عسفان: قرية بين مكّة والمدينة على نحو يومين من مكّة.

(3) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكّة والمدينة ، وهو وادٍ.

أَمَّا الصِّدِّيقُ وَفِرْسَانُهُ الْعَشْرَةُ فَبَعْدَ أَنْ وَصَلُوا كُرَاعَ الْغَمِيمِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَحْدَثُوا الدُّعْرَ،
وَالْفَزْعَ فِي نَفُوسِ أَهْلِ مَكَّةَ عَادُوا سَالِمِينَ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ)، فَتَحَرَّكَ بِجَيْشِهِ عَائِداً إِلَى الْمَدِينَةِ. [الواقدي
(535/2 - 536)، وابن سعد (78/2 - 80)، والطبري في تاريخه (595/2)]⁽¹⁾.

د - التَّرحُّمُ عَلَى الشُّهَدَاءِ:

عندما وصل النَّبِيُّ (ﷺ) إِلَى بَطْنِ (غُرَّان)⁽²⁾، حَيْثُ لَقِيَ الشُّهَدَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَصْرَعَهُمْ
عَلَى أَيْدِي الْخَوْنَةِ مِنْ هُدَيلٍ؛ تَرَحَّمَ عَلَى هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ، وَدَعَا لَهُمْ⁽³⁾.

(1) انظر: صلح الحديبية ، ص 37.

(2) غُرَّان: بضم أوله: واد بين ساية ، ومكة.

(3) انظر: صلح الحديبية ، ص 38.

المبحث الثاني

تصفية المحرّضين على الدولة

سريّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسَير بن رِزَام اليهوديّ:

بلغ رسول الله (ﷺ) أنّ اليُسَير بن رِزَام أمير اليهود بخير بعد سلام بن أبي الحَقِيق أخذ في جمع يهود الشّمال، وتحريضهم على رسول الله (ﷺ)، ولم يكتفِ بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان، وجمعها لقتال رسول الله (ﷺ)، وحين علم رسول الله (ﷺ) ما يبيّته اليهود له من الخديعة، والمكر، رأى (ﷺ) أنّ يتأكّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المسلمين، رواداً يكتشفون ما تحبّئه يهود، ومن لَفٍّ لَقَّها من مشركي العرب⁽¹⁾. وقد تأكّدت المخابرات النّبويّة من أمر اليُسَير بن رِزَام، وكان هذا كافياً لقيام النّبِيِّ (ﷺ) ببعث سريّة في ثلاثين راكباً، عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أنيس، فأتوه، فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله (ﷺ) ليستعملك على خير، فلم يزلوا به حتّى تبعهم في ثلاثين رجلاً، مع كلّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيده، حتّى إذا كانوا بقرقرة ثيار على ستّة أميالٍ من خير، ندم اليُسَير على مسيره إلى رسول الله (ﷺ)، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثمّ ضربه بالسيف، فقطع رجله، وضربه اليُسَير بِمِخْرَشٍ⁽²⁾ في يده من شواحط⁽³⁾، فضرب به وجه عبد الله فأَمَّهُ⁽⁴⁾، ومال كلّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلّا رجلاً واحداً أفلت على رجله، فلمّا قدِم ابن أنيس على رسول الله (ﷺ)؛ تفل على شجّته، فلم تَقِحْ، ولم تؤذِه. [ابن هشام (266/3 - 267) (5)].

(1) انظر: اليهود في السّنة المطهّرة (1/388 ، 389).

(2) المخرش: شبه المقرعة يضرب به ، وهي معوجة الرأس.

(3) الشّواحط: شجر ابن النّبع ، من أشجار الجبال الّتي يُتخذ منها القسي .

(4) فأَمَّهُ: أي: جرحه في رأسه ، والشّجّة المأمومة هي الّتي تبلغ أمّ الرأس.

(5) انظر: البّيّرة النّبويّة في ضوء المصادر الأصليّة ، ص 477 ، والبداية والّنهاية (سنة 11 هـ).

وكانت هذه السريّة في شوال سنة ستّ من الهجرة⁽¹⁾.

وفي هذه السريّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

1 - كانت الخطّة النبويّة هي محاولة إيقاف نهر الدّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أنّ الحقد اليهوديّ الذي أشرب قلوبهم، والسّم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطّة كلّها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين، فوقعَت الدّائرة عليهم.

2 - إنّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً، وشديداً؛ فلن يحسم المواجهة مع العدو، وسيجعل الحرب تفني كلّ شيء، وتأكّل كلّ شيء، فلا بدّ من بئ الرّهبة، والرّعب في قلب العدو، ولا بدّ من الثبّنة معه حين لا يجدي الحوار، أو المناقشة، ولا بدّ من الغلظة التي تشعر العدو: أنّ من يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

3 - شهد العامّ السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليّات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمرّ شهرٌ دون سريّة، أو سريّتين تضرب في الصّحراء، وتفرضُ جمعاً، أو تحطّم عدوّاً، أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه]، فقد كان حزب الله ينطلق في الافاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدّمها للخلق كافّة، ويزيح كلّ طاغوتٍ يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفرادهِ جميعاً، والّذين تلقوا أعلى مستويات التّربية الخلقيّة، والفكريّة، والعسكريّة، والسياسيّة كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمةً عمليّةً وحيّةً لمبادئهم، وكيف يتقدّمون ليتصدّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها، وملاحمها مع صلح الحديبية⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 477.

(2) انظر: التّربية القياديّة (189/4 إلى 192).

الفصل العاشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)¹

المبحث الأول

تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله (ﷺ) إلى مكة

أولاً: تاريخه، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأول من ذي القعدة سنة (6 هـ)⁽²⁾، خرج الرسول (ﷺ) من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكة ؛ لأداء العمرة⁽³⁾. وسبب هذه الغزوة أن رسول الله (ﷺ) رأى رؤيا في منامه - وهو في المدينة -، وتلخص هذه الرؤيا في أن النبي (ﷺ) رأى: أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظماً للبيت مقدساً له، فبشر النبي (ﷺ) أصحابه، وفرحوا بها⁽⁴⁾ فرحاً عظيماً، فقد طال عهدهم بمكة، والكعبة؛ التي رضعوا حبها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها، وشوقاً إليها، وقد تآقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليه تطلّعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدهم حنيناً إلى مكة، فقد ولدوا، ونشؤوا فيها، وأحبوها حباً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلمّا أخبرهم رسول الله (ﷺ) بذلك تهيّؤوا لتلك الزيارة العظيمة⁽⁵⁾، واستنفر (ﷺ) أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنّه كان يخشى أن تصدّه قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرقي الكماشة، ثمّ إطباق فكّيها عليها، وإنهاء

¹[البخاري (2731 و 2732)، وأحمد (324/4 . 326)، والطبراني في المعجم الكبير (16/20) برقم (14)، وابن

هشام (321/3 . 333)، والبيهقي في الدلائل (99/4 . 108).]

(2) أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف ، وانظر: المجموع ، للنووي (78/7).

(3) انظر: نضرة النعيم (334/1).

(4) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (495/2).

(5) انظر: السيرة النبوية ، للندوي ، ص 273.

الوجود الإسلامي فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسياً، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء، وتجز من تشاء، فإذاً من حق محمد (ﷺ) وأصحابه زيارة الكعبة⁽¹⁾.

وانتشر خبر خروج رسول الله (ﷺ) بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام، وخصوصاً بعدما أكد رسول الله (ﷺ): أنه لا يريد حرباً، وإنما يريد أن يعتمر، ويعظم شعائر الله، وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي (ﷺ) معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام؛ لأداء العمرة، فتجرد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلّد الهدي، وأشعره⁽²⁾.

وقد كان (ﷺ) على جانب كبير من الحيطة، والحذر، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له⁽³⁾، وقدم بين يديه طليعة استكشافية مكونة من عشرين رجلاً، وفي ذلك يقول الواقدي: «دعا رسول الله (ﷺ) عبّاد بن بشر فقدمه أمامه طليعة في خيل المسلمين عشرين فارساً، وكان فيها رجال من المهاجرين، والأنصار»⁽⁴⁾، وكان هدفه (ﷺ) من ذلك الاستعداد للطوارئ التي يمكن أن يفاجأ بها، - أيضاً - فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو⁽⁵⁾.

وأخذ (ﷺ) بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله! تدخل على قوم هم لك أهل حربٍ بغير سلاحٍ، ولا كراعٍ؟ فبعث النبي (ﷺ) إلى المدينة من يحمل له الكراع،

(1) قراءة سياسية للسير النبوية ، ص 213 ، 214.

(2) أشعره: إشعار البدن أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها ، انظر: مرويات الحديبية ، ص 55.

(3) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص 58 ، 59.

(4) انظر: مغازي الواقدي (974/2).

(5) انظر: صلح الحديبية ، ل محمد باثميل ، ص 309.

والسِّلاح⁽¹⁾ وكان قصده (ﷺ) من ذلك الاستعداد لهؤلاء الأعداء؛ الَّذِينَ يملكون من السِّلاح، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين، والتَّيْل منهم⁽²⁾، وهذا التَّعامل مع سَنَةِ الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذي جعله لأُمَّتِهِ لتقتدي به من بعده (ﷺ)؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكاييد الأعداء؛ الَّذِينَ يترَبَّصون بالمسلمين الدَّوائر⁽³⁾.

ثانياً: وصول النَّبي (ﷺ) إلى عُسْفَانَ:

لَمَّا وصل رسول الله (ﷺ) إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك؛ ومعها العوذ المطافيل⁽³⁾، قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عُنُوةً أبداً، فقال رسول الله (ﷺ): «يا ويح⁽⁴⁾ قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام؛ وهم وافرون⁽⁵⁾، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له، أو تنفرد هذه السَّالفة⁽⁶⁾».

وقد استشار (ﷺ) أصحابه لَمَّا بلغه خبر استعداد قريش لصُدِّه عن دخول البيت الحرام، وعرض (ﷺ) على الصَّحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم، والتَّصميم:

1 - الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذِينَ خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصُدِّهم عن البيت.

2 - قصد البيت الحرام فمن صدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه⁽⁷⁾. ولمَّا

(1) تاريخ الطبري (622/2).

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرِّسُول صلى الله عليه وسلم، ص 489.

(3) المراد: خرجوا ومعهم النِّساء، والأولاد لئلا يقرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.

(4) يا ويح: كلمة ترخُّم، وتوجُّع، انظر: لسان العرب (996/3).

(5) وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء، انظر: لسان العرب (958/3).

(6) السيرة النبوية، لابن هشام، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم، لمحمد رضا.

(7) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرِّسُول صلى الله عليه وسلم، ص 489.

عرض (ﷺ) المشورة في هذا الأمر على الصحابة؛ تقدّم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله (ﷺ) بترك قتالهم، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النبي (ﷺ) هذا الرأي، وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل⁽¹⁾، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلّى النبي (ﷺ) بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

ثالثاً: الرسول (ﷺ) يغيّر الطريق، وينزل بالحديبية:

ولمّا بلغ رسول الله (ﷺ): أنّ قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرّر المصادمة، رأى أن يغيّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصدام مع المشركين، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ التي هم بها؟ فقال رجلٌ من أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شقّ على المسلمين السّيرفيه، حتّى خرجوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله (ﷺ) للناس: «قولوا: نستغفر الله، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.

رابعاً: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيل»:

وعندما اقترب الرسول (ﷺ) من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء⁽²⁾، فقال النبي (ﷺ): «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيل». ثمّ قال: «والذي نفسي بيده! لا يسألونني خطّةً يعظّمون فيها حرّات اللّه إلا أعطيتهم إيّاها⁽³⁾». ثمّ زجرها، فوثبت، ثمّ عدل عن دخول مكّة، وسار حتّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ - بئر - قليل الماء.

(1) انظر: ملامح الشورى في الدّعوة الإسلاميّة، للشيخ عدنان التّحوي، ص 160.

(2) بركت من غير علة ظاهرة، فلم ترح مكانها.

(3) انظر: البيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 484.

وفي برك ناقة رسول الله (ﷺ)، وقسمه بعد ذلك دروس، وعبر، منها:

1 - كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله، ومشيتته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته، وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله (ﷺ) أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها، وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها، فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أراد غير ذلك⁽¹⁾.

2 - وقد استنبط ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - فائدة جليّة من قوله (ﷺ): «حبسها حابس الفيل»⁽²⁾؛ فقال: وفي هذه القصّة جواز التشبيه من الجهة العامّة، وإن اختلفت الجهة الخاصّة؛ لأنّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حقٍّ محضٍ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أمّا من أهل الباطل؛ فواضح، وأمّا من أهل الحقّ فللمعنى الذي تقدّم ذكره⁽³⁾.

3 - ومن الفوائد: أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة، والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظّمون فيه حرمة من حرّمات الله تعالى؛ أُجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه؛ وإن مُنعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرّمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون ممّا سوى ذلك، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرضٍ له أُجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانتة على ذلك المحبوب مبعوضٌ لله أعظم منه، وهذا من أدقّ المواضع، وأصعبها، وأشقّها على النفوس⁽⁴⁾.

4 - إنّ الله - سبحانه وتعالى -، جَلَّتْ قدرته، وعزّتْ عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين، والمشركين من أهل مكّة في هذه الغزوة بالذات لحكمٍ ظهرت فيما بعد؛ منها:

(1) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 43.

(2) انظر: فتح الباري، لابن حجر (260/6).

(3) انظر: فتح الباري، لابن حجر (61/6).

(4) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 47.

أ - إِنَّ دخول المسلمين بالقوّة يعني: أن تحدث مذابح، وتزَهَق أرواح كثيرة، وتُسَفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطرفين، وهذا أمرٌ لم يُرِدْهُ البارئ سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين، والمشرّكين.

ب - إِنَّ من المحتمل أن ينال الأذى، والقتل، والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكّة؛ الَّذِينَ يُخَفُونَ إِسلامهم خوفاً من قومهم، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25].

ج - لقد سبق في علم الله - عزّ وجلّ - : أَنَّ هؤلاء الَّذِينَ يقفون اليوم صادّين رسول الله (ﷺ)، عن المسجد الحرام هم الَّذِينَ سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة، حين يحملون هذه الرّسالة للنّاس، وينيرون ظلمة الطّريق للمُدلّجين⁽¹⁾.

خامساً: الوفود النبويّة إلى قريش، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

دعا رسول الله (ﷺ) عثمان رضي الله عنه، فقال: اذهب إلى قريش فخيرهم، أنا لم نأت لقتال أحدٍ، وإنما جئنا زوّاراً لهذا البيت، معظّمين لحرمته، معنا الهدى، ننحره، وننصرف، فخرج عثمان بن عفّان رضي الله عنه حتّى أتى بلدح⁽²⁾، فوجد قريشاً هنالك، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله (ﷺ) إليكم، يدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، تدخلون في الدّين كافّة، فإنّ الله مظهرٌ دينه، ومعزّزٌ نبيه، وأخرى: تكفّون، ويولي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمّد؛ فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمّد؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النّاس، أو تقاتلوا؛ وأنتم

(1) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص 45.

(2) [مكان قريب من مكّة].

وافرون جاثمون، إِنَّ الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم فجعل عثمان يكلّمهم، فيأتيتهم بما لا يريدون، ويقولون: قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عَنوةً، فارجع إلى صاحبك، فأخبره أَنَّهُ لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحّب به، وأجاره، وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثمّ نزل عن فرسٍ كان عليه، فحمل عثمان على السّرج، وردفه وراءه، فدخل عثمان مكّة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أميّة، وغيرهما، منهم من لقي بيلدح، ومنهم من لقي بمكّة، فجعلوا يرُدُّون عليه: إن محمّداً لا يدخلها علينا أبداً⁽¹⁾.

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت، فأبى⁽²⁾، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله (ﷺ) إلى المستضعفين بمكّة وبشرهم بقرب الفرج، والمخرج⁽³⁾، وأخذ منهم رسالة شفهيّة إلى رسول الله (ﷺ) جاء فيها: اقرأ على رسول الله (ﷺ) منا السّلام، إِنَّ الَّذِي أَنزَلَهُ بِالْحَدِيثِ لِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهُ بطن مكّة⁽⁴⁾.

سادساً: بيعة الرّضوان:

بلغ النّبي (ﷺ): أَنَّ عثمان رضي الله عنه قد قُتِل فدعا رسول الله (ﷺ) أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين، ومناجزتهم، فاستجاب الصّحابة، وبايعوه على الموت [البخاري (4169)، ومسلم (1860)].

وكان عددُ الصّحابة الذين أخذ منهم الرّسول (ﷺ) المبايعَة تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة صحابي⁽⁵⁾، وقد تحدّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرّضوان، وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنيّة، والأحاديث النّبويّة؛ منها:

(1) زاد المعاد (290/3)، والبيرة النّبويّة، لابن هشام (344/3).

(2) انظر: البيرة النّبويّة، لابن هشام (344/3).

(3) انظر: زاد المعاد (290/3).

(4) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 85.

(5) انظر: البيرة النّبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 482.

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُم مَّنْ جَزَاءُ عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10].

2 - وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح 18-19].

3 - أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان: أَنَّهُ أَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى، الَّتِي هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وَأَتَمَّ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح 26].

نشاط:

استخرج بعض الأحاديث النبوية التي تحدثت عن أهل بيعة الرضوان وفضلهم.

المبحث الثاني

صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله (ﷺ):

لَمَّا بَلَغَ قَرِيشاً أَمَرَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، وَأَدْرَكَ زَعَمَاءُهَا تَصْمِيمَ الرَّسُولِ (ﷺ) عَلَى الْقِتَالِ؛ أَوْفَدُوا سَهِيلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْرٍ مِنْ رَجَالِهِمْ لِمُفَاوَضَةِ النَّبِيِّ (ﷺ)⁽¹⁾، وَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) سَهِيلًا؛ قَالَ: لَقَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ⁽²⁾.

كَانَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرِو أَحَدَ زَعَمَاءِ قَرِيشٍ الْبَارِزِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُعْرِفُونَ بِالْحُنْكَ السِّيَاسِيَّةِ، وَالِدَّهَاءِ، فَهُوَ خَطِيبٌ مَاهِرٌ، ذُو عَقْلٍ رَاجِحٍ، وَرِزَانَةٍ، وَأَصَالَةٍ فِي الرَّأْيِ.

شَرَعَ الْفَرِيقَانِ الْمُتَفَاوِضَانِ فِي بَحْثِ بَنُودِ الصُّلْحِ، وَذَلِكَ بَعْدَ رَجُوعِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ اسْتَعْرَضَ الْفَرِيقَانِ النُّقَاطَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَضَمَّنَهَا مَعَاهِدَةُ الصُّلْحِ، وَاسْتَعْرَضَا فِي مَبَاحِثَاتِهِمَا مُخْتَلَفَ الْقَضَايَا الَّتِي كَانَتْ تَشَكِّلُ مِثَارَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا، هَذَا وَقَدْ اتَّفَقَ الْفَرِيقَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأِ عَلَى بَعْضِ النُّقَاطِ، وَاخْتَلَفَا عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَقَدْ طَالَ الْبَحْثُ، وَالْجَدَلُ، وَالْأَخْذُ وَالرَّدُّ حَوْلَ هَذِهِ الْبَنُودِ، وَبَعْدَ الْمَرَاجَعَاتِ، وَالْمُفَاوِضَاتِ تَقَارَبَتْ وَجْهَاتُ النَّظَرِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

وَعِنْدَ الشُّرُوعِ فِي وَضْعِ الصِّيْغَةِ النَّهَائِيَةِ لِلْمَعَاهِدَةِ، وَكِتَابَتِهَا لِتَكُونَ نَافِذَةً لِمَفْعُولٍ رَسْمِيًّا حَدَثَ خِلَافٌ بَيْنَ الْوَفْدَيْنِ عَلَى بَعْضِ النُّقَاطِ، كَادَ أَنْ يَعْثُرَ سِيرَ هَذِهِ الْإِتْفَاقِيَّةِ، فَعِنْدَمَا شَرَعَ النَّبِيُّ (ﷺ) فِي إِمْلَاءِ صِيْغَةِ الْمَعَاهِدَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا؛ أَمَرَ الْكَاتِبَ، وَهُوَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِأَنْ يَبْدَأَ الْمَعَاهِدَةَ بِكَلِمَةِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَهَذَا اعْتَرَضَ رَئِيسَ الْوَفْدِ الْقُرَشِيِّ سَهِيلُ بْنُ عَمْرِو قَائِلًا: لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ! اكْتُبْ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَضَحَّ الصَّحَابَةُ عَلَى هَذَا

(1) انظر: التَّارِيخُ السِّيَاسِيُّ وَالْعَسْكَرِيُّ، ص 339، 340.

(2) انظر: مَغَازِي الْوَأَقْدِي (2/602، 604، 605).

الاعتراض، قائلين: هو الرَّحْمَن، ولا نكتب إلا الرَّحْمَن، ولكنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) تمشياً مع سياسة الحكمة، والمرونة، والحلم، قال للكاتب: «اكتب: باسمك اللَّهُمَّ»⁽¹⁾، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب: «هذا ما اصطلح عليه رسول الله»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشيَّ على كلمة (رسول الله) قائلاً: لو أعلم أنَّك رسولُ الله ما خالفْتُك، واتَّبَعْتُك، أفترغب عن اسمك، واسم أبيك مُحَمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك، واسم أبيك⁽¹⁾.

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله (ﷺ) بحكمته، وتسامحه، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة، فالتزم الصَّحابة الصَّمت، والهدوء.

وتمَّ عقد هذه المعاهدة، وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

1 - باسمك اللَّهُم.

2 - هذا ما صالح عليه مُحَمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

3 - واصطلحنا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين، يأمن فيهنَّ النَّاس، ويكفُّ بعضهم عن بعض.

4 - على أَنَّهُ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ من أصحاب مُحَمَّد حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو آمنٌ على دمه، وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر، أو إلى الشَّام، يبتغي من فضل الله؛ فهو آمنٌ على دمه، وماله.

5 - على أَنَّهُ مَنْ أتى مُحَمَّدًا من قريشٍ بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممَّن مع مُحَمَّد، لم يرُدُّوه عليه.

(1) انظر: مغازي الواقدي (610/2).

6 - وَأَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ، وَلَا إِغْلَالَ⁽¹⁾.

7 - وَأَنَّهُ مِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ، وَعَهْدِهِ دَخَلَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قَرِيْشٍ، وَعَهْدُهُمْ دَخَلَ فِيهِ. (فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم).

8 - وَأَنْتَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَكَ هَذَا، فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامَ قَابِلٍ خَرَجْنَا عَنْكَ، فَدَخَلْتَهَا بِأَصْحَابِكَ، فَأَقَمْتَ بِهَا ثَلَاثًا، مَعَكَ سِلَاحُ الرَّاكِبِ، السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ، وَلَا تَدْخُلُهَا بِغَيْرِهَا.

9 - وَعَلَى أَنَّ هَذَا الْهَدْيَ وَمَا جِئْنَا بِهِ؛ فَلَا تَقْدِمُهُ عَلَيْنَا.

وقد كانت المعاهدة مفتوحة لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف فقد دخلت خزاعة، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والتي امتدت سنواتٍ عديدة⁽²⁾.

الدروس والعبر المستفادة من صلح الحديبية:

1- عُقِدَتْ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ بِمَكْرَزِ الْقُوَّةِ، لَا الضَّعْفِ، وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ أَلَّا يَقْبَلُوا شُرُوطَهَا الَّتِي اغْتَاظَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يُخْرِجُوا عَنْ طَوْعِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى.

2 - فِي مَعَاهِدَةِ الصَّلْحِ الْحَدِيثِيِّ جَوَّازَ ابْتِدَاءِ الْإِمَامِ (رَئِيسِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ) بِطَلْبِ صَلْحِ الْعَدُوِّ إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ الطَّلَبِ مِنْهُمْ⁽³⁾.

(1) العيبة هنا مثل: والمعنى: أنَّ بَيْنَنَا صُدُورًا سَلِيمَةً فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى الْعَهْدِ؛ الَّذِي عَقَدْنَاهُ بَيْنَنَا، وَقَدْ يَشْبَهُ صَدْرَ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ مُسْتَوْدَعُ سِرِّهِ بِالْعَيْبَةِ الَّتِي هِيَ وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ تُصَانُ فِيهِ الثِّيَابُ. وقوله: لَا إِسْلَالَ، وَلَا إِغْلَالَ: تعني: الْإِسْلَالُ مِنَ السَّلَّةِ، وَهِيَ السَّرْقَةُ، وَالْإِغْلَالُ أَيُّ: الْخِيَانَةُ وَالْمَعْنَى الْعَامُ: أَنَّ بَعْضَنَا يَأْمَنُ بَعْضًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَالِهِ، فَلَا يَتَعَرَّضُ لَدَمِهِ، وَلَا لِمَالِهِ.

(2) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 280.

(3) انظر: زاد المعاد، لابن القيم (306/3).

3 - أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة،
ودفع ما هو شرٌّ منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها⁽¹⁾.

4 - أن صلح الحديبية سَمَّاه الله فتحاً؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق، والصلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر.

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين، وهي في باطنها عزٌّ، وفتحٌ، ونصرٌ، حيث كان رسول الله (ﷺ) ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتِي لم يحتملها أكثر أصحابه، ورؤوسهم، وهو (ﷺ) يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ⁽²⁾.

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

بعد صلح الحديبية جاء أبو جندل الى المسلمين مسلماً (وقد كان في مكة قبل الصلح ويسري عليه ما جاء في الصلح من وجوب رده الى مكة) فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرِدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً، وردَّه رسول الله (ﷺ)، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهداً، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له، ولمن على شاكلته من المسلمين، وقال له - وهو يواسيه - : «يا أبا جندل! اصبر، واحتسب، فإنَّ الله جاعلٌ لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً» [سبق تخريجه]⁽³⁾.

وفي هذه الكلمات النَّبَوِيَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص

(1) المصدر السابق نفسه (306/3).

(2) انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص 272.

(3) انظر: السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّة ، لابن هشام (347/3).

رسول الله (ﷺ)، وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه، وعواقبه فيما يبدو للناس (1).

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول (ﷺ) والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم، وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيه أبي جندل، وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدِّماء تنزف منه؛ ممَّا زاد في إيلاهم، حتَّى إِنَّ الكثيرين منهم أخذوا يكون بمرارة إشفافاً منهم على أخيه في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبُه بفضاظة الوثنيّ الجلف، ليعود به مرّة أخرى إلى سجنه الرّهيب في مكّة.

وقد صبر أبو جندل، واحتسب لمصابه في سبيل دينه، وعقيدته، وتحقّق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2 - 3].

فلم تمرّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكّة من الإفلات من سجون مكّة، وأصبحوا قوّة صار كفار مكّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشّام (2). وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

(1) انظر: محمّد رسول الله (ص)، لمحمّد الصادق عرجون (275/4).

(2) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص 322 إلى 325.

ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقية، وخاصَّةً في البندين اللذين يلتزم النَّبيُّ (ﷺ) بموجبهما برِّد من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريشُ برِّد مَنْ جاءها من المسلمين مرتدّاً، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقية، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس، وسعد بن عُباد سيِّد الخزرج.

وقد ذكر المؤرِّخون: أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله (ﷺ) مُعلنًا معارضته لهذه الاتفاقية، وقال لرسول الله (ﷺ): أَلست برسول الله؟ قال: «بلى!» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى!» قال: أوليسوا بالمشرِّكين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام تُعطى الدِّنيَّة في ديننا؟! قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه⁽¹⁾».

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّحابة إلى تحديد المعارضة للصُّلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله (ﷺ) بينهم عمر بن الخطَّاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم، إلا أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) بما أعطاه الله من صبرٍ، وحكمةٍ، وحلمٍ، وقوَّة حجةٍ استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصُّلح، وأنَّه في صالح المسلمين، وأنَّه نصرٌ لهم⁽²⁾، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً، ومخرجاً، وقد تحقَّق ما أخبر به (ﷺ). وبهذا يتبيَّن: أنَّ الرِّسول (ﷺ) وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة، حيث قرَّر ذلك بقوله، وفعله، وهو - والله أعلم - إنَّما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النَّزيهة؛ الَّتِي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّليمة؛ الَّتِي تخدم المصلحة العامَّة⁽³⁾.

(1) انظر: من معين البيرة ص 333.

(2) انظر: صلح الحديبية، لباثيل، ص 270.

(3) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله (ص)، ص 495.

وهذا الهدي النبوي الكريم بيّن: أَنَّ حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ مكفولةٌ في المجتمع الإسلامي، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحُرِّيَّةَ في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرَّأْيُ نقداً لموقف حاكم من الحُكَّام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حقِّ الفرد المسلم أن يبيّن وجهة نظره في جوِّ من الأمن، والأمان دون إرهابٍ، أو تسلُّطٍ يخنق حُرِّيَّةَ الكلمة، والفكر. ونفهم من معارضة عمر لرسول الله (ﷺ): أَنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب، ويُعَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون⁽¹⁾.

رابعاً: التَّحَلُّل من العَمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ﷺ) من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا، فانحروا، ثمَّ احلقوا...» حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ، فلمَّا لم يَقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من النَّاس، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً حتَّى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه، فلمَّا رآوا ذلك؛ قاموا، فانحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا. [سبق تخرجه].

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ، وعبرٌ منها:

1 - كان رأي أمِّ سلمة سديداً، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ (ﷺ) أمرهم بالتَّحَلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفسه، فأشارت على النَّبيِّ (ﷺ) أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النَّبيُّ (ﷺ) صواب ما أشارت به، ففعله، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به.

(1) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 134، 135.

2 - أهيمّة القدوة العملية: فقد دعا رسول الله (ﷺ) إلى أمر وكرّره ثلاث مرّاتٍ، وفيهم كبار الصّحابة، وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته، فلمّا قدم رسول الله (ﷺ) على الخطوة العمليّة؛ الّتي أشارت بها أمّ سلمة تحقّق المراد، فالقدوة العمليّة في مثل هذه المواقف أجدى، وأنفع⁽¹⁾.

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثمّ انصرف رسول الله (ﷺ) من الحديبية قاصداً المدينة، حتّى إذا كان بين مكّة والمدينة نزلت سورة الفتح.

وقد عبّر رسول الله (ﷺ) عن عظيم فرحته بنزولها، وقال: أنزلت عليّ الليلة سورةً هي أحبُّ إليّ ممّا طلعت عليه الشّمس [البخاري (4177)، عن أسلم، ومسلم (1786) عن أنس] ، ثمّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال أصحاب رسول الله (ﷺ): هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله:

﴿لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 5] [البخاري (4172) عن أنس].

نتائج صلح الحديبية:

1 - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدّولة المسلمة، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين نديّن، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثّرة بموقف قريش الجحوديّ؛ حيث كانوا يرون: أنّها الإمام والقدوة.

2 - دخلت المهابة في قلوب المشركين، والمنافقين، وتيقّن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، كما تجلّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

(1) انظر: تأملات في السيرة النبويّة، لمحمد السّيد الوكيل، ص 211.

3 - أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف النَّاس به، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه.

4 - أَمِنَ المسلمون جانب قريش، فحوَّلوا ثقلهم على اليهود، وَمَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

5 - مَكَّنَ صلح الحديبية النَّبِيَّ (ﷺ) من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة.

6 - ساعد صلح الحديبية النَّبِيَّ (ﷺ) على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والرُّوم، والقُط يدعوهم إلى الإسلام.

7 - كان صلح الحديبية سبباً ومقدِّمةً لفتح مكَّة.

نشاط:

استنتج الدروس والعبر المستفادة من صلح الحديبية.

الفصل الحادي عشر

أهم الأحداث ما بين الحديبية، وفتح مكة

المبحث الأول

غزوة خيبر

8هـ

أولاً: أسبابها:

- 1- تَزَعُمُ يهود بني النضير ليهود خيبر وجَرِّهم إلى الصِّراع، والتَّصَدِّي، والانتقام من المسلمين وإنفاق الأموال لحرب المسلمين.
 - 2- الحقدُ الدفينُ، والرغبةُ القويَّةُ من قبل اليهود في العودة إلى ديارهم داخل المدينة.
 - 3- تفرَّغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدِّد أمن المسلمين
- ومن هنا يمكننا استخلاص أهم هدف لغزوة خيبر وهو تصفية خطر اليهود الذي أصبح يهدد امن المدينة المنورة بعد ان تم تأمين جنوبها بصلح الحديبية.

ثانياً: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، ولما أدرك رسول الله (ﷺ) اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان⁽¹⁾.

(1) انظر: الصِّراع مع اليهود (45/2).

ولمّا أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم⁽¹⁾، ومكاثلهم⁽²⁾، فلمّا رأوا جيش المسلمين قالوا: محمدٌ والله! محمدٌ والخميس، فقال النَّبِيُّ (ﷺ): «الله أكبر! الله أكبر! خربت خير، إنّنا إذا نزلنا بساحة قومٍ، فساء صباح المنذرين» [البخاري (610)، ومسلم (120/1365)].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم، وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أوّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة، وأبو النَّزار بمنطقة الشَّقِّ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشرقي من خيبر، ثمَّ حصن القُمُوص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق، ثمَّ أسقطوا حصني منطقة الوَطِيح، والسَّلام⁽³⁾.

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعمٍ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ، حيث ألقى عليه مرحبٌ رحىً من أعلى الحصن⁽⁴⁾، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام⁽⁵⁾، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهَد النَّاس، قال رسول الله (ﷺ): إنّهُ سيدفع اللِّواء غدّاً إلى رجلٍ يُحِبُّهُ الله ورسولُهُ، ويحبُّ الله ورسولَهُ، لا يرجع حتّى يُفْتَحَ لَهُ، فطابت نفوس المسلمين، فلمّا صَلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ودفع إليه اللِّواء، فحمله، فتمَّ فتح الحصن على يديه. [الحاكم (37/3)].

وكان عليّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرّسول (ﷺ)، فبصق رسول الله (ﷺ) في عينيه، ودعا له، فبرأ. [البخاري (4210)، ومسلم (2406)].

(1) المساحي: جمع، ومفردُها: مسحة، والمسحة: المجرفة من الحديد.

(2) المكاتل: جمع مكئل، وهو المقطف الكبير.

(3) انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 501.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: الواقدي (657/2).

ولقد أوصى الرَّسول (ﷺ) علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فو الله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ». [البخاري (3009)، ومسلم (2406)].

وعندما سأله علي رضي الله عنه: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». [مسلم (2405)، والبيهقي في دلائل النبوة (260/4)].

وبهذا الدور الحاسم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه يظهر دور الشباب في الجهاد والتضحية وتحقيق الانتصارات عندما يربون التربية النبوية الصادقة.

حاصر المسلمون حصون خيبر حصناً حصناً حتى فُتحت خيبر عَنْوَةً⁽¹⁾، وسارع أهل فَدَّك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (1551)، وأحمد (451/2)، وأبو داود (3006)، والبيهقي في السنن الكبرى (137/9) - (138)]⁽²⁾.

وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً⁽³⁾، وسييت النساء والدَّارِي، منهنَّ صفيَّة بنت حُيَيِّ بن أخطب، فأعتقها رسولُ الله (ﷺ)، وتزوَّجها. [البخاري (371)، ومسلم (1365)].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق⁽⁴⁾، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي⁽⁵⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 504.

(2) انظر: مغازي الواقدي (699/2).

(3) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص 504.

(4) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (327/1).

(5) انظر: المغازي (700/2).

رابعاً: قدوم جعفر بن أبي طالب، ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب، وصحبته من مهاجري الحبشة على رسول الله (ﷺ) يوم فتح خيبر، فقبله رسول الله (ﷺ) بين عينيه، والتزمه، وقال: «ما أدري بأيّهما أنا أسرُّ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (30)، وفي الأوسط (2024)، وفي الكبير (1470)، وابن سعد (35/4)، والحاكم (408/3 - 409)، والبيهقي في الكبرى (101/8)، ومجمع الزوائد (271/9 - 272)]. وكان (ﷺ) قد أرسل في طلبهم من النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفرًا في قدومه أبو موسى الأشعري، ومن كان بصحبته من الأشعريين⁽¹⁾.

خامساً: تقسيم الغنائم:

1 - كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول (ﷺ) غنيمةً من حيث الأراضي، والنخيل، والثياب، والأطعمة، وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ: أنّ الغنائم كانت تتكوّن من:

أ - الطّعام و الثّياب، والأثاث، والإبل، والبقر، والغنم.

ب - السّبي.

ج - الأراضي، والنخيل.

د - وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدّة صحفٍ من التّوراة، فطلب اليهود ردّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع (ﷺ) ما صنع الرّومان حينما فتحوا أورشليم، وأحرقوا الكتب المقدّسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التّوراة⁽²⁾.

(1) انظر: من معين السيرة، ص 353.

(2) انظر: السيرة النبويّة، لأبي شعبة (419/2).

وقد أبقي رسول الله (ﷺ) يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها، وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي (ﷺ)، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها. [أبو داود (3410)، وابن ماجه (1820)] (1).

سادساً مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار؛ قالت: أتيت رسول الله (ﷺ) في نسوة من بني غفار، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو السير إلى خيبر - فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله». قالت: فخرجنا معه، قالت: فو الله لنزل رسول الله (ﷺ) إلى الصبح، ونزلت عن حقيبة رجلي، قالت: وإذا بها دم مني - وكانت أول حيضة حضتها - قالت: فتقبضت إلى الناقة، واستحييت. فلما رأى رسول الله (ﷺ) ما بي، ورأى الدم قال: «ما لك؟ لعلك نفست؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء، فاطرحي فيه ملحاً، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر؛ رضح لنا من الفياء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي، فأعطانيها، وعلقها بيده في عنقي، فو الله لا تفارقي أبداً⁽²⁾، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت. [أحمد (380/6)، والبيهقي في الكبرى (407/2)، وابن سعد (214/8)، وابن كثير في البداية والنهاية (204/4)، وابن هشام (357/3)].

وهي صورة حيّة أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين⁽³⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (328/1).

(2) انظر: البداية والنهاية (205/4).

(3) انظر: فقه السيرة، لمنير الغضبان، ص 534.

وهكذا كانت حياة الرسول (ﷺ) تعليمًا، وتربيةً للأمة في السلم، والحرب على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيضٌ من فيضٍ، وجزءٌ من كلِّ.

هذا وقد أحدث فتحٌ خير، وفدك، ووادي القرى، وتيماء دويًا هائلًا في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ، والكابة؛ إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم، ووفرة سلاحهم، ومؤونتهم، ومتاعهم⁽¹⁾.

أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش؛ فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذلها انتصار المسلمين السَّاحق، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مسالمة المسلمين، وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعزَّزت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصادي⁽²⁾.

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر، وكانت كثيرةً، وأمرَ عليها (ﷺ) كبار الصَّحابة، وكان في بعضها قتالٌ، ولم يكن في بعضها قتالٌ⁽³⁾.

* * *

(1) انظر: نضرة النعيم (353/1).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: البشيرة النبوية، للنَّدوي، ص 221.

المبحث الثاني

دعوة الملوك والأمراء

يشير المنهج النبوي في دعوة الرُعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فألى جانب دعوة الأمراء، والشُعوب اختار الرسول (ﷺ) أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة، وهو مراسلة الملوك، ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك، والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام، وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك، والأمراء من الدعوة الإسلامية، ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً، وعسكرياً واضحاً، ومتميزاً⁽¹⁾، وإليك أهم هذه الرسائل:

1 - فقد وردت رواية صحيحة، تضمنت نص كتاب النبي (ﷺ) الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم⁽²⁾ وذلك في مدة هدنة الحديبية، وهو كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أمّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم؛ تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؛ فعليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. [البخاري (4553)، ومسلم (1773)].

ولقد تسلم هرقل رسالة النبي (ﷺ) ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سألته عن أحوال النبي (ﷺ)، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم: أنه خارج، ولم

(1) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد المهجر، ص 112.

(2) انظر: نضرة النعيم (344/1)، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرسائل.

أكن أظنه منكم، فلو أيّ أعلم أيّ أخلص إليه ؛ لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده؛ لغسلت
عن قدميه). [انظر تخرّيج الحديث السابق].

2 - أرسل النبي (ﷺ) بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسيّة، مع عبد الله بن
خُذافة السّهميّ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين⁽¹⁾، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلمّا
قرأه؛ مرّقه، فدعا عليهم رسول الله (ﷺ) أن يُمزّقوا كلّ ممزّق» [أحمد (243/1)، والبخاري (4424)، والبيهقي
في دلائل النبوة (387/4)]⁽²⁾، ونصّ الرّسالة كما أوردها الطّبريّ كالآتي: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من
محمّد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتّبع الهدى، وآمن بالله، ورسوله،
وشهد أن لا إله إلا الله، وأيّ رسول الله إلى النّاس كافّة؛ لينذر من كان حيّاً، أسلم؛ تسلم، فإن
أبيت؛ فعليك إثمّ الجوس». [تاريخ الطبري (654/2 - 655)].

3 - أمّا كتاب النبي (ﷺ) إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، فقد أرسله مع عمرو بن أميّة
الضّمريّ، وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله، إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، أسلم أنت،
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أنّ
عيسى ابن مريم روحُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطّيبة الحصيّة، فحملت به، فخلقه من
روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة في طاعته،
وأن تتّبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك، وجنودك إلى الله - عزّ وجلّ -
وقد بلّغت، ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسّلام على من اتّبع الهدى». [نصب الرّاية للزّبيعي
(421/4)].

(1) شرح المواهب اللّديّة (341/3).

(2) كانت الرّسالة في محرم سنة 7 هـ كما في زاد المعاد.

4 - أمّا كتاب النَّبِيِّ (ﷺ) إلى المقوقس حاكم مصر⁽¹⁾، وكذلك رُدُّ المقوقس إليه⁽²⁾؛ فلم يثبت من طرقٍ صحيحةٍ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيّة، فرمّا تكون صحيحةً من حيث الشَّكل، والمضمون، غير أنَّها لا يمكن أن يحتجَّ بها في السِّياسة الشَّرعيّة⁽³⁾، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته⁽⁴⁾: أنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) بعث إلى المقوقس، جُريج بن مينا ملك الإسكندريّة وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللّخميّ، وأنَّه قال خيراً، وقارب الأمر، غير أنَّه لم يسلم، وأهدى إلى النَّبِيِّ (ﷺ) عدّة هدايا كان بينها مارية القبطيّة، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبِيِّ (ﷺ) قال: «ضَنَّ الخبيث بمُلْكِهِ، ولا بقاء لمُلْكِهِ». [الزُّبَلي في نصب الراية (422/4)]⁽⁵⁾.

5 - وبعث رسول الله (ﷺ) شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي ثَمَر الغَسَّاني صاحب دمشق⁽⁶⁾، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله: «سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى، وآمن به، إلَيَّ أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يُبقي لك ملكك». [الزُّبَلي في نصب الراية (424/4)، والطبري في تاريخه (652/2)].

نتائج هذه المراسلات:

وقد كان تلَقِّي الملوك هذه الرِّسائل يختلف: فأما هرقل، والنَّجاشي، والمقوقس؛ فتأدَّبوا، وتلطَّفوا في جوابهم، وأكرم النَّجاشي، والمقوقس رُسلَ رسول الله (ﷺ)، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدهما مارية أمُّ إبراهيم (ابن رسول الله)، وأما كسرى أبرويز؛ فلما قُرئ عليه الكتاب مرَّقه، وقال: «يكتب إليّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «مرَّقَ الله ملكه!» [سبق تخريجه].

(1) انظر: نضرة التَّعيم (346/1).

(2) المصدر السَّابق نفسه.

(3) انظر: البتيرة النَّبويّة الصَّحيحة (459/2).

(4) انظر: الطَّبقات الكبرى (260/1 . 261).

(5) البداية والنهاية (340/5).

(6) انظر: تاريخ الطَّبري (652/2).

وأمر كسرى باذان - وهو حاكمه على اليمن - بإحضاره، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله (ﷺ) بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله⁽¹⁾.

وقد تحقّق ما أنبا به رسول الله (ﷺ) بكلّ دقّة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباد) الملقب بـ (شرويه) وقُتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (628 م)، وقد تمزّق ملكه بعد وفاته، وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعيش (شرويه) إلا ستّة أشهرٍ، وتوالى على عرشه في مدّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان، وهو الذي واجه الزّحف الإسلاميّ؛ الذي أدّى إلى انقراض الدولة السّاسانيّة؛ التي دامت، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كليّاً، وكان ذلك في سنة (637 م)، وهكذا تحقّقت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين⁽²⁾.

وقد حقّقت هذه السّياسة النتائج الآتية:

أ - وطّد الرّسول (ﷺ) بهذه السّياسة أسلوباً جديداً في التّعامل الدّوليّ لم تكن تعرفه البشريّة من قبل.

ب - أصبحت الدّولة الإسلاميّة لها مكانتها، وقوّتها، وفرضت وجودها على الخريطة الدّوليّة لذلك الرّمان.

ج - كشفت للرّسول (ﷺ) نوايا الملوك، والأمراء، وسياستهم نحوه، وحكمهم على دعوته.

د - كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدّعوة الإسلاميّة، تلك العالميّة التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكيّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

(1) انظر: تاريخ الطّبريّ (90/3 . 91)، والإصابة في معرفة الصّحابة.

(2) انظر: السيرة النبويّة، للنّدوي، ص 300.

دروس، وعبر، وفوائد:

1 - اعتبارات حكيمة خاصة بالملوك:

في رسائل رسول الله (ﷺ) للملوك فوارق دقيقة مؤسّسة على حكمة الدعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، و(الخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل، والمقوقس يدينان بالوحيّة المسيح كليّاً، أو جزئياً، وكونه ابنُ الله، جاءت في الكتابين اللذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي (ﷺ) صاحب هاتين الرّسالتين.

ولما كان كسرى أبرويز وقومه يعبدون الشمس والنّار، ويدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثّل الخير، وهو: يزدان، والثّاني يمثّل الشرّ وهو: إهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم الثبوت، والتّصوّر الصّحيح للرّسالة السّماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وأني رسول الله إلى النّاس كافّة لينذر من كان حيّاً»⁽¹⁾.

2 - تقدير الرّجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله (ﷺ)، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حين رأى فيه الإداريّ النّاجح، والحاكم المناسب، ممّا يُدِلّ على أنّ الرّسول (ﷺ) يقدّر الكفاءات في الرّجال، ويضع الرّجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذّكر: أنّ الرّسول (ﷺ) قد ولّى ولده - أي: ولد باذان - شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه⁽²⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية، للنّدي، ص 290.

(2) غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص 242، ونصب الرّاية، للزيلعي.

3 - جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي (ﷺ) الذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدّد فيه الموقف من اليهود، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديّته، أو مجوسيّته؛ فعليه الجزية»⁽¹⁾.

4 - جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر - وهو كافرٌ - مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين، وكسوةٍ للرّسول (ﷺ)، وبغلةٍ يركبها، فقبلها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإحدى هاتين الجاريتين ماريّة القبطيّة⁽²⁾.

نشاط:

اذكر أمثلة على بعض الأساليب الدعوية الحديثة.

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص 243.

المبحث الثالث

سريّة مؤتة (8 هـ)

أولاً: أسبابها:

بعد صلح الحديبية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عُمير الأزدي إلى حاكم (بُصرى) التابع لحاكم الرُّوم، فقام شرحبيل بن عمرو الغَسَّاني بضرب عنق رسول رسول الله، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغَسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله، وهدد بإعلان الحرب على المدينة.

وقد كان مقتل سفير رسول الله (ﷺ) الحارث بن عُمير الأزدي - محرّكاً لنفوس المسلمين، وباعثاً لهم ليضعوا حداً لهذه التصرفات العدوانية كما أنَّ تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانيّة، والَّذين دأبوا على استفزاز المسلمين، وتحدّيهم، وارتكاب الجرائم ضدّ دعائهم أصبح هدفاً مهمّاً؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه: فرض هيبة الدولة الإسلاميّة في تلك المناطق، بحيث لا تتكرّر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدُّعاة المسلمون على أنفسهم، ويأمن التُّجار المتردّدون بين الشّام والمدينة من كلّ أذىٍ يحول دون وصول السِّلَع الضّرورية إلى المدينة⁽¹⁾.

وفي سنة (8 هـ) أمر رسول الله (ﷺ) المسلمين بالتّجهُّز للقتال، فاستجابوا للأمر النبويّ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السّريّة **ثلاثة الاف مقاتل**، واختار النّبي (ﷺ) للقيادة ثلاثة أمراء على التّوالي: زيد بن حارثة، ثمّ جعفر بن أبي طالب، ثمّ عبد الله بن رواحة⁽²⁾.

وقد أمر رسول الله (ﷺ) الجيش الإسلاميّ أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير

(1) انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النّبوة، ص 89.

(2) انظر: الصّراع مع الصّليبيّين، ص 20.

الأزدي رضي الله عنه، وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا؛ فيها، ونعمت، وإن أبوا؛ استعينوا بالله عليهم، وقتلوه⁽¹⁾. وقد زوّد الرسول (ﷺ) الجيش في هذه السريّة، وغيرها من السرايا بوصايا تتضمّن آداب القتال في الإسلام⁽²⁾، فقد أوصى رسول الله (ﷺ) أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزو باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإمّا الإسلام، وإمّا الجزية، وإمّا الحرب»⁽³⁾.

ثانياً: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصل الجيش الإسلامي إلى معان من أرض الشام - وهي الآن محافظة من محافظات الأردن - بلغه: أنّ النصارى الصليبيين من عرب، وعجم قد حشدوا حشوداً ضخمة لقتالهم؛ إذ حشدت القبائل العربيّة مئة ألف صليبي من لخم، وجذام وجرّاء وبليّ، وعيّنت لهم قائداً، هو مالك بن رافلة، وحشد هرقل مئة ألف نصرائيّ صليبيّ من الرّوم، **فبلغ جيشهم مئتي ألف مقاتل**، مزوّدين بالسلاح الكافي، يرفلون في الدّياج لينبهر المسلمون بهم، وبقوّتهم⁽⁴⁾، ولقد قام المسلمون في معان يومين يتشاورون في التّصديّ لهذا الحشد الضّخم، فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله (ﷺ) في المدينة نخبره بحشود العدو، فإن شاء أمدّنا بالمدد، وإن شاء أمرنا بالقتال⁽⁵⁾، وقال بعضهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد، وأخفت أهلها، فانصرف، فإنّه لا يعدل العافية شيء⁽⁶⁾، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: يا قوم! والله إنّ الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشّهادة! وما نقاتل النّاس بعددٍ، ولا قوّة، ولا كثرة، ما نقاتلهم

(1) انظر: السيرة الحلبية (787/2).

(2) انظر: الصّراع مع الصّليبيين ، ص 21.

(3) انظر: المغازي (758. 757/2).

(4) انظر: شرح المواهب اللّدينية (271/2).

(5) انظر: زاد المعاد (382/3).

(6) انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (396/1).

إلا بهذا الدِّين الَّذِي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إمَّا ظُهُورٌ، وإمَّا شهادةٌ! فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاسِ إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث اثر الاصطدام بالرُّوم هناك، فكانت ملحمةٌ سجَّلَ فيها القادة الثلاثة بطولَةً عظيمةً انتهت باستشهادهم⁽¹⁾، فقد استبسل زيد بن حارثة رضي الله عنه، وتوغَّلَ في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله (ﷺ) حتَّى شاط (أي: سال دمه) في رماح القوم. [الطبراني في الكبير (4655)، وابن هشام (19/4)، ومجمع الزوائد (159/6)].

ثمَّ أخذ الرّاية جعفر، وانبرى يتصدَّى لجموع المشركين الصّليبيّين، فكثّفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السّوار بالمعصم، فلم تلن له قنّاةً، ولم تكن له عزيمةٌ؛ بل استمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه، وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حَبَّذا الجَنَّةُ وافترابُها طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُها
والرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُها كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُها
عَلَيَّ إِذْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُها

[انظر تخرّيج الحديث السابق].

لقد أخذ رضي الله عنه اللّواء بيده اليمنى، فقطعت، فأخذه بشماله، فقطعت، فاحتضنه بعضديه، وانحنى عليه حتَّى استُشْهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً، ولقد أُثخنَ رضي الله عنه بالجراح؛ إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنةٍ برمحٍ، أو ضربةٍ بسيفٍ، أو رميةٍ بسهمٍ، وليسمن بينهما جرح في ظهره، بل كلّها في صدره⁽²⁾. ولقد عوّض الله - تبارك وتعالى - جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأكرمه على شجاعته، وتضحّيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنّة حيث يشاء، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عامرٍ؛ قال: كان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر؛ قال: السّلام عليك يا بن ذي الجناحين. [البخاري (4264)، والبيهقي في الدلائل (372/4)].

(1) انظر: البَيِّرة النَّبَوِيَّة الصّحِيحة (468/2).

(2) انظر: الصّراع مع الصّليبيّين، ص 58.

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلم الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري

رضي الله عنه وامتطى جواده، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ	لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرِهَنَّ
إِنْ أَجْلَبَ ⁽¹⁾ النَّاسُ وَشَدُّوا	مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً	هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةٍ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي	هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ	إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتِ

[البهقي في الدلائل (363/4 - 364)، وابن هشام (21/4)، والهيتمي في مجمع الزوائد (159/6)].

ويذكر: أن ابن عمّ لعبد الله بن رواحة قد قدّم له قطعة من لحم، وقال له: شدّ بهذا صُلبك، فإنّك لقيت في أيّامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثمّ انتهش منه نخشةً، ثمّ سمع جلبةً، وزخاماً في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدنيا! ثمّ ألقى قطعة اللحم من يده، وتقدّم يقاتل العدو حتّى استشهد رضي الله عنه وكان ذلك في آخر النهار⁽³⁾.

ثالثاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولمّا استشهد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عديّ بن العجلان البلويّ الأنصاريّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا علرجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح الناس على خالد بن الوليد⁽⁴⁾، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد، فقال: خذ اللّواء يا أبا سليمان! فقال: لا اخذه، أنت أحقُّ به، أنت رجلٌ لك سنٌّ، فقد شهدت بدرًا، فقال ثابت: خذه أيّها الرّجل، فو الله ما أخذته إلّا لك!

(1) إن أجلب القوم: صاحوا، واجتمعوا

(2) الرّنة: صوت ترجيع شبه البكاء.

(3) انظر: الصّراع مع الصّليبيّين، ص 61.

(4) انظر: السيرة النبويّة، لابن هشام (27/4).

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه⁽¹⁾، وأصبحت الخطّة الأساسيّة المنوطة بخالدٍ في تلك السّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيّ، فبعد أن قدّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقدّيراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً، وتوقّع نتائجها اقتنع بأنّ الانسحاب بأقلّ خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلّ الأفضل، فقوّة العدوّ تبلغ (66) ضعفاً لقوّة المسلمين، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلاّ الانسحاب المنظّم، وعلى هذا الأساس وضع خالدُ الخطّة التالية:

أ - الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب - لبلوغ هذا الهدف لابدّ من تضليل العدوّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين، فيخفّف من ضغطه، وهجماته، ويتمكّن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالدٌ حتّى المساء عملاً بهذه الخطّة، وغيّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدّمة القلب بالمؤخّرة، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجّةً صاخبةً، وجلبةً قويّةً، ثمّ حمل على العدوّ، عند الفجر، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية، وقويّة؛ ليُدخل في زوّعه: أنّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين⁽²⁾.

ونجحت الخطّة؛ إذ بدا للعدوّ صباحاً: أنّ الوجوه والرّيات التي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنّهم تلقّوا إمدادات، وأنّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فتّ في عضد الرُّوم، وحلفائهم، فأدركوا أنّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ، فتخاذلوا، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخفّ الضّغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالدُ الفرصة، فباشر الانسحاب، وكانت عملية التّراجع التي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليّات في التاريخ العسكريّ مهارةً ونجاحاً، بل إنّها تتّفق وتتلاءم مع التّكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولمّا أصبح الجناحان بمنى

(1) انظر: إمتاع الأسماع (348/1، 349).

(2) البداية والنهاية (247/4)، والواقدي (764/2).

عن العدو وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكّن، وضمن سلامة الانسحاب كُلياً⁽¹⁾، ويقول المؤرّخون: إنّ خسارة المسلمين لم تتعدّ الاثني عشر قتيلًا في هذه المعركة، وإنّ خالدًا قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيّة». [البخاري (4265)، والبيهقي في الدلائل (373/4)].

ويمكن القول بأنّ خالدًا بخطّته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محقّقٍ، وأنّ انسحابه كان قمّة النصر بالنسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال، بل أجداها، وأنفعها⁽²⁾.

رابعاً: معجزة الرسول (ﷺ)، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزة للرسول (ﷺ) في أمر هذه السريّة، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً، وجعفرًا، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله (ﷺ) لما وقع للسريّة، وذرفت عيناه الدُموع، ثمّ أخبرهم بتسلّم خالدٍ للرّاية، وبشّرهم بالفتح على يديه، وأسماء: سيف الله⁽³⁾، وبعد ذلك قدّم من أخبرهم بأخبار السريّة، ولم يزد عمّا أخبرهم به النبي (ﷺ)⁽⁴⁾.

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقّاهم رسول الله (ﷺ)، والمسلمون، ولقيهم الصّبيان يشتدّون، ورسول الله (ﷺ) مقلّب مع القوم على دابةٍ، فقال: خذوا الصّبيان، واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله على يديه، وجعل النّاس يحثون على الجيش الثّراب، ويقولون: يا فُرّار! أفرتم من سبيل الله! ويقول رسول الله (ﷺ): «ليسوا بالفُرّار، ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى». [البيهقي في الدلائل (374/4)، وابن هشام (24/4)]⁽⁵⁾.

(1) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، ص 173.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 175.

(3) انظر: نضرة النعيم (360/1).

(4) انظر: البداية والنهاية (255/4).

(5) انظر: البيرة النبويّة، للنّدوي، ص 328، وتاريخ الذهبي، ص 491، والبداية والنهاية، لابن كثير، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

وإنَّ الإنسانَ ليعجب من هذه التَّربية النَّبَوِيَّة الَّتِي صَنَعَتْ مِنَ الْأَطْفَالِ الصِّغَارِ، رَجَالاً وَأَبْطَالاً يَرُونَ الْعُودَةَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ دُونَ شَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِرَاراً مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَكَاظُونَ عَلَيْهِ إِلَّا بَحْثُ التُّرَابِ فِي وَجُوهِهِمْ، فَأَيْنَ شَبَابُنَا الْمَتَسَكِّعُونَ فِي الشُّوَارِعِ، مِنْ هَذِهِ النَّمَاذِجِ الرَّفِيعَةِ مِنَ الرَّجُولَةِ الْفَذَّةِ الْمُبَكَّرَةِ؟! وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْأُمَّةُ أَنْ تَرْتَفِعَ إِلَى هَذِهِ الْأَهْدَافِ النَّبِيلَةِ، وَالْقِمَمِ الشَّوَامِخِ إِلَّا بِالتَّزْيِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَادَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْمَنَهِاجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ⁽¹⁾.

خامساً: دروس، وعبر، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروس، وعبر كثيرة؛ منها:

1 - أهميَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَرَبٍ، وَعَجَمٍ؛ لِأَنَّهَا أَوَّلُ صِدَامٍ مُسَلَّحٍ ذِي بَالٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَأَثَرَتْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةُ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ مَقْدَمَةً لِفَتْحِ بِلَادِ الشَّامِ، وَتَحْرِيرِهَا مِنَ الرُّومَانِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ تِلْكَ الْغَزْوَةَ هِيَ خُطْوَةٌ عَمَلِيَّةٌ قَامَ بِهَا النَّبِيُّ (ﷺ) لِلْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَةِ الرُّومِ الْمُتَجَبِّرَةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ، فَقَدْ هَزَّ هَيْبَتَهَا فِي قُلُوبِ الْعَرَبِ، وَأَعْطَتْ فِكْرَةَ عَنِ الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَظْهَرَتْ ضَعْفَ الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي الْقِتَالِ عِنْدَ الْجُنْدِيِّ الصَّلِيبِيِّ النَّصْرَانِيِّ⁽²⁾، وَأَعْطَتْ فُرْصَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى حَقِيقَةِ قُوَاتِ الرُّومِ، وَمَعْرِفَةِ أَسَالِيْبِهِمْ فِي الْقِتَالِ.

2 - حُبُّ الشَّهَادَةِ بَاعِثٌ لِلتَّضَحِّيَةِ.

3 - إِكْرَامُ النَّبِيِّ (ﷺ) لَالَ جَعْفَرٍ:

لَمَّا أَصِيبَ جَعْفَرٌ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ فَقَالَ: «اِئْتِنِي بِنِي جَعْفَرٍ»، فَأَتَتْ بِهِمْ، فَشَمَّهُمْ، وَقَبَّلَهُمْ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: أَبْلَغُكَ عَنْ جَعْفَرٍ، وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟

(1) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبَوِيِّ، ص 358.

(2) انظر: الصِّرَاعُ مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ، ص 64.

قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح، وتولول، فقال النبي (ﷺ): «لا تغفلوا عن ال جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم». [أحمد (380/6)، وابن ماجه (1611)، ومجمع الزوائد (161/6)، والبيهقي في الدلائل (370/4)، وابن هشام (22/4)]، ونلاحظ في هذا الخبر عدّة أمور؛ منها:

أ - جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفّي

ب - استحباب صنع الطّعام لأهل الميت

4 - من فقه القيادة:

إنّه درسٌ عظيمٌ يقدّمه لنا الصّحابيُّ الجليل ثابت بن أقرم العجلانيّ عندما أخذ اللّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه آخر الأمراء، وذلك أداءً منه للواجب؛ لأنّ وقوع الرّاية معناه: هزيمة الجيش، ثمّ نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطلح النّاس على خالدٍ.

ونلاحظ من هذه الرواية أنّ ثابتاً جمع المسلمين أولاً، وأعطى القوس باربيها، فأعطى الرّاية أبا سليمان خالد بن الوليد⁽¹⁾، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا؛ ذلك: أنّه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولّى العمل من ليس له بأهلٍ، فإنّ الفساد متوقّع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثرٌ لحبّ الشّهرة، أو حظّ النّفس.

إنّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين - وهو ممّن حضر بدرًا - ولكنّه رأى من الظّلم أن يتولّى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتّى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأنّ الغاية هي السّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن، والطريقة المثلى⁽²⁾.

إنّ كثيراً ممّن يتزعمون قيادة الدّعوة الإسلاميّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطّاقات الجديدة،

(1) انظر: التّاريخ الإسلامي، للحميدي (124/7).

(2) انظر: من معين السيرة، للشّامي، ص 376.

والقدرات الفدّة، خوفاً على مكانتهم القياديّة، وامتنيازاتهم الشّخصيّة، وأطماعهم الدُّنيويّة، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدّرس البليغ لمن كان له قلب، أو ألقى السّمع وهو شهيد.

5- نستدل من تجهيز النبي عليه السلام لهذا الجيش بعد إستشهاد رسوله (الحارث بن عمير الازدي) أهمية المحافظة على كرامة المسلمين.

نشاط:

استنتج دروساً أخرى من هذه الغزوة.

الفصل الثاني عشر

غزوة فتح مكة (8 هـ)

المبحث الأول

أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

أولاً: أسبابها:

1 - ارتكبت قريش خطأ فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخیل، والسِّلاح، والرِّجال في هجوم بني بكرٍ، وحلفائهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوثير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها⁽¹⁾، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعي في أربعين من خُزاعة، حتَّى قدموا على رسول الله (ﷺ) في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم.

فقال النبي (ﷺ): «نُصرتَ يا عمرو بن سالم!». [البهقي في الكبرى (233/9 - 234)، وفي الدلائل (6/5 - 7)، وابن هشام (36/4 - 37)، وابن كثير في البداية والنهاية (278/4)].

2 - أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُّلح، وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة، ودخل على رسول الله (ﷺ) يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ (ﷺ)، ولم يجبه، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله (ﷺ)، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ، أو عهدٍ⁽²⁾، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لمَّا دخل على ابنته أمِّ حبيبة - أمِّ المؤمنين - وأراد أن يجلس على فراش رسول الله (ﷺ)؛ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

(1) انظر: الواقدي (781/2 . 784).

(2) انظر: التَّاريخ السِّيَاسي والعسكري، د. علي معطي، ص 365.

قالت: بل هذا فراش رسول الله (ﷺ)، وأنت مشرك نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ⁽¹⁾.

وهذا الموقف لا يستغرب من أمّ حبيبة، فهي ممّن هاجر الهجرتين، وقد قطعت صلاتها بالجاهليّة منذ أمدٍ بعيد، إنّها لم تر أباه منذ ستّ عشرة سنة، فلمّا رآته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدّر، ويُحترم، وإنّما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام، وحارب رسوله (ﷺ) تلك السّنّات الطويلة⁽²⁾، وهذا ما كان يتّصف به الصّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء، والبراء، وإعزاز الإسلام، والمسلمين.

وفي مخاطبة أمّ حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب - مع كونه أباه، ومع مكانته العالية في قومه، وعند العرب - دليلٌ على قوّة إيمانها، ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أمّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمّيّته البالغة في المحافظة على شخصيّة المسلم، ودفع معنويّته إلى النّماء، والحيويّة⁽³⁾.

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين، فقد عزم رسولُ الله (ﷺ) على فتح مكّة، وتأديب كفّارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدّة أسبابٍ منها:

أ - قوّة جبهة المسلمين الدّاخليّة في المدينة، وتماسكها، فقد تخلّصت الدّولة الإسلاميّة من غدر اليهود، وتمّ القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النّضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب - ضعف جبهة الأعداء في الدّاخل؛ وفي مقدّمة هؤلاء: المنافقون؛ الذين فقدوا الركن الرّكين لهم، وهو يهود المدينة، فهم أساتذتهم الذين يوجّهونهم، ويشيرون عليهم.

ج - اهتمّ رسول الله (ﷺ) بتطوير القوّة العسكريّة، وإرسال السّرايا في فترة الصّلح، وبذلك أصبحت متفوّقةً على قوّة مشركي قريش، حيث العدد والعُدّة، والرّوْح المعنويّة.

(1) انظر: البداية والنهاية (479/4)، والإصابة، لابن حجر، ومحمّد (ص)، لمحمّد رضا (غزوة فتح مكة).

(2) انظر: من معين البتيرة، ص 395.

(3) انظر: التّاريخ الإسلاميّ (170/7، 171).

د - كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً، وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً، فقد فتح المسلمون خيبر، وغنموا منها أموالاً كثيرةً.

هـ - انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قوّاتها، ومهاجمة أعدائها.

و - قيام السبب الجوهريّ، والقانونيّ لغزو مكّة، وهو نقض قريش للعهد، والعقد⁽¹⁾، ونلاحظ: أنّ النّبِيَّ (ﷺ) لم يضيّع قانون الفرصة، وتعامل معه بحكمةٍ بالغةٍ، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية، والان تُتاح فرصةٌ أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيّرت موازين القوى في المنطقة، فكان لابدّ من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعدَّ (ﷺ) جيشاً لمتشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدّته إلى عشرة آلاف رجل⁽²⁾.

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إنّ حركة النّبِيَّ (ﷺ) في بناء الدولة، وتربية المجتمع، وإرسال السّرايا، وخروجه في الغزوات تعلّمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب، سواءً كانت تلك الأسباب مادّيّة أو معنويّة، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحةً في هديه (ﷺ)، فعندما قرّر (ﷺ) السّير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتّى لا يصل الخبر إلى قريش، فتعدّ العدّة لمجابهته، وتصدّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

1 - أنّه كتم أمره حتّى على أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النّبِيُّ (ﷺ) بمبدأ السّريّة المطلقة، والكتمان الشّديد حتّى عن أقرب الناس إليه، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحبّ نسائه إليه، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن أهدافه الحقيقية، ولا اتّجاه حركته، ولا العدو الذي ينوي قتاله،

(1) انظر: البيرة، لأبي فارس، ص 401.

(2) انظر: الكامل في التاريخ (244/2)، والتّاريخ السياسي والعسكري، ص 366.

بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول (ﷺ) قالت له: ما سمى لنا شيئاً، وكانت أحياناً تصمت، وكلا الأمرين يدلان على أنها لم تعلم شيئاً عن مقاصده (ﷺ) (1).

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يُدعْنَ شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية، فتتناقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة (2).

2 - أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء.

3 - دعاؤه (ﷺ) بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله (ﷺ) بالأسباب البشرية التي في استطاعته؛ توجه إلى الله - عز وجل - بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم، وأبصارهم فلا يَرُونَا إِلَّا بَغْتَةً، وَلَا يَسْمَعُونَ بِنَا إِلَّا فَجْأَةً». [البهقي في الدلائل (11/5)] (3).

وهذا شأن النبي (ﷺ) في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع، والدعاء لرب البرية؛ ليستمد منه التوفيق والسداد.

4 - إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي (ﷺ) استعداداته للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي (ﷺ) إليهم، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أطلع نبيه (ﷺ) عن طريق الوحي على هذه الرسالة، ففضى (ﷺ) على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي (ﷺ) علياً، والزبير، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً

(1) انظر: البداية والنهاية (282/4)، والرسول القائد (ص)، محمود شيت خطاب، ص 333، 334.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص)، ص 395، 396.

(3) انظر: البداية والنهاية (282/4)، ومحمد (ص) (غزوة فتح مكة)، محمد رضا.

من المدينة، وهَدَّ دُوحَا أَنْ يَفْتِشُوهَا إِنْ لَمْ تُخْرِجِ الْكِتَابَ؛ فَسَلَّمَتْهُ لَهُمْ، ثُمَّ اسْتَدْعَى حَاطِباً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلتَّحْقِيقِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امِراً مُلَصِّقاً فِي قَرِيْشٍ - يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفاً - وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَاداً عَنْ دِينِي، وَلَا رِضاً بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ».

فَقَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ! فَقَالَ (ﷺ): «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ⁽¹⁾». [أحمد (79/1 - 80)، والبخاري (3983)، ومسلم (2494)].

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1].

يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرِ آلِ عَابِدٍ: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَجَّدَهَا تَمْهِيداً بَيْنَ يَدَيِ فَتْحِ مَكَّةَ حَيْثُ حَثَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدَمِ مَوَالَاةِ الْكُفَّارِ، حَتَّى لَا يَتَأَثَّرَ الْمُهَاجِرُونَ بِرَوَابِطِ الرَّحِمِ، وَالْقُرْبَى، وَالْمَصْلَحَةِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبِطُ كَثِيراً مِنْهُمْ بِأَهْلِ مَكَّةَ⁽²⁾.

وَهَذَا مِنْهُجُ نَبِيِّ حَكِيمٍ، فَلَمْ يَنْظُرِ النَّبِيُّ (ﷺ) إِلَى حَاطِبٍ مِنْ زَاوِيَةِ مُخَالَفَتِهِ تِلْكَ فَحَسَبَ، وَإِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً، وَإِنَّمَا رَاجَعَ رَصِيدَهُ الْمَاضِي فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِعْزَازِ دِينِهِ، فَوَجَدَ: أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَفِي هَذَا تَوْجِيهٌ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى أَصْحَابِ الْأَخْطَاءِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَنْظُرُوا فِيمَا قَدَّمُوهُ لَأَمَّتِهِمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ، وَالْعِلْمِ، وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ

(1) انظر: تفسير القرطبي (52/18).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (568/2، 569).

الَّذِي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمة يستحقُّ التقدير، وإن بدرت منه بعض الأخطاء، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً، وزلةً قدم، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علمياً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

ومما يجدر التنويه له انه لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بداراً، فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقَّهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقُّه⁽¹⁾.

ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداث في الطريق:

1 - خرج رسول الله (ﷺ) قاصداً مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة⁽²⁾

وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسُرَّ (ﷺ)⁽³⁾، وفي خروج العباس بأهله، وأولاده من مكة وكان بها بمثابة المراسل العسكري، أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت، وخاصَّةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكة كان بأمر الرِّسول (ﷺ)⁽⁴⁾.

(1) المستفاد من قصص القرآن (402/2).

(2) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 560 ، 561.

(3) انظر: البداية والنهاية (286/4) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص 406.

(4) انظر: تأملات في السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد السيد الوكيل ، ص 254.

2 - النُّزول بِمَرِّ الظَّهْران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله (ﷺ) سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران⁽¹⁾، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النَّيرانَ، فأوقِدَت عشرةُ آلافِ نارٍ، وجعل رسولُ الله (ﷺ) على الحرس عمرَ بن الخطَّاب⁽²⁾.

قال العَبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله (ﷺ) مَكَّةَ عَنُوءَ قبل أن يأتوه، فيستأمنوه: إِنَّه لَهلاك قريش إلى آخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله (ﷺ)، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مَكَّةَ؛ فلقي أبا سفيان قد خرج من مكة ومعه نفر يلتمسون الأخبار فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمَّا راه رسولُ الله (ﷺ)، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أَنَّهُ لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنيَّ بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أَيُّ رسولُ الله؟!».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك! أمَّا هذه والله! فَإِنَّ في النَّفس منها حَتَّى الان شيئاً. فقال له العَبَّاس: ويحك! أسلم قبل أن تُضْرَبَ عنقُك، قال: فشهد شهادة الحقِّ، فأسلم.

قال العَبَّاس: قلت: يا رسول الله! إِنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله (ﷺ): «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند حَظْمِ الجبل، حَتَّى تمرَّ به جنود الله، فيراها».

قال: فخرجت حَتَّى حبسْتُهُ حيث أمرني رسول الله (ﷺ) ومرَّت القبائل على راياتها، كُلُّها مرَّت قبيلةً؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي، ولِسُلَيْم! ثُمَّ تمرُّ به القبيلة،

(1) مَرِّ الظَّهْران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ 22 كم.

(2) انظر: من معين السيرة ص 387، والطبقات لابن سعد (2/135).

فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: مالي ولمزينة!... حتّى مرّ به رسول الله (ﷺ) في كتيبتة الخضراء، فيها المهاجرون، والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَقُ من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ﷺ) في المهاجرين، والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قبْل، ولا طاقة! ثمّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنّها التّبوءة. قال: فنعلم إذاً، قال: قلت: النّجاء إلى قومك. [البخاري (4280) وعبد الرزاق في المصنف (374/5 - 378)، وابن سعد (134/2 - 137)، والبيهقي في الدلائل (32/5 - 35)، والمطالب العالية (244/4 - 246)، ومجمع الزوائد (164/6 - 167)، وابن هشام (44/4 - 47)]⁽¹⁾.

إنّ في هذه القصة دروساً، وعبراً، وحِكماً في كيفيّة معاملة رسول الله (ﷺ) للنّفوس البشريّة، ومن أهم هذه الدّروس:

1 - كان هذا الأسلوب التّبويّ الكريم في التعامل مع أبي سفيان بالحلم ودعوته للإسلام عاملاً على امتصاص الحِقْد من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأنّ المكانة الّتي كانت له عند قريش لن تنقص شيئاً في الإسلام؛ إنّ هو أخلص له، وبذل في سبيله⁽²⁾، وهذا منهجُ نبويّ كريمٍ على العلماء، والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع النّاس.

2 - وفي قول رسول الله (ﷺ) لعَمِّه العبّاس عن أبي سفيان: «أحبّسْه بمضيق الوادي، حتّى تمرّ به جنود الله، فيراها»⁽³⁾ ففعل العبّاس، وكان (ﷺ) يريد أن يشنّ حرباً نفسيّة للتأثير على معنويّات قريش، حتّى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكّة.

لقد تعمّد النّبِيُّ (ﷺ) شنّ الحرب النّفسيّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكّة، حيث أمر رسول الله (ﷺ) بإيقاد النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتّى ملأت الأفق، فكان

(1) انظر: صحيح السيرة النبويّة، ص 518، 519، 520.

(2) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبويّة، لمحمد رواس، ص 245.

(3) انظر: سيرة ابن هشام (52/4).

لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ، كادت تنخلع قلوب القرشيين من شدّة هولهِ⁽¹⁾، وقد قصد النبي (ﷺ) من ذلك تحطيم نفسيّات أعدائه، والقضاء على معنويّاتهم حتّى لا يفكروا في أيّة مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام؛ لكي يتمّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمّ له (ﷺ) ما أراد، ولقد كان اهتمام النبي (ﷺ) بمعنويات المقاتل ونفسيّته سبقاً عسكريّاً، بدليل أنّ المدارس العسكريّة الّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية، والاهتمام من النّاحية العسكريّة⁽²⁾.

(1) انظر: الطبقات ، لابن سعد (135/2).

(2) انظر: العبقريّة العسكريّة ، وغزوات الرّسول (ص) ، تأليف اللّواء محمّد فرج ، ص 565.

المبحث الثاني

خُطَّةُ النَّبِيِّ (ﷺ) لدخول مكة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصحابة:

قسم الرسول عليه السلام الجيش الى اربع فرق بقيادته وكان الزبير بن العوام على المهاجرين و خالد بن الوليد في قبائل قضاة، وسليم، وغيرهم و سعد بن عباد في كتيبة الأنصار ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم⁽¹⁾، وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكلٌّ قد عرف ما أُسند إليه من مهام، والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه⁽²⁾.

ودخلت قوَّات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في إنٍ واحدٍ، ولم تلق تلك القوات مقاومةً، إلا ما كان من المنطقة التي توجَّه إليها خالد⁽³⁾، فقد لقي مقاومة ضعيفة استطاع ان يقضي عليها ويشتت شمل افرادها. لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً، ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمدٌ جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرَّق النَّاس إلى دورهم، وإلى المسجد⁽⁴⁾.

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءٌ بغير إحرامٍ، [أحمد (363/1) ومسلم (1358)، وأبو داود (4076)، والترمذي (1735)، والنسائي (201/5)، وابن ماجه (2822)]، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحْلِ. [البهقي في الدلائل (68/5)، والحاكم (47/3)، وأبو يعلى (3393)، ومجمع الزوائد (169/6)]. ودخل وهو يقرأ سورة

(1) انظر: من معين البيرة ، ص 390.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص 397.

(4) انظر: البداية والنهاية (290/4).

الفتح. [البخاري (4281)، ومسلم (238/794)] مستشعراً نعمة الفتح، وغفران الذُّنوب، وإفاضة النَّصر العزيز⁽¹⁾، وعندما دخل مَكَّة فاتحاً - وهي قلبُ جزيرة العرب، ومركزُها الرُّوحيُّ، والسِّيَاسيُّ - رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة، والتَّواضع، والخضوع، فأردف أسامة بن زيدٍ، [البخاري (4289)]: وهو ابن مولى رسول الله (ﷺ)، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم، وأبناء أشراف قريش، وهم كثير، وكان ذلك صبحيوم الجمعة لعشرين ليلةً خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة⁽²⁾.

هذا وقد حرص النَّبيُّ (ﷺ) على تأمين الجبهة الدَّاخِلية في مَكَّة عند دخوله يوم الفتح، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادَةَ لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة، قال (ﷺ): «هذا يوم يُعظَّم الله فيه الكعبة، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» [البخاري (4280)، والبيهقي في الدلائل (38/5)، والطبري في تاريخه (118/3)]. وأخذ الراية من سعد بن عبادَةَ، وسلَّمها لابنه قيس بن سعدٍ، وبهذا التَّصَرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيةٍ هُم في غنى عنها، وفي الوقت نفسه لم يُثِرْه، ولا اثار الأنصارَ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاريٍّ ويسلِّمها لمهاجرٍ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدُ أفضلٍ منه إلا ابنه⁽³⁾.

ولمَّا نزل رسولُ الله (ﷺ) بمَكَّة، واطمأن النَّاسُ، خرج حتَّى جاء البيت، فطاف به، وفي يده قوسٌ، وحول البيت وعليه ثلاثمئة وستون صنماً، فجعل يطعنُها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49]، والأصنام تتساقط على وجوهها⁽⁴⁾، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصر الله، وعظيم تأييده لرسوله (ﷺ)؛ إذ كان يطعن تلك الالهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه، فما يكاد يطعن

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص 396.

(2) انظر: السيرة النَّبوية، لأبي الحسن النَّدوي، ص 337.

(3) انظر: قيادة الرسول (ص) السِّيَاسية والعسكِرِيَّة، ص 196.

(4) انظر: السيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص 339.

الواحد منها بعصاه، حتّى ينكفى على وجهه، أو ينقلب على ظهره جُذاذاً⁽¹⁾، ورأى في الكعبة الصُور، والتّمثيل؛ فأمر بالصُور، وبالتّمثيل فكسرت⁽²⁾، وأبى أن يدخل جوفالكعبة حتّى أخرجت الصُور، وكان فيها صورة يزعمون: أنّها صورة إبراهيم، وإسماعيل، وفي أيديهما من الأزام، فقال النّبي (ﷺ): «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطُّ». [أحمد (365/1)، والبخاري (4288)]. وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم، فأراد عليّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السّقاية، لكن النّبي (ﷺ) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، وردّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برّ ووفاء» [الطبراني في الكبير (8395)، وعبد الرزاق في المصنف (83/5 - 84)، ومجمع الزوائد (177/6)]⁽³⁾، وكان (ﷺ) قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول، ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان! لعلّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت». فقال: لقد هلك قريش يومئذٍ، وذلت، فقال: «بل عمّرت، وعزّزت يومئذٍ» ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظنّ: أنّ الأمر سيصير إلى ما قال⁽⁴⁾، ولقد أعطى له رسول الله (ﷺ) مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برّ ووفاء» [سبق تحريجه]⁽⁵⁾، «خذوها خالدة، تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم»⁽⁶⁾.

هذا وقد أمر النّبي (ﷺ) بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤدّن بالصّلاة، فصعد بلال، وأدّن بالصّلاة، وأنصت أهل مكّة للنّداء الجديد على اذانهم كأثهم في حلم، إنّ هذه الكلمات تقصف في الجوّ فتقذف بالرّعب في أفئدة الشّياطين، فلا يملكون أمام دويّها إلا أن يولّوا هارين، أو يعودوا مؤمنين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر⁽⁷⁾.

(1) انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 282.

(2) انظر: السيرة النبوية، للتدوي، ص 339.

(3) المصدر السابق نفسه (61/4) والبداية والنهاية، لابن كثير.

(4) انظر: المغازي (838/2).

(5) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (62/4).

(6) انظر: المغازي (838/2).

(7) انظر: فقه السيرة للقرطبي، ص 383.

ذلك الصَّوت الَّذِي كَانَ يَهْمِسُ يَوْماً مَا تَحْتَ أَسْوَاطِ الْعَذَابِ: أَحَدًا! أَحَدًا! أَحَدًا! هَاهُوَ الْيَوْمَ يَجْلُجُلُ فَوْقَ كَعْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَائِلاً: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ!؛ وَالْكُلُّ خَاشِعٌ مُنْصِتٌ خَاضِعٌ⁽¹⁾.

ثالثاً: إعلان العفو العام:

1 - نال أهل مكة عفواً عاماً برغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرَّسُولِ (ﷺ) ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادةهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرَّسُولِ (ﷺ) فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!»، فقالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم!». [البهقي في الكبرى (118/9)، وفي الدلائل (58/5)، وابن سعد (2/141 - 142)]⁽²⁾.

2 - إهدار النَّبِيِّ (ﷺ) لبعض الدِّماء:

إلى جانب ذلك الصَّفْحِ الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذِي لَا بَدَّ أَنْ تَتَّصِفَ بِهِ الْقِيَادَةُ الْحَكِيمَةُ ، وَلِذَلِكَ اسْتَنْتَى قَرَارَ الْعَفْوِ الشَّامِلِ بَضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ - وَإِنْ وَجَدُوا مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ -؛ لِأَنَّهُ عَظُمَتْ جَرَائِئُهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا كَانَ يَخْشَاهُ مِنْهُمْ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ النَّاسِ بَعْدَ الْفَتْحِ⁽³⁾.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَ مُسْلِماً تَائِباً، فَعَفَا عَنْهُ الرَّسُولُ (ﷺ)، وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ⁽⁴⁾.

3 - خطبة النَّبِيِّ (ﷺ) غداة الفتح، وإسلام أهل مكة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبِيُّ (ﷺ): أَنَّ خِزَاعَةَ حُلَفَاءِهِ عَدَتْ عَلَى رَجُلٍ مِنْ هَذِيلٍ، فَقَتَلُوهُ،

(1) انظر: فقه البصرة للبوطي ، ص 269.

(2) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص 179.

(3) انظر: البصرة النبوية ، لأبي شهبه (2/451) ، وتأملات في السيرة ، ص 262.

(4) انظر: البصرة النبوية ، لأبي شهبه (2/451).

وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليّة، فغضب، وقام بين النّاس خطيباً، فقال: «يا أيُّها النّاس! إنّ الله قد حرم مَكَّةَ يوم خلق السّماوات، والأرض، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضدَ - يقطع - فيها شجرًا، لم تحلَّ لأحدٍ كان قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تحلَّ لي إلا هذه السّاعة غضباً على أهلها، ثمّ قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشّاهدُ منكم الغائب، فمن قال لكم: إنّ رسول الله (ﷺ) قد قاتل فيها، فقولوا: إنّ الله قد أحلّها لرسوله، ولم يحلّها لكم».

كان من أثر عفو النّبي (ﷺ) الشّامل عن أهل مَكَّة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مَكَّة رجالاً، ونساءً، وأحراراً، وموالي في دين الله طواعيةً، واختياراً، وبدخول مَكَّة تحت راية الإسلام دخل النّاس في دين الله أفواجاً، وتمتّ النّعمة ووجب الشُّكر⁽¹⁾، وبايع رسول الله (ﷺ) النّاس جميعاً، الرّجال، والنّساء، والكبار، والصّغار.

رابعاً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طُهرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان التي كانت فيه، كان لابدّ من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان، فكانت معالم للجاهليّة ردحاً طويلاً من الزّمن⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه (456/2).

(2) [انظر: من معين البّيّرة، ص 394.

المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

1- تواضع النبي (ﷺ):

لقد تجلّى تواضع النبي عليه السلام بأبهى صورته عند دخوله مكة خاشعاً متواضعاً متساعماً مع أهلها كما تجلّى في صور كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قصة إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: لما دخل رسول الله (ﷺ) مكة، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما راه رسول الله (ﷺ) قال: «هلاً تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا اتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر، وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله (ﷺ): «غيّروا هذا من شعره» [أحمد (349/6 - 350)، والطبراني في الكبير (88/24 - 89) برقم (236)، وابن حبان (7208)، والحاكم (46/3 - 47)، ومجمع الزوائد (173/6 - 174/6)]⁽¹⁾، ويروى: أن رسول الله (ﷺ) هنا أبا بكرٍ بإسلام أبيه⁽²⁾.

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنّه النبي (ﷺ) في توقير كبار السنِّ واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله (ﷺ): «ليس منّا من لم يوقّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا» [أحمد (257/1)، والترمذي (1921)، وابن حبان (459)].

وقوله (ﷺ): «إنّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» [أبو داود (4843)]، كما أنّه (ﷺ) سنّ إكرام أقارب ذوي البلاء، والبذل، والعطاء، والسَّبق في الإسلام؛ تقديرًا لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين، ونصر دعوة الله تعالى⁽³⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (54/4، 55).

(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 577.

(3) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (195/7).

2- عفو النَّبِيِّ (ﷺ) وحلمه.

3- تعظيم حدود الله:

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سُرقت في عهد رسول الله (ﷺ) في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونهُ، قال عروة: فلمَّا كلَّمهُ أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله (ﷺ)، فلمَّا كان العشيُّ؛ قام رسول الله (ﷺ) خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثمَّ قال: «أما بعد، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّرِيف؛ تركوه، وإذا سرق فيهم الضَّعِيف، أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سُرقت؛ لقطعت يدها»، ثمَّ أمر رسول الله (ﷺ) بتلك المرأة ففُطِعتُ يدها، فحسنت توبُّتها بعد ذلك وتزوَّجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرْفُع حاجتها إلى رسول الله (ﷺ). [البخاري (4304)، ومسلم (9/1688)].

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأُمَّة، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع ربَّانيٍّ لا يفرق بين النَّاس.

نتائج فتح مكَّة

كان لفتح مكَّة نتائج كثيرة؛ منها:

- 1 - دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين، والطائف، ومن ثمَّ في العالم أجمع.
- 2 - أصبح المسلمون قوَّةً عظمت في جزيرة العرب، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنيَّة الرِّسول (ﷺ) بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يستطيع أيُّ تجمُّع قبليٍّ الوقوف في وجهها، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لعبادة الله وحده (1).

(1) انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسية والعسكريَّة، لأحمد عرموش، ص 129.

3 - كان لهذا الفتح اثارٌ عظيمةٌ دينيّةٌ، وسياسيّةٌ، واجتماعيّةٌ، وقد بدأت هذه الاثار بصورة يلمسها كلُّ مَنْ يُمعن النظر في هذا الفتح المبارك.

فأمّا الاثار الاجتماعية؛ فتمثّلت في رفقه (ﷺ) بالنّاس، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلّمهم، ويفقّهم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكّة بعد انصرافه عنها ليصلي بالنّاس، ويفقّهم في دينهم.

وأمّا الاثار السياسيّة، فقد عيّن عتّاب بن أسيد أميراً على مكّة، يحكم بين النّاس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظّالم⁽¹⁾.

وأمّا الاثار الدّينيّة؛ فإنّ فتح مكّة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الدّين الذي ارتضاه الله لعباده، فدخلوا فيه أفواجا⁽²⁾.

4 - تحقّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصّادقين، بعدما ضحّوا بالغالي، والنّفيس، وحقّقوا شروط التّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحلها، وتعاملوا مع سننه، كسنّة الابتلاء، والتّدافع، والتّدريج، وتغيير النّفوس، والأخذ بالأسباب.

(1) انظر: تأملات في سيرة الرّسول (ص)، ص 266.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 267.

الفصل الثالث عشر

غزوة حنين، والطائف (8 هـ)

المبحث الأول

أسبابها، وأحداث المعركة

لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَخَضَعَتْ لَهُ قَرِيشٌ، خَافَتْ هَوَازِنُ، وَثَقِيفٌ، وَقَالُوا: قَدْ فَرَّغَ مُحَمَّدٌ لِقَاتِنَا، فَلَنَغْزِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْزُونَا، وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى هَذَا، وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ مَالِكََ بْنِ عَوْفِ النَّضْرِيِّ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ هَوَازِنُ، وَثَقِيفٌ وَبَنُو هَلَالٍ، وَلَمْ يَحْضُرْهَا مِنْ هَوَازِنَ كَعْبٌ، وَكِلَابٌ، وَكَانَ مَعَهُمْ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِشِدَّةِ الْبَأْسِ فِي الْحَرْبِ، وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كَبِيرًا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا الرَّأْيُ، وَالْمَشُورَةُ.

وَكَانَ رَأْيُ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ أَنْ يُخْرِجُوا وَرَاءَهُمُ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِي، وَالْأَمْوَالَ حَتَّى لَا يَفْرُوْا، فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ دُرَيْدٌ؛ سَأَلَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ، وَمَالَهُ؛ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ، فَقَالَ دُرَيْدٌ: رَاعِي ضَائِنَ اللَّهِ، وَهَلْ يَرُدُّ الْمُنْهَزَمَ شَيْءٌ؟! إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَكَ؛ لَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، وَرِمْحِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ؛ فُضِّحَتْ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ!! وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ لِمَشُورَتِهِ⁽¹⁾.

أهمُّ أحداث غزوة حنين:

تَحَرَّكَ الْمُسْلِمُونَ بِاتِّجَاهِ حَنِينَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَوَّالٍ، وَوَصَلُوا حَنِينَ فِي مَسَاءِ الْعَاشِرِ مِنْ شَوَّالٍ⁽²⁾، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ الرَّسُولَ (ﷺ) عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ عِنْدَ خُرُوجِهِ، وَكَانَ عِدَدُ جَيْشِ

(1) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبه (467/2)، والسيرة النبوية، لابن هشام (88/4).

(2) انظر: طبقات ابن سعد (150/2).

المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين، أمّا عدد هوازن، وثقيف: فكانوا ضعف عدد المسلمين، أو أكثر، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المسلمين؛ قالوا: لن نُغَلَبَ اليوم من قَلّة، ودخل الإعجابُ في النُّفوس⁽¹⁾.

أ - التعبئة التي اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن، وثقيف:

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً، مرّت بمراحل:

1 - رفع الرُّوح المعنويّة لدى جنوده

2 - حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش

3 - تجريد السيوف، وكسر أجفانها

4 - وضع الكمائن لمباغطة جيش المسلمين والانتقاض عليهم

5 - الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين

6 - شن الحرب النفسيّة ضدّ المسلمين:

وذلك بأن عمد إلى عشرات الالاف من الجمال التي صاحبها معه في الميدان، فجعلها وراء جيشه ثمّ أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ، وهو ليس كذلك⁽²⁾.

ب - خطوات الرّسول (ﷺ) لصدّ هذه الحشود:

لَمَّا بلغ النبي (ﷺ) عزم هوازن على حربه بعد أن تمّ له فتح مكّة - شَرَفَهَا اللهُ - قام بالآتي:

1 - استطلاع خبر العدو فقد أرسل عبد الله بن أبي حذرّد الأسلمي حتّى يوافيه بخبر

هوازن.

(1) انظر: البيرة النبويّة الصّحيحة (497/2).

(2) انظر: غزوة حنين، للشّيخ محمّد أحمد باشميل، ص 128 . 131.

2 - إعداد الجيش وقوامه عشرة الاف، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح وإعداد عُدَّة الجيش، واستعارة الدُّروع، والرِّماح.

3 - ثباته (ﷺ) وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثُّوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته، وأشجاره، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغته المسلمين بالسِّهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين، ، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعض، ونتيجةً لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش، ولاذوا بالفرار، كلٌّ يطلب النِّجاة لنفسه، وبقي الرِّسول (ﷺ)، ونفرٌ قليل في الميدان يتصدَّون لهجمات المشركين، وترك العباس عمَّ الرسول (ﷺ) يصف لنا ذلك المشهد المهيِّب، حيث يقول: شهدت مع رسول الله (ﷺ) يوم حنين، فلزمتُ أنا، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله (ﷺ)، فلم نفارقه، ورسول الله (ﷺ) على بغلةٍ له بيضاء، فلمَّا التقى المسلمون والكفار ؛ ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله (ﷺ) يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار، قال العباس: وأنا اخذ بلجام بغلة رسول الله (ﷺ) أَكْفُها إرادةً ألاَّ تسرع، وطلب رسول الله من العباس ان ينادي في المسلمين فنأدى فيهم حتى تجمع عدد مع رسول الله عليه السلام يقاتلون حتى ايد الله تعالى نبيه عليه السلام بالنصر فتجمع المسلمون وبدأوا يطاردون فلول الفارين من الأعداء الى الطائف.

محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله (ﷺ) أهل الطَّائف واستخدم أساليب متنوعةً في القتال، والحصار، ومارس الشُّورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النَّفسِيَّة، والدِّعاية في صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

1 - استخدم (ﷺ) أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النبي (ﷺ) في حصاره للطائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي: المنجنيق والدبابة والحسك الشائك (يُعمل من خشبتين تُسَمَّان على هيئة الصليب، حتى تتألف منها أربعة شعبٍ مدببة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل، والمشاة، فتتعلّل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال)⁽¹⁾.

2 - اختيار رسول الله (ﷺ) مكاناً مناسباً عند القتال.

3 - استخدام الحرب النفسية والدعاية:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف، وقتلوا مجموعةً من المسلمين؛ أمر النبي (ﷺ) بتحريق بساتين العنب، والتخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرحم أن يترك هذا العمل، ووجه النبي (ﷺ) نداءً لِعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن، ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكره الثَّقَفي، فأسلموا، فأعتقهم، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم⁽²⁾.

4 - الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله (ﷺ) في رفع الحصار واضحةً، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعها سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله (ﷺ) مَنْ حوله في عملية الحصار⁽³⁾.

(1) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، للواء عبد الرؤوف عون، ص 195.

(2) انظر: البيرة النبوية الصحيحة (510/2).

(3) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، ص 206.

المبحث الثاني

دروس وعبر من غزوة حنين

1- الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: 25 - 27].

2 - الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفا لقلوبهم لحدثة عهدهم بالإسلام فأعطى لزعماء قريش وخطفان وتميم عطاءً عظيماً.

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت بينهم قالة، فراعى (ﷺ) هذا الاعتراض، وعمل على إزالة التوتر، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً، عقلياً، عاطفياً، وجدانياً، ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور، وكر العصور، وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم. فقد وقف الرسول عليه السلام في الأنصار خطيباً فقال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغني عنكم، وحدة وجدتموها في أنفسكم، ألم اتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالة، فأغناكم الله بي، وأعداء، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمن، وأفضل، ثم قال: «ألا تحبونني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المن، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم، فلصدقتهم، ولصدقتهم: أتيتنا مكذباً، فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فاويناك، وعائلاً فأسيناك، أو جدتم عليّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً؛

ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب الناس بالشَّاء⁽¹⁾، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً، ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، ووادياً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار، وواديها، الأنصارُ شِعَارُ، والنَّاسُ دثار⁽²⁾، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله (ﷺ) قَسْماً وحظاً، ثمَّ انصرف رسول الله (ﷺ) وتفرَّقوا. [أحمد (76/3 - 77)، ومجمع الزوائد (32/10)]⁽³⁾، وفي رواية: «إِنَّكُمْ ستلقون بعدي أثرَةً، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» [البخاري (4330)، ومسلم (1061)].

والتَّأْلِيفُ لهذه الطَّائِفَةِ إمَّا هو من قبيل الإغراء، والتَّشْجِيعِ في أوَّل الأمر، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوَّق حلاوته.

3- الصَّبْرُ على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله (ﷺ) الكثير من الصَّبْرِ على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثلاً للمرِّيِّ الَّذِي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتهم، وطبيعة حياتهم من القساوة، والفظاظة، ومن المواقف التي تدلُّ على حسن معاملة رسول الله (ﷺ) للأعراب:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ حَنِينٍ أَثَرِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) نَاساً فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَساً مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ! إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُذِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللَّهِ! قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، قَالَ: فَاتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ،

(1) بالشَّاء: أي: البَيْتِيَّاه، وهي الأغنام.

(2) دثار: هو الثَّوب الَّذِي يَكُونُ فَوْقَ الشَّعَارِ.

(3) انظر: زاد المعاد (474/3).

قال: فتغيّر وجهه حتى كان كالصّرف. ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!» قال: ثم قال: «يرحم الله موسى! قد أؤذي بأكثر من هذا، فصبر». قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً. [البخاري (4336)، ومسلم (1062)].

4- أسباب الهزيمة، وعوامل النصر في حنين:

أ - أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدّة أسباب، منها:

- 1 - أن شيئاً من العُجبِ تسرب إلى قلوب المسلمين، لمّا رأوا عددهم، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على النّبيّ (ﷺ)، فكانت الهزيمة.
- 2 - خروج شبّانٍ ليس لديهم سلاحٌ، أو سلاحٌ كافٍ، وإنّما عندهم حماسٌ وتسرعٌ.
- 3 - أن عدد المشركين كان كثيراً، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.
- 4 - أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيّأ هنالك، ووضع الكمائن والرّماة في مضايق الوادي، وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنّبال، وبالهجوم المباغت.
- 5 - كان العدو مهياً، ومنظماً، ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفّ الخيل، ثمّ المقاتلة، ثمّ النّساء من وراء ذلك، ثمّ الغنم، ثمّ النّعم.
- 6 - وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكّة، ففرّوا، فانقلبت أولاهم على أحرّاهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل، وهزيمة غيرهم⁽¹⁾.

ب - عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين عدّة أسباب منها:

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (602/2 ، 603).

1 - ثبات الرسول (ﷺ) في القتال، وعدم تراجعته، ممّا جعل الجنود يثبتون، ويستجيبون لنداء القائد الثّابت.

2 - شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدّم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار، والعبّاس اخذ بلجام البغلة يكفّها ألاّ تسرع.

3 - ثبات قلّة من المسلمين معه، وحوله حتّى جاء الذين تولّوا، وأكملوا المسيرة، مسيرة الثّبات، والبرّ، والقتال حتّى النصر.

4 - سرعة استجابة الفارّين، والتحاقهم بالقتال.

5 - وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكريّ قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميّ بعد فراره، ممّا أعطى فرصة ثمينّة للجيش الإسلاميّ ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال، ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشّجاع رسول الله (ﷺ).

6 - رميّة الحصى: فقد أخذ النّبي (ﷺ) حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار ثمّ قال: «انهزموا وربّ محمد!» [سبق تخرجه] .

7 - الاستعانة، والاستغاثة بالله - عز وجلّ - : فقد كان الرسول (ﷺ) يلحّ على الله في الدّعاء بالنّصر على الأعداء.

8 - إنزال الملائكة في الغزوة، ومشاركتها فيها، وقد سجّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التّوبة⁽¹⁾: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

نتائج غزوة حنين، والطائف:

1 - انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن، وثقيف في هذه الغزوة.

2 - كانت غزوة حنين والطائف اخر غزوات النّبي (ﷺ) لمشركي العرب.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (409/2).

3 - رجوع كثيرٍ من أهل مكّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم، وهو شهادةُ رسول الله (ﷺ) لهم بالإيمان، والدُّعاء لهم ولأبنائهم، وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله (ﷺ) إلى المدينة.

4 - انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكّة وهوازن إلى الإسلام، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان، والأصنام، والمعابد الجاهليّة في الجزيرة العربيّة، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في مجاهدة أهل الطّائف، والتّضييق عليهم حتّى أسلموا.

5 - توسّعت الدّولة الإسلاميّة وامتدّ نفوذها، وأصبح لرسول الله (ﷺ) أمراء بمكّة، وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلاميّة؛ التي عاصمتها المدينة النّبويّة، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله (ﷺ) بعوثاً دعويّةً بدون خوفٍ، أو وجلٍ من أحدٍ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السّرايا تستهدف الأوثان، والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظّم رسول الله (ﷺ) فريضة الزّكاة، فكلّف من يقوم على جمعها من القبائل التّابعة للدّولة⁽¹⁾.

نشاط:

ابحث في تاريخ غزوة حنين وفي أي شهر كانت.

(1) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها في السّيرة النّبويّة (961/2).

الفصل الرابع عشر

غزوة تبوك (9 هـ) وهي غزوة العُسرة

المبحث الأول

اسباب الغزوة والاعداد لها

اولاً: أسبابها:

ذكر المؤرِّخون أسباب هذه الغزوة، فقالوا: وصلت الأنباء للنَّبِيِّ (ﷺ) من الأنباط الذين يأتون بالزَّيت من الشَّام إلى المدينة: أنَّ الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لحماً، وجُذاماً، وغيرهم من متنصِّرة العرب، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء⁽¹⁾، فأراد النَّبيُّ (ﷺ) أن يغزوهم قبل أن يغزوهم⁽²⁾.

ثانياً: الإنفاق في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله (ﷺ) الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كلُّ حسبٍ مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المَعْلَى في الإنفاق في هذه الغزوة⁽³⁾، فهذا عبد الرَّحْمَنِ بن حُبَابٍ يحدثنا عن نفقة عثمان، حيث قال: شهدت النَّبيَّ (ﷺ) وهو يحثُّ على جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ

(1)البلقاء: هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام ، ووادي القرى ، عاصمتها عمَّان.

(2)انظر: الطَّبَقَات الكبرى ، لابن سعدٍ (165/2).

(3)انظر: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 615.

بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (75/4)، والترمذي (3700)].

وأما عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله (ﷺ): «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسألك إلى شيء أبداً. [أبو داود (1678)، والترمذي (3675)].

وروي: أنَّ عبد الرحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسرة⁽¹⁾. وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ، كالعبَّاس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عديّ رضي الله عنهم⁽²⁾.

وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ ما لهم في خدمة هذا الدِّين، يدفعونه عن طواعيةٍ، ورغبةٍ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرَّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنَّفْس فكذلك هو بالمال، وإنَّ الذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى⁽³⁾.

إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمةٍ لضمان النَّصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً⁽⁴⁾.

(1) انظر: البيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص 616.

(2) انظر: مغازي الواقدي (391/3).

(3) انظر: من معين البيرة، ص 449.

(4) انظر: البيرة النَّبويَّة دروسٌ، وعبرٌ، للبيباقي، ص 161.

وقدّم فقراء المسلمين جهدهم من التفقة على استحياء، ولذلك تعرّضوا لسُخْرِيَةٍ وغمز، ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوها قائلين: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79] (1).

وجاء الأشعريُّون يتقدّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبِيِّ (ﷺ) أن يحملهم على إبلٍ ليتمكّنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتّى مضى بعض الوقت، فحصل لهم على ثلاثة من الإبل (2).

وبلغ الأمر بالضّعفاء، والعجزة ممّن أقعدهم المرض، أو التفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد، وتحرّجاً من القعود حتّى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿[التوبة: 91 - 92].

إنّها صورة مؤثّرة للرغبة الصّحيحة في الجهاد على عهد رسول الله (ﷺ)، وما كان يحسّه صادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم الماديّة بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممّن عذر الله لمرض، أو كبر سنٍّ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين (3)، وهم الذين عناهم رسول الله (ﷺ) عندما قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر». [البخاري (4423)، وأحمد (103/3)، وأبو داود (2508)، وابن ماجه (2764)، وابن حبان (4731)].

(1) انظر: السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 616.

(2) انظر: المجتمع المدني، ص 236.

(3) انظر: السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 618.

ثالثاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول (ﷺ) النفير، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 81 - 82]. وبلغ رسول الله (ﷺ): أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سُؤَيْلَمَ اليهوديِّ يَتَّبِطُونَ النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فأرسل إليهم مَنْ أحرَقَ عليهم بيت سُؤَيْلَمَ. [ابن هشام (160/4)]⁽¹⁾. وهذا يدلُّ على مراقبة المسلمين الدَّقيقة، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظةً تراقب تحركات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم.

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتمييز بين المؤمنين، والمنافقين، وَضَحَّتْ فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّسَتُّرِ على المنافقين، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابتهُهم أمراً ملحاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرسول (ﷺ)، والدَّعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير، الَّذِي أعلنه الله تعالى، ورسوله (ﷺ)، الَّذِي نزل به القرآن الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدِّهم واجباً شرعياً⁽²⁾.

رابعاً: إعلان النفير، وتعبئة الجيش:

أُعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عدد من خرج مع النَّبِيِّ (ﷺ) إلى تبوك ثلاثين ألفاً، وقد عاتب القرآن الكريم الَّذِينَ تباطؤوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38].

(1) انظر: البَيِّنَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي ضَوْءِ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ ، ص 618.

(2) انظر: نَضْرَةُ النَّعِيمِ (389/1).

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً، وشيوخاً، وأغنياء، وفقراء، بقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

لقد استطاع رسول الله (ﷺ) أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل⁽¹⁾ من المهاجرين، والأنصار، وأهل مكة، والقبائل العربية الأخرى، ولقد أعلن رسول الله (ﷺ) - على غير عادته في غزواته - هدفه، ووجهته في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم)، علماً بأن هديهم في معظم غزواته أن يورِّي فيها⁽¹⁾، ولا يصرح بهدفه، ووجهته، وقصده حفاظاً على سرية الحركة، ومباغطة العدو⁽¹⁾.

وعندما تجمَّع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله (ﷺ)، اختار الأمراء، والقادة، وعقد الألوية، والرايات لهم.

(1) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص 97.

الوصول إلى تبوك

عندما وصل النبي (ﷺ) لم يجد أثراً للحشود الرومانية، ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك، لم تفكر القيادة الرومانية مطلقاً في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المنتصرة اثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام، فقد اثروا الصلح، ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنبي (ﷺ) هدية، وهي بغلة بيضاء، وبُرد، فصالحه على الجزية، وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس سرية من الفرسان، بلغ عددها أربعمئة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي - ملكها - وهو في الصيد خارجها⁽¹⁾، فصالحه النبي (ﷺ) على الجزية⁽²⁾.

وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمئة من السبي، وألف بعير، وأربعمئة درع، وأربعمئة رمح⁽³⁾، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي (ﷺ)، وهي بغلة بيضاء، وبرد، فصالحه على الجزية⁽⁴⁾.

وكتب رسول الله (ﷺ) معاهدات لكل من أهل جرباء، وأذرح⁽⁵⁾، ولأهل مقنا⁽⁶⁾، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله (ﷺ) بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة، وعقد معها معاهدات، وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية⁽⁷⁾. وبهذه المعاهدات استطاع النبي (ﷺ) أن يقصّ أجنحة الروم.

(1) انظر: الإصابة (412/1 . 415) من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن.

(2) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (180/4).

(3) انظر: البداية والنهاية (17/5) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.

(4) انظر: المجتمع المدني للعمرى، ص 241.

(5) المغازي (1032/3).

(6) انظر: الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص 119 . 124.

(7) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 217.

المبحث الثاني

العودة من تبوك إلى المدينة، وحديث القرآن الكريم في المخلفين عن الغزوة، وعن مسجد

الضرار

عاد النَّبِيُّ (ﷺ) إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة⁽¹⁾، وقد أمر النَّبِيُّ (ﷺ) بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون وهو راجع إلى المدينة وقد انزل الله تعالى في من اتخذ مسجدا للضرار هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلُقَنَّ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: 107 - 108].

ولمَّا اقترب من المدينة؛ خرج الصَّيَّان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه، ودخل المدينة، فصلى في مسجده ركعتين، ثمَّ جلس للنَّاس، وجاء المخلفون لرسول الله (ﷺ) يقدمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصنافٍ: فمنهم من له أَعذارٌ شرعيةٌ، وعذرهم الله - سبحانه وتعالى -، ومنهم من ليس له أَعذارٌ شرعيةٌ، وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أَعذارٌ شرعيةٌ، وعذرهم الله - سبحانه وتعالى -:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91 - 92].

(1) انظر: صحيح البيهقي النبوية، ص 603.

ثانياً: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين، وهي:

1 - قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 102].

2 - قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106].

والمراد هؤلاء المرجون كما في الصحيحين: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرة بن الربيع، وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله (ﷺ) لأمر ما، مع أنهم بالحق به (ﷺ) فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، وحاشاهم، فقد كانوا من المخلصين، فلما قدم النبي (ﷺ) وكان ما كان من المتخلفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له (ﷺ)، ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري⁽¹⁾، وأمر رسول الله باجتناهم، وشدد الأمر عليهم، كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم⁽²⁾.

3 - قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

والمراد هؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرة بن الربيع، وفيهم نزلت هذه الآية⁽³⁾، وسوف نتحدث عن هذه القصة بإذن الله بنوع التفصيل، لما فيها من الدروس، والعبر، والحكم.

(1) أي: الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأي لبابة، وأصحابه.

(2) انظر: تفسير الألوسي (17/11).

(3) انظر: حديث القرآن الكريم (677/2).

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90].

رابعاً: المخلفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٠١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: 81 - 83].

وفي قصة الثلاث الذين خلفوا دروس، وعبر، وفوائد كثيرة، نذكر منها:

- 1 - الصّدق سفينة النّجاة.
- 2 - الهجر التّربوي، وأثره في المجتمع.
- 3 - تنفيذ المجتمع المسلم كلّه لأوامر القيادة.
- 4 - الولاء التّامّ لله ورسوله (ﷺ).
- 6 - توبة الله على العبد قيمة دينيّة يتطلّع إليها الصّادقون.

نشاط:

استنتج دروساً أخرى من قصة الثلاثة الذين خلفوا.

المبحث الثالث

أهم نتائج الغزوة

يمكن للباحث أن يلاحظ أهمّ نتائج هذه الغزوة، وهي:

- 1 - إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً.
- 2 - إظهار قوّة الدّولة الإسلامية كقوّةٍ وحيدةٍ في المنطقة، قادرةٍ على تحدّي القوى العظمى عالمياً - حينذاك - ليس بدافعٍ عصبيٍّ، أو عرقيٍّ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ، وإنّما بدافعٍ تحريريٍّ، حيث تدعو الإنسانيّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديّة ربّ العباد.
- 3 - وضع الأسس الأولى لفتح بلاد الشام وسائر البلدان التي فتحها المسلمون.
- 4 - توحيد الجزيرة العربيّة تحت حكم الرّسول (ﷺ).

المبحث الرابع

أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع

أولاً: وفد ثقيف وإسلامهم:

لَمَّا انصرف الرَّسولُ (ﷺ) عن الطَّائِفِ اتَّبَعَ أثره عروة بن مسعود التَّقْفِي حَتَّى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله (ﷺ)، فقدم عليه سِتَّةٌ منهم، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ⁽¹⁾. وكان الوفد يتكوَّن من سِتَّةٍ من كبار بني مالك، والأحلاف. واستقبل الرَّسولُ (ﷺ) الوفد راضياً، وبنى لهم خياماً لكي يسمِعوا القرآن، ويروا النَّاسَ إذا صلَّوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله (ﷺ).

طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله (ﷺ) من بعض الفرائض، وأن يَجِلَّ لهم بعض المحرَّمات، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم، وخضعوا للأمر الواقع⁽²⁾.

وقد أكرم رسول الله (ﷺ) وفادتهم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم، وإقامتهم وعند سفرهم، وأمَّرَ (ﷺ) عثمان بن أبي العاص على الطَّائِفِ، فقد كان أحرصهم على تعلُّم القرآن، والتَّفَقُّه في الدِّين، وكان أصغرهم سنّاً⁽³⁾. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ (ﷺ)، ومن اختلاطهم بالمسلمين، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً، ثمَّ رجعوا إلى الطَّائِفِ⁽⁴⁾، وبعد رجوعهم جَهَّز رسول الله (ﷺ) سرِّيَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة⁽⁵⁾، وأبي سفيان بن حرب وبعثهم في أثر الوفد⁽⁶⁾.

(1) انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر ، ص 199.

(2) انظر: المجتمع المدني في عهد النَّبوة ، ص 221 ، 222 ، 223.

(3) انظر: البَيِّرة النبوية الصحيحة (519/2).

(4) المصدر السابق نفسه (519/2 ، 520).

(5) انظر: البَيِّرة النَّبوية ، لابن هشام (195/4).

(6) انظر: دلائل النَّبوة ، للبيهقي (303/5 . 304).

وقد نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام. وتمَّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّرك في الجزيرة العربيَّة.

ثانياً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ (ﷺ) مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة، والعسكريَّة، والتَّعبدية، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضيَّة، فحجَّةُ عام (8 هـ) بعد الفتح كُلف بها عتَّابُ بن أسيدٍ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّةُ المسلمين عن حجَّةِ المشركين⁽¹⁾، فلمَّا حل موسم الحجَّ أراد (ﷺ) الحجَّ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضر البيتُ عُراةُ مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك»، فأرسل (ﷺ) الصِّديقَ أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ، فخرج أبو بكرٍ، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة⁽²⁾، وساقوا معهم الهدى⁽³⁾.

فلمَّا خرج الصِّديقُ بركب الحجيح؛ نزلت سورة براءة، فدعا النَّبيُّ (ﷺ) علياً رضي الله عنه، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّديق، فخرج على ناقه رسول الله (ﷺ) العضاء؛ حتَّى أدرك الصِّديق أبا بكرٍ بذِي الحليفة، فلمَّا راه الصِّديق، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثمَّ سارا، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم؛ الَّتِي كانوا عليها في الجاهليَّة، وكان الحجُّ في هذا العام في ذِي الحجَّة - كما دلَّت على ذلك الروايات الصَّحيحة - لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصِّديق قبل التَّروية، ويوم عرفة، ويوم النَّحر، ويوم النفر الأوَّل، فكان يعرف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم، وإفاضتهم ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات.... إلخ، وعليَّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين

(1) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شُهبة (536/2)، ودراسات في عهد النَّبوة، ص 222.

(2) انظر: نضرة التَّعيم (398/1)، والطبقات الكبرى (168/2).

(3) انظر: فتح الباري (82/8).

رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدّته، ولا يحجُّ بعد العام مشرك. [أحمد (79/1)، والترمذي (871 و3092)، وأبو يعلى (452)]⁽¹⁾.

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيةً مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجَّهم، وأعلنت الحرب عليهم⁽²⁾.

قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۖ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 1 - 3].

وقد أمهلَ المعاهدون لأجلٍ معلومٍ منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5].

وقد كلَّف النبي (ﷺ) علياً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحج، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود، ونقضها ألا يتولَّى ذلك سيّد القبيلة، أو رجلٌ من رَهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام، فلذلك تدارك النبي (ﷺ) الأمر، وأرسل علياً بذلك، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة، لا ما زعمه

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، ذكر بعث رسول الله (ص) أبا بكر الصديق أميراً على الحج سنة تسع، ونزول سورة براءة، وانظر: صحيح السيِّرة النبوية، ص 625.

(2) انظر: نضرة النعيم (399/1).

بعضُهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ علياً أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ، وقد علّق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبه، فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له: أميرٌ أم مأمور؟⁽¹⁾ وكيف يكون المأمور أحقَّ بالخلافة من الأمير^{(2)؟}!

وقد كانت هذه الحجّة بمثابة التّوطئة للحجّة الكبرى، وهي حجّة الوداع⁽³⁾؛ لقد أُعلن في حجّة أبي بكر: أنَّ عهد الأصنام قد انقضى، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنتلك القبائل أنَّ الأمر جدُّ، وأنَّ عهد الوثنيّة قد انقضى فعلاً، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها، ودخولها في التّوحيد⁽⁴⁾.

ثالثاً: عام الوفود (9 هـ) (5):

لَمَّا افتتح رسول الله (ﷺ) مكّة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت، وضرب رسول الله (ﷺ) أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين، لكي يقرّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدّولة الإسلاميّة منهم موقفاً معيّناً، ضربت إليه وفود العرب اباط الإبل من كلّ وجهٍ معلنةً إيمانها، وولاءها⁽⁶⁾.

أ - وفد عبد القيس:

وقد تحدّث ابن عبّاس رضي الله عنهما عن قدومهم، فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله (ﷺ)، فقال رسول الله (ﷺ): «مَنْ الوفد؟ - أو: مَنْ القوم؟» قالوا: ربّعة قال: «مرحباً

(1) انظر: صحيح السيّرة النبويّة، ص 624.

(2) انظر: السيّرة النبويّة، لأبي شهبه (540/2).

(3) المصدر السابق نفسه (540/2).

(4) انظر: قراءة سياسيّة للسيّرة النبويّة، ص 283.

(5) ينظر الشكل (22) في الصفحة (766).

(6) انظر: قراءة سياسيّة للسيّرة النبويّة، ص 284.

بالقوم⁽¹⁾ - أو: بالوفد - غير خزايا، ولا نَدَامَى⁽²⁾. قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدة⁽³⁾، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كَفَّارٍ مضر، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام، فمرنا بأمرٍ فصل⁽⁴⁾ نخبر به مَنْ وراءنا، ندخل به الجنة، وسألوه عن الأشرية. قال: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم»، ونهاهم عن الدُّبَاءِ⁽⁵⁾، والحنتم⁽⁶⁾، والمرَقَتِ⁽⁷⁾، وربما قال: النَّقِيرِ⁽⁸⁾، أو المَقْيَرِ وقال: «احفظوهنَّ، وأخبروا بهنَّ مَنْ وراءكم» [البخاري (53)، ومسلم (17)].

وفي رواية: أنَّ الأشَجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها، وجمع متاع القوم، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله (ﷺ) فقبلها، فقال له النَّبِيُّ (ﷺ): «إِنَّ فِيكَ خصلتين يُحِبُّهُما الله ورسوله» فقال: جَبَلٌ جُبِلْتُ عليه، أم تَخْلُقاً مِنِّي؟ قال: «بل جَبَلٌ» [ابن ماجه (4187)] قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَنِي على ما يحبُّ الله ورسوله. [أحمد (206/4)، والبخاري في الأدب المفرد (584)]⁽⁹⁾.

وقد انشغل رسول الله (ﷺ) بمقدَمهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلاتها بعد العصر⁽¹⁰⁾.

(1) مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعةً.

(2) غير خزايا، ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخُّر عن الإسلام، ولا عناد.

(3) شُقَّةٌ بعيدة: السَّفَرُ البعيد، أو المسافة البعيدة.

(4) الأمر الفصل: البَيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد.

(5) الدُّبَاء: القرع اليابس.

(6) الحنتم: أصحَّ الأقوال فيها: الجرار الحضر؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.

(7) المرَقَت: الأوعية الَّتِي فيها الرِّقَّت.

(8) النَّقِير: جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطْب، والبُسْر.

(9) انظر: صحيح البيهقي التَّوْبَةُ، ص 631.

(10) المصدر السابق نفسه، ص 635.

ب - وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله (ﷺ) إلى نجران⁽¹⁾ كتاباً قال فيه: «أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم؛ فالجزية، فإن أبيتم؛ اذنتكم بحرب، والسلام⁽²⁾».

فلما أتى الأسقف الكتاب؛ جمع الناس، وقرأه عليهم، وسألهم عن الرأي فيه، فقرروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوّن من أربعة عشر من أشرافهم، وقيل: ستين ركباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب - وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم، والذي يصدّرون عن رأيه - والسيد - وهو صاحب رحلتهم - وأبو الحارث - أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدراسهم - فقدموا على النبي (ﷺ)، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحريرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله (ﷺ): دعوهم، ثم أتوا النبي (ﷺ)، فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثم غدوا عليه بزّي الرهبان فسلموا عليه، فردّ عليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، وقالوا: كنّا مسلمين قبلكم، فقال النبي (ﷺ): «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن الله ولداً»⁽³⁾، وكثر الجدل والحجاج بينه، وبينهم، والنبي (ﷺ) يتلو عليهم القرآن، ويقرّع باطلهم بالحجة، وكان ممّا قالوه لرسول الله (ﷺ): ما لك تشتم صاحبنا، وتقول: إنّه عبد الله؟! فقال: «أجل، إنّه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ، فإن كنت صادقاً، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردّ عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الحق من ربك فلا تكن من الممترين] [آل عمران: 59-60].

(1) نجران: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.

(2) انظر: البداية والنهاية (48/5)، وهداية الحيارى في الرد على اليهود، والنصارى.

(3) انظر: البيرة النبوية، لأبي شعبة (547/2)، والدُر المنثور في التفسير بالمأثور، للشيوطي، وأبا نعيم في الدلائل.

فكانت حجةً دامغةً، شُبِّهَ فيها الغريب بما هو أغرب منه⁽¹⁾. فلمَّا لم تُجَدِ معهم المجادلة بالحكمة، والموعظة الحسنة، دعاهم إلى المباهلة⁽²⁾، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

وخرج النبي ﷺ ومعه عليٌّ، والحسن، والحسين، وفاطمة، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمنوا»⁽³⁾. فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أَنَّهُ نَبِيٌّ حَقًّا، وَأَنَّهُ مَا بَاهِلَ قَوْمَ نَبِيٍّ إِلَّا هَلَكُوا، فَأَبَوْا أَنْ يَلَاعَنُوهُ، وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ، ألف في رجب، وألف في صفر⁽⁴⁾، وَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى بِلَادِهِمْ، قالوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّلح، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح!» فلمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (4382)، وأحمد (184/3)، والترمذي (3791)، وابن ماجه (154 و155)].

نشاط:

ابحث عن وفود أخرى قدمت للنبي صلى الله عليه وسلم.

(1) انظر: زاد المعاد (633/3)، والبيّرة النبويّة، لأبي شهبه (547/2).

(2) انظر: البيّرة النبويّة، لأبي شهبه (547/2)، والبداية والنهاية لابن كثير، فصل (المباهلة).

(3) المصدر السابق نفسه (547/2)، وتحفة الأحوذى للمباركفوري، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.

(4) المصدر السابق نفسه.

المبحث الخامس

حجّة الوداع (10 هـ)⁽¹⁾

الحجُّ أحد الأركان الخمسة، وقد فُرض في العام العاشر، وهذا ما ذهب إليه ابن القيم⁽²⁾، واستدلَّ بأدلةٍ قويّةٍ، وهو اللّائق بهديه (ﷺ) في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع⁽³⁾.

لم يحجَّ النَّبِيُّ (ﷺ) من المدينة غير حجّته الّتي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجّة بحجّة البلاغ، وحجّة الإسلام، وحجّة الوداع؛ لأنّه (ﷺ) ودّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها، وحجّة البلاغ؛ لأنّه (ﷺ) بلّغ النَّاس شرع الله في الحجّ قولاً، وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيّنه، فلمّا بيّن لهم شريعة الحجّ، ووضّحه، وشرّحه، أنزل الله عليه، وهو واقفٌ بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. [البخاري (4407)، ومسلم (3017)].

ولمّا نزلت هذه الآية؛ بكى بعض الصّحابة - ومنهم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه - وكأَنَّهُم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرّسول (ﷺ)، ولمّا قيل لسيدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنّّه ليس بعد الكمال إلا التّقصان⁽⁴⁾، وكان عدد الّذين مع رسول الله (ﷺ) أكثر من مئة ألف⁽⁵⁾.

(1) ينظر الشكل (23) في الصفحتين (767).

(2) انظر: زاد المعاد (595/3).

(3) انظر: السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ص 680، وزاد المعاد (595/3).

(4) انظر: السيرة النبويّة، لأبي شهبه (575/2).

(5) انظر: السيرة النبويّة، للندوي، ص 386.

أولاً: كيف حجَّ النبي (ﷺ)؟:

[البخاري (1557)، ومسلم (1218)]

عزم رسول الله (ﷺ) على الحجِّ، وأعلم النَّاسُ: أنَّه حاجٌّ، فتجهَّزوا - وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر - للخروج معه، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول (ﷺ)، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه، وعنيمينه، وعن شماله مدَّ البصر، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِيْنَ من ذي القعدة يوم السَّبت، بعد أن صَلَّى الظُّهر بها أربعاً⁽¹⁾. وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرام، وواجباته، وسننه، ثمَّ سار وهو يلبي، ويقول: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد، والنعمة لك، والملك، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون، وينقصون، وهو يقرُّهم، ولا ينكر عليهم، ولزم تلييته، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ (العرج) ثمَّ سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سرف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى)، فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصُّبح، ثمَّ اغتسل من يومه، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها، ثمَّ سار، حتَّى دخل المسجد، وذلك ضحى⁽²⁾، فاستلم الرُّكن (ﷻ)، فرمل ثلاثاً⁽³⁾، ومشى أربعاً، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم⁽⁴⁾ عليه السَّلام. فقرأ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]. فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الرُّكعتين: ثمَّ رجع إلى الرُّكن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ * ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا، فلمَّا دنا من الصَّفا؛ قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158].

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 664، والسيرة النبوية، للنُدوي، ص 386.

(2) انظر: السيرة النبوية، للنُدوي، ص 387.

(3) الرمل: إسرار المشي مع تقارب الخطأ.

(4) نفذ إلى مقام إبراهيم: أي: بلغه ماضياً في زحام.

وبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفاء، فرقي عليه، حتَّى إذا رأى البيت؛ استقبل القبلة، فوَحَّد الله، وكَبَّرَه، وقال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثمَّ دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ نزل إلى المروة، حتَّى إذا انصبَّت⁽¹⁾ قدماه في بطن الوادي؛ سعى، حتَّى إذا صَعِدَتَا⁽²⁾؛ مشى، أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا، حتَّى إذا كان آخر طوافه على المروة؛ قال: «لو أُنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عُمْرَةً، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ؛ فليحلَّ، وليجعلها عُمْرَةً».

فقام سراقه بن مالك بن جُعْشُم، فقال: يا رسول الله! أَلْعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشَبَّكَ رسول الله (ﷺ) أصابعه واحدةً في الأخرى، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين، «لا بل للأبدِ أَبَدٌ»⁽³⁾.

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، فلمَّا كان يوم الخميس ضُحًى؛ توجَّه بمن معه من المسلمين إلى منى، ونزل بها، وصَلَّى بها الظُّهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشمس، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمْرَةٍ⁽⁴⁾، فسار رسول الله (ﷺ) ولا تُشْكُ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشعر الحرام⁽⁵⁾، كما كانت قريش تصنع في الجاهليَّة، فأجاز⁽⁶⁾ رسول الله (ﷺ) حتَّى أتى عرفة، فوجد القُبَّة قد ضُرِبَتْ له بِنَمْرَةٍ فنزل بها، حتَّى إذا زاغت الشمس؛ أَمَرَ بالقصواء، فزَحَلَتْ له، فأَتَى بطن الوادي⁽⁷⁾، فخطب النَّاسَ، وقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي

(1) انصبَّت قدماه: انحدرت.

(2) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

(3) صحيح السيرة النبوية ، ص 659.

(4) نمرة: موضع بجانب عرفات ، وليست من عرفات.

(5) المشعر الحرام: جبل مزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله (ص) وقف في عرفات.

(6) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات.

(7) بطن الوادي: وادي عُرْنَة ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكا قال: من عرفات.

بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعَةٌ، وإنَّ أوَّل دمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ، كان مُستَرَضِعاً في بني سعدٍ، فقتلته هذيلٌ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنَّه موضوع كلُّه.

فأتَّقوا الله في النِّساء، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه⁽¹⁾، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبرِّح⁽²⁾، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ، وكسوتهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بإصبعه السَّبَّابة، يرفعها إلى السَّماء، وينكتها⁽³⁾ إلى النَّاس: «اللَّهِمَّ اشهد! اللَّهِمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات⁽⁴⁾.

ثمَّ أذن، ثمَّ أقام، فصلَّى الظهر، ثمَّ أقام، فصلَّى العصر، ولم يصلِّ بينهما شيئاً، ثمَّ ركب رسولُ الله (ﷺ)، حتَّى أتى الموقف، فجعل بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخْرَاتِ⁽⁵⁾ وجعل حبل المشاة بين يديه⁽⁶⁾، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشمس، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلاً حتَّى غاب القرصُ⁽⁷⁾. وهناك أنزلت عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: 3]، فلمَّا غربت الشمس؛ أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع رسول الله (ﷺ) وقد شَنَقَ للقصواءِ الرِّمَامَ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، وهو يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ! عليكم السَّكِينَةُ⁽⁸⁾».

(1) أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ، أو بعيدٍ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها.

(2) الضَّرْب المبرح: الشَّدِيد الشاق.

(3) ينكتها: يقلبها، ويردها إلى النَّاس مشيراً إليهم.

(4) انظر: صحيح البيهقي النَّبَوِيَّة، ص 661.

(5) الصَّخْرَات: صخرات في أسفل جبل الرَّحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفت.

(6) حبل المشاة: مجتمعهم، وقيل: جبل المشاة؛ ومعناه طريقهم حيث تسلك الرِّجَالَة.

(7) حتَّى غاب قرص الشمس: حتَّى غابت الشمس، وذهبت الصُّفْرَة.

(8) انظر: صحيح البيهقي النَّبَوِيَّة، ص 662.

وكان يلبي في مسيره ذلك، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلّى المغرب قبل حطّ الرحال، وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم؛ أمر، فأقيمت الصلاة، ثم صلّى العشاء، ثم نام، حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرّع، والتكبير، والتهليل، والذكر، حتى أسفر جداً⁽¹⁾، وذلك قبل طلوع الشمس.

ثم سار من مزدلفة، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصي الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسير⁽²⁾؛ حرّك ناقته، وأسرع السير⁽³⁾، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها ركباً بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية⁽⁴⁾.

ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبةً بليغةً، أعلمهم فيها بجرمة يوم النحر، وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسّمع، والطاعة لمن قادم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه⁽⁵⁾.

وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت؛ حتى ظننا أن سيسميّه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت؛ حتى ظننا: أنّه سيسميّه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنّ دماءكم، وأموالكم - وفي رواية: وأعراضكم - عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم،

(1) الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور، وقوله: (جداً) بكسر الجيم؛ أي: إسفاراً بليغاً.

(2) سمي بذلك لأن قيل: أصحاب الفيل خبير فيه.

(3) انظر صحيح السيرة النبوية، ص 662، والسيرة النبوية، للنُدوي، ص 389.

(4) انظر: صحيح السيرة النبوية، للنُدوي، ص 389.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 390.

قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب، فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»⁽¹⁾.

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثمَّ أمسك وأمر عليّاً أن ينحر ما بقي من المئنة، فلمَّا أكمل (ﷺ) نحره استدعى الحلاق، فحلق رأسه، وقسم شعره بين مَنْ يليه، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً، وطاف طواف الإفاضة⁽²⁾، فصلى بمكَّة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسئفون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولاً أن يغلبكم النَّاس على سِقَايَتكم؛ لنزعُتْ معكم»، فناولوه دلواً، فشرب منه⁽³⁾.

ثمَّ رجع إلى منى من يومه ذلك، فبات بها، فلمَّا أصبح؛ انتظر زوال الشَّمس، فلمَّا زالت مشى من رحله إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى، ثمَّ الوسطى، ثمَّ الجمرة الثالثة - وهي جمرة العقبة - وخطب النَّاس بمنى خطبتين: خطبة يوم النَّحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر⁽⁴⁾، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النَّحر بمنى.

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسلمين، فهي الحجة الوحيدة التي حجَّها الرِّسول (ﷺ)، وقد عزَّزَ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلّها، كما كانت الوداع الأخير، فما أشدَّ حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير، والنُّصح، والتَّوصية، وإلى تكرار القول، والتأكيد عليه حتَّى يعوه، ويحفظوه، ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة، وأداء الأمانة!⁽⁵⁾.

هذا، وقد تأخَّر رسول الله (ﷺ) حتَّى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثمَّ نهض إلى مكَّة،

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (550/2)، والسيرة النبوية، لأبي شهبه (578/2).

(2) انظر: السيرة النبوية، للنُدوي، ص 390.

(3) صحيح السيرة النبوية، ص 663.

(4) انظر: السيرة النبوية، ص 390.

(5) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبه (579/2)، والمستفاد من قصص القرآن (515/2).

فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر الناس بالرحيل، وتوجّه إلى المدينة⁽¹⁾. وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول (ﷺ) الناس في غدير حُمّ قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد جاء في هذه الخطبة: «أما بعد: ألا أيُّها الناس! فإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بَكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فحثَّ على كتاب الله، ورغب فيه، ثمَّ قال: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» [أحمد (14/3 و17)، ومسلم (36/2408) و(37)].

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد:

- 1 - تربية الأفراد على قطع الصِّلَة بالجاهليَّة، والابتعاد عن الذُّنوب.
- 2- تربية المجتمع على مبادئ أساسيَّة:

 - أ - الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].
 - ب - الوقوف بجانب الضَّعيف، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ، فأوصى (ﷺ) في خطبته بالمرأة والرَّقِيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء⁽²⁾.
 - ج - التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشياً؛ فإنَّ في ذلك الصَّلَاح، والفلاح، والنَّجاة في الدُّنيا، والآخرة⁽³⁾.
 - د - المساواة بين البشر.
 - هـ - تحديد مصدر التَّلَقِّي: وقد حدَّد (ﷺ) مصدر التَّلَقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل

(1) انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة، للنَّدوي، ص 390.

(2) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبَوِيَّة، ص 304.

(3) انظر: دولة الرُّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 576.

المسلمين، التي قد تعترض طريقهم، في الرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما الأمان من كل شقاء، وضلال، وهما: كتاب الله، وسنة رسوله (ﷺ).

3 - الأساليب التعليمية من خطب حجة الوداع:

أ - التعليم بالقُدوة.

ب - تكرار الخطب.

ج - جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النبي (ﷺ) الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر، والبلد - وهم يعرفونها - ما يجلب انتباههم.

نشاط:

استدل من دراستك لحجة النبي صلى الله عليه وسلم والخط التي القاها على كل درس من الدروس السابقة.

المبحث السادس

مرض رسول الله (ﷺ) ووفاته

أولاً: مرض الرسول (ﷺ)

بدء الشكوى:

رجع رسول الله (ﷺ) من حجة الوداع في ذي الحجة، فأقام بالمدينة بقيته، والمحرم، وصفرًا، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجّه نحو البلقاء، وفلسطين، فتجهّز الناس، وفيهم المهاجرون، والأنصار، وكان منهم أبو بكر، وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثمان عشرة سنة، وتكلّم البعض في تأميره، وهو مولى، وصغير السنّ على كبار المهاجرين، والأنصار، فلم يقبل الرسول (ﷺ) طعنهم في إمارة أسامة⁽¹⁾، فقال (صلى الله عليه وسلم): «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه، وإيّا الله! إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنّ ابنه هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده». [البخاري (3730)، ومسلم (2426)].

وبينما الناس يستعدّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدئ رسول الله (ﷺ) بوجعه الذي قبضه الله فيه، وقد حدثت حوادث ما بين مرضه، ووفاته؛ منها:

أ - النبي (ﷺ) في البقيع وزيارته قتلى أحد، وصلاته عليهم.

ب - استئذانه (صلى الله عليه وسلم) أن يمرض في بيت عائشة، وشدة المرض الذي

نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثقل رسول الله (ﷺ) واشتدّ به وجعه؛ استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي، فأذنّ له، فخرج وهو بين رجلين، تحطّ رجلاه في الأرض، بين عبّاس ورجلٍ

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (2/552).

آخر⁽¹⁾، ولمّا دخل بيتي؛ اشتدّ وجعه. قال: «أهريقوا عليّ من سبع قربٍ لم تُخلأوكيُتهنَّ⁽²⁾»، لعليّ أعهد إلى النَّاسِ» فأجلسناه في مُحَضَبٍ⁽³⁾ لحفصة، ثمّ طفقنا نصبُ عليه من تلك القرب، حتّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ، ثمّ خرج إلى النَّاسِ فصلّى بهم، وخطبهم [البخاري (1198)]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوجع من رسول الله (ﷺ). [البخاري (5646)، ومسلم (2571)].

ثانياً: من وصايا رسول الله (ﷺ) في أيامه الأخيرة:

- 1 - وصيته (ﷺ) بالأنصار خيراً.
- 2 - إخراج المشركين من جزيرة العرب.
- 3 - التّهي عن اتّخاذ قبره مسجداً.
- 4 - إحسان الظّنّ بالله.
- 5 - الوصية بالصّلاة، وما ملكت أيمانكم.

ثالثاً: أبو بكر يصليّ بالمسلمين:

ولمّا اشتدّ المرض بالنّبيّ (ﷺ)، وحضرت الصّلاة، فأذن بلالٌ، قال النّبيّ (ﷺ): «مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ» فقبل: إنّ أبا بكر رجلٌ أسيّفٌ⁽⁴⁾، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصليّ بالنّاس. وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثالثة، فقال: «إنكُنَّ صواحبُ يوسف⁽⁵⁾»، مُروا أبا بكر فليُصلِّ بالنّاس!« فخرج أبو بكرٍ، فوجد النّبيّ (ﷺ) في نفسه خفّةً، فخرج يهادى بين رجلين، كأني أنظر إلى رجله تُخَطّان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخّر فأوماً إليه النّبيّ (ﷺ): أن مكانك، ثمّ أتى

(1) قال ابن عبّاس: الرجل الآخر هو عليّ بن أبي طالب.

(2) جمع الوكاء، وهو ما يشدُّ به رأس القربة.

(3) مُحَضَب: بكسر الميم، وهي الإِجَانَة التي تغسل فيها الثياب.

(4) أسيّف: من الأسف، وهو شدّة الحزن، والمراد: أنّه رقيق القلب.

(5) والمراد أنّهم مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.

به حتى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النبي (ﷺ) يُصلي، وأبو بكر يصلي بصلاته،
والناس يصلون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (664)، ومسلم (95/418)].

رابعاً: الساعات الأخيرة من حياة المصطفى (ﷺ):

1 - في الرفيق الأعلى:

واشتدت سكرات الموت بالنبي (ﷺ)، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر
على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يضعها على أسامة، فعرف أنه يدعو له،
وأخذت السيدة عائشة رسول الله، وأوسدته إلى صدرها بين سحرها، ونحرها⁽¹⁾، فدخل عبد
الرحمن بن أبي بكر، ويده سواك، فجعل رسول الله (ﷺ) ينظر إليه، فقالت عائشة: اخذه لك؟
فأشار برأسه: أن نعم، فأخذته من أخيها، ثم مضغته، ولينته، وناولته إياه، فاستاك به كأحسن
ما يكون الاستياك، وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: «في الرفيق الأعلى» [البخاري (4437)،
ومسلم (87/2444)].

وكان (ﷺ) يدخل يده في ركة ماء، أو علبه فيها ماء، فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله
إلا الله، إن للموت سكرات!» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض،
ومالت يده. [البخاري (4449)].

وقد ورد: أن فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب
بعد اليوم» فلما مات؛ قالت: يا أبتاه! أجاب رباً دعاه. يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه. يا
أبتاه! إلى جبريل نعاها. فلما دفن (ﷺ) قالت لأنس: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول
الله (ﷺ) التراب؟! [البخاري (4462)].

(1) السخر: الرئة، والنخر: الثغرة التي في أسفل العنق.

2 - وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم:

فارق رسول الله (ﷺ) الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبه ملوك الدنيا، ويُقدِّيه أصحابه بنفوسهم، وأولادهم، وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقةً. [البخاري (4461)]. وتُوفي (ﷺ)؛ ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير⁽¹⁾.

وكان ذلك يوم الإثنين 12 ربيع الأول سنة 11 للهجرة بعد الزوال⁽²⁾، وله (ﷺ) ثلاث وستون سنة [البخاري (3902 و3903)، ومسلم (2351)]، وكان أشدَّ الأيام سواداً، ووحشةً، ومصاباً على المسلمين، ومحنةً كبرى للبشرية، كما كان يوم ولادته أسعدَ يوم طلعت فيه الشمس⁽³⁾.

3 - هول الفاجعة، وموقف أبي بكرٍ والصحابة منها:

قال ابن رجب: ولما تُوفي رسولُ الله (ﷺ) اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِشَ، فحولط، ومنهم مَنْ أُفْعِدَ فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكيِّية⁽⁴⁾.

لقد أذهل نبأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه، فصار يتوعَّد، وينذر مَنْ يزعم: أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) مات، ويقول: ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعَنَّ رسولُ الله كما رجع موسى، فليقطَّعن أيدي رجالٍ، وأرجلهم زعموا: أنه مات⁽⁵⁾.

ولمَّا سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنح؛ حتَّى نزل، فدخل المسجد،

(1) انظر: السيرة النبوية، للندوي، ص 403.

(2) انظر: البداية والنهاية (223/4).

(3) انظر: السيرة النبوية، للندوي، ص 404.

(4) انظر: لطائف المعارف، ص 114.

(5) انظر: السيرة النبوية، لأبي شعبة (594/2).

فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله (ﷺ) وهو مُغشّى بثوبٍ حَبْرَةٍ، فكشف عن وجهه، ثمّ أكبّ عليه، فقَبَّله، وبكى، ثمّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين، أمّا الموتة التي عليك فقد متّها. [البخاري (4452، 4453)]. وخرج أبو بكر؛ وعمر يتكلّم، فقال: اجلس يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، قال: أمّا بعد: فإنّ مَنْ كان يعبد محمّداً؛ فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]. يقال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمتُ: أنّ رسول الله (ﷺ) قد مات. [البخاري (4454)].

4 - بيعة أبي بكر بالخلافة:

وباع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسول الله (ﷺ) هذه الدنيا؛ وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أميرٌ يتولّى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله (ﷺ)، ودفنه⁽¹⁾.

5 - غَسَلُ رسول الله (ﷺ)، وكَفْنُهُ، والصَّلَاةُ عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لمّا أرادوا غَسْلَ النَّبِيِّ (ﷺ) قالوا: ما ندري: أنجرّده من ثيابه كما أنجرّد موتانا، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلمّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم التَّوَمَّ حتى ما منهم رجلٌ إلا ودفنه في صدره فكلّمهم مكلّم من ناحية البيت، لا يدرون من هو: أن اغسلوا رسول الله (ﷺ) وعليه ثيابه، فغسلوه؛ وعليه قميصه، يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص

(1)[انظر: البَيِّنَةُ النَّبَوِيَّةُ، للندوي، ص 406.

دون أيديهم. قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه. [أبو داود (3141)، وابن ماجه (1464)، والحاكم (59/3 - 60)].

وَكُفِّنَ (ﷺ) فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ سَحُولِيَّةٍ، مِنْ ثِيَابِ سَحُولٍ - بَلَدَةٍ بِالْيَمَنِ - لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ، وَلَا عِمَامَةٌ. [البخاري (1271) ومسلم (941)]⁽¹⁾ وقد صَلَّى عليه المسلمون. قال ابن عباس: لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أُدْخِلَ الرِّجَالُ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِمَامٍ أَرْسَالًا، حَتَّى فَرَّغُوا، ثُمَّ أُدْخِلَ النِّسَاءُ فَصَلَّيْنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُدْخِلَ الصِّبْيَانُ فَصَلُّوا عَلَيْهِ، ثُمَّ أُدْخِلَ الْعَبِيدُ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَرْسَالًا، لَمْ يُؤْمَرْهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَحَدٌ. [ابن ماجه (1628)].

قال ابن كثير: وهذا الصَّنِيع، وهو صَلَاتُهُمْ عَلَيْهِ فرادى لَمْ يُؤْمَرْهُمْ أَحَدٌ عَلَيْهِ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، لَا خِلَافَ فِيهِ⁽²⁾.

وقد لُحِدَ⁽³⁾ قبر رسول الله (ﷺ)، وقد أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ اللَّحْدَ، وَالشَّقَّ⁽⁴⁾ جائِزَانِ، لَكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ صَلْبَةً لَا يَنْهَارُ تَرَابُهَا؛ فَاللَّحْدُ أَفْضَلُ، وَإِنْ كَانَتْ رِخْوَةً تَنْهَارُ؛ فَالشَّقُّ أَفْضَلُ⁽⁵⁾.

(1) انظر: مختصر سيرة الرسول (ص)، ص 37، وتهذيب الأسماء للنووي، ص 23.

(2) انظر: البداية والنهاية (232/5).

(3) اللحد: الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.

(4) والشق: أي: يحفر في وسط الأرض.

(5) انظر: المجموع، للنووي (287/5).

المصادر والمراجع

(أ)

- 1 - أُسْدُ الغَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ لَعَلِي بن أَبِي الكَرَم (ابن الأثير).
- 2 - الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي - عمان، الطبعة الثانية 1418 هـ 1998 م.
- 3 - الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة - مصر.
- 4 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر النعماني، دار الاعلام.
- 5 - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء، والأموال، والحفدة، والمتاع للشيخ أحمد بن علي المقرئ، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، 1941 م.
- 6 - أحكام السوق في الإسلام لأحمد الدرويش، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.
- 7 - الأساس في السنة، وفقهها - السيرة النبوية لسعيد حوى، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.
- 8 - الأساس في السنة، لسعيد حوى، دار السلام - مصر.
- 9 - أصول الفكر السياسي في القرآن المكي للتجاني عبد القادر حامد، الطبعة الأولى، 1416 هـ 1995 م، عمان - الأردن، دار البشير.
- 10 - أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع، مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1393 هـ 1973 م.
- 11 - أنساب الأشراف، للبلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف.
- 12 - الأنساب للسمعاني، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، الهند، 1382 هـ 1962 م.

13 - الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين (المتوفى: ٧٦٢هـ)، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

(ب)

14 - بدائع السالك في طبائع الممالك، لأبي عبد الله بن الأزرق، تحقيق، وتعليق علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية.

15 - البداية والنهاية لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى - 1408 هـ 1988 م، دار الرّيان للتراث.

16 - بحجة المحافل، وبغية الأمائل في تلخيص المعجزات، والسّير، والشّمائل، شرح جمال الدّين محمّد الأشخر اليميني، دار صادر - بيروت.

(ت)

17 - تأملات في سيرة الرّسول (ﷺ)، د. محمد السّيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الأولى، 1408 هـ 1987 م.

18 - التّاريخ الإسلامي - مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدّعوة - الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.

19 - التّاريخ السّياسي والحضاري، د. السّيد عبد العزيز سالم.

20 - التّاريخ السّياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرّسول (ﷺ)، استراتيجيّة الرّسول السّياسيّة والعسكريّة، د. علي معطي، مؤسّسة المعارف - بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ 1998 م.

21 - تاريخ الطّبري، لأبي جعفر محمّد بن جرير، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان - بيروت.

22 - تاريخ دمشق، أبي القاسم الشافعي (ابن عساكر)، دار الفكر.

23 - تاريخ خليفة بن خيّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الاداب، النّجف - 1967 م.

24 - تاريخ دولة الإسلام الأولى، فايد حمّاد عاشور، سليمان أبو عذب، دار قطريّ بن الفجاءة - الدّوحة، الطبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

25 - تاريخ جيش النبي، محمود شيت خطاب، دار الإعتصام.

- 26- تبسيط العقائد الإسلامية ، حسن ايوب ، دار السلام.
- 27 - التحالف السياسي في الإسلام لمنير محمد الغضبان، دار السلام، الطبعة الثانية، 1408 هـ 1988 م.
- 28 - تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبي، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان.
- 29 - التربية القيادية لمنير الغضبان، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة الأولى، 1418 هـ 1998 م.
- 30 - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشي، دار الفكر، ودار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.
- 31 - تفسير الالوسي، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي)، إدارة الطباعة المصطفائية بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.
- 32 - تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1965 م.
- 33 - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- 34 - تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمد النسفي، المتوفى سنة 710 هـ، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- 35- تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي ، دار الكتب العلمية.
- 36- تفسير الطبري (جامع البيان) ، مكتبة ابن تيمية.
- 37- تهذيب السيرة النبوية ، ابن هشام ، دار اليمامة.
- 38- تهذيب الاسماء ، ابو زكريا النووي ، دار الكتب العلمية.
- 39 - التمكن للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، لمحمد السيد حمد يوسف، دار السلام - مصر، الطبعة الأولى 1418 هـ 1997 م.

(ج)

- 40 - الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لمحمد خير هيكل، الطبعة الأولى، 1414 هـ 1993 م، دار البيارق - عمان - بيروت.
- 41 - جوامع السير لابن حزم علي بن أحمد بن سعيد، المتوفى 456 هـ، تحقيق الدكتور إحسان

عبّاس، والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار إحياء السنّة - باكستان، 1368هـ.

(ح)

42 - حديث القرآن عن غزوات الرسول (ﷺ)، د. محمد بكر ال عابد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى.

43 - الحرب النفسيّة ضدّ الإسلام في عهد الرسول (ﷺ) في مكّة، د. عبد الوهاب كحيل، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ 1986م.

44 - حقوق النّبي (ﷺ) على أمّته، د. محمّد بن خليفة التّميمي، دار أضواء السّلف، الطبعة الأولى، 1418هـ 1997م.

(خ)

45 - خاتم النّبیین (ﷺ) للشيخ محمّد أبي زهرة، الطبعة الأولى، 1972م، دار الفكر - بيروت.

(د)

46 - الدُّر المنتور في التّفسير بالمأثور للإمام السيوطي، النّاشر محمّد أمين دمج، بيروت - لبنان.

47 - دراسات في السّيرة النّبويّة، د. عماد الدّين خليل، الطبعة الحادية عشرة، 1409هـ 1989م، دار النفائس - بيروت.

48 - دراسات في عهد النّبوة، د. عبد الرّحمن الشّجاع، دار الفكر المعاصر - صنعاء، الطبعة الأولى، 1419هـ 1999م.

49 - دراسة تحليليّة لشخصية الرسول (ﷺ)، د. محمد قلّعجي، الطبعة الأولى، سنة 1408هـ 1988م، دار النفائس.

50 - الدُّرر في اختصار المغازي والسّير ليوسف بن عبد البرّ، وزارة الأوقاف بمصر، لجنة إحياء التراث، 1414هـ 1994م، القاهرة.

51 - دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلّعجي، الطبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتب العلميّة - بيروت.

52 - دولة الرسول (ﷺ) من التّكوين إلى التّمكن، لكامل سلامة الدّقس، دار عمّار - عمّان،

الطبعة الأولى، 1415هـ 1994م.

(ر)

- 53 - الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، لأسامة عبد القادر.
- 54 - الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، الطبعة الأولى 1417هـ 1996م، مؤسسة الرسالة - لبنان.
- 55 - رسالة الأنبياء لعمر أحمد عمر، دار الحكمة - دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ 1997م.
- 56 - الرسول القائد (ﷺ)، محمود شيت خطاب، الطبعة الثانية، سنة الطبع 1960م، دار مكتبة الحياة، ومكتبة النهضة - بغداد.
- 57 - الرسول (ﷺ) المبلغ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ 1997م.
- 58 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة 1387هـ.

(ز)

- 59 - زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن عليّ الجوزي القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1384هـ 1965م.
- 60 - زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية، حققه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر، الطبعة الأولى، 1399هـ، دار الرسالة.

(س)

- 61 - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالح، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1394هـ 1974م.
- 62 - السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، د. بريك محمد بريك، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1417هـ 1996م.
- 63 - سفراء الرسول (ﷺ)، محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة

الأولى، 1417هـ 1996م.

64 - سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السجستاني، تحقيق وتعليق عزّت الدّعاس، 1391هـ، سورية.

65 - سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر.

66 - سنن الترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، 1398هـ.

67 - سنن الدارقطني، علي بن عمر الدار قطني، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي، عالم الكتب، لبنان.

68 - سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة، 1964م.

69 - سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، 1403هـ.

70 - السّير والمغازي لابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، طبعة أولى 1978م.

71 - السّيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة.

72 - سيرة الرّسول (ﷺ)، صورٌ مقتبسةٌ من القرآن الكريم، تأليف الأستاذ محمد عزّة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد ال ثاني - حاكم قطر، المؤتمر العالمي للسّيرة النبويّة، 1400هـ الدّوحة.

73 - السّيرة النبويّة لأبي الحسن النّدوي، دار التوزيع والنّشر الإسلاميّة - القاهرة.

74 - السّيرة النبويّة دراسةً وتحليل لمحمد أبو فارس، دار الفرقان، الطّبعة الأولى 1418هـ 1997م، عمّان.

75 - السّيرة النبويّة، للذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة هلال - بيروت.

76 - السّيرة النبويّة الصّحيحة، د. أكرم العمري، الطّبعة الأولى 1412هـ 1992م مكتبة المعارف والحكّم بالمدينة المنورة.

77 - السّيرة النبويّة تربية أمّة، وبناء دولة، لصالح أحمد الشّامي، المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1412هـ 1992م

78 - السّيرة النبويّة دروسٌ وعبرٌ، د. مصطفى السّباعي، المكتب الإسلامي - بيروت، لبنان، الطّبعة

التاسعة 1406 هـ 1986 م.

79 - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لمحمد أبو شهبة، دار القلم - دمشق، الطبعة الثالثة، 1417 هـ 1996 م.

80 - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، الطبعة الأولى 1412 هـ 1992 م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض.

81 - السيرة النبوية لأبي حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى 1407 هـ 1987 م.

82 - السيرة النبوية، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر، بدون تاريخ.

83 - السيرة النبوية، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية، 1398 هـ، دار الفكر بيروت - لبنان.

84 - السيرة النبوية، لمحمد الصوياني، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى، 1420 هـ 1999 م.

(ش)

85 - شذرات الذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

86 - شرح المواهب اللدنية، للقسطاليني، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة، بيروت.

87 - شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي - أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف، المتوفى 676 هـ طبع المطبعة المصرية ومكتبتها - القاهرة، عام 1349 هـ.

88 - الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للإمام القاضي عياض، إستانبول، عثمانية.

(ص)

89 - صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، دار النفائس، الطبعة الثالثة، 1408 هـ 1998 م.

90 - صحيح سنن ابن ماجه لناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، الطبعة الثالثة، 1408 هـ 1988 م.

91 - صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، 1347 هـ 1929 م.

92 - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة

الثَّانِيَّة، 1972م.

93 - الصِّراع مع الصَّلَيبِيِّينَ لمحمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير - طنطا، طبعة عام 1419هـ 1999م.

94 - الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1990م.

95 - صفة الصَّفوة لابن الجوزيِّ، تحقيق: محمود خوري، ومحمَّد رؤاس قلعجي، دار المعرفة - بيروت، الطَّبعة الثانية، 1399هـ.

96 - صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الثَّالثة، 1973م - 1393هـ.

97 - صوَرٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم - دمشق، الدَّار الشَّاميَّة - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1416هـ 1996م.

(ط)

98 - طبقات الشُّعراء الجاهليِّين، والإسلاميِّين، بدون معلومات نشر، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي.

99- طبقات ابن سعد الكبري، لمحمَّد بن سعد الزُّهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر 1376هـ 1957م.

100 - طريق النُّبوة والرِّسالة، د. حسين مؤنس، دار الرِّشاد، الطَّبعة الثَّانية، 1418هـ 1997م.

101 - الطَّرِيق إلى المدينة لمحمد العبد، دار الجوهرة - عمَّان، الطَّبعة الثانية، طبعة 1999م.

(ظ)

102 - ظاهرة الإرجاء لسفر الحوالي، مكتبة الطَّيِّب، الطَّبعة الأولى، 1417هـ، القاهرة - مصر.

(ع)

103 - العبقريَّة العسكريَّة في غزوات الرُّسول (ﷺ)، لمحمَّد فرج، الطَّبعة الثَّالثة، سنة 1977م، دار الفكر العربي - القاهرة.

104 - العلاقات الخارجية للدولة الإسلاميَّة، د. سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1416هـ 1995م.

105 - عيون الأثر في فنون المغازي، والشَّمائل، والسير، لابن سيّد النَّاس، دار المعرفة - بيروت.

(غ)

106 - الغرباء الأوَّلون، سلمان العودة، الطَّبعة الثَّالثة، عام 1412هـ 1991م، دار ابن الجوزي، الدَّمام السُّعودية.

107 - غزوة أحدٍ لأحمد عزِّ الدين.

108 - غزوة أحد دراسةً دعويَّةً لمحمَّد عيطة بن سعيد من مدحج، دار إشبيليا، الطَّبعة الأولى، 1420هـ 1999م.

109 - غزوة أحدٍ، لمحمد عبد القادر أبو فارس، ط1، 1402هـ 1982م، دار الفرقان، عمَّان - الأردن.

110 - غزوة الأحزاب لمحمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان - عمَّان، الطَّبعة الأولى، 1403هـ 1983م.

111 - غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الخامسة، 1397هـ 1977م.

112 - غزوة بدر الكبرى الحاسمة لمحمود شيت خطَّاب.

113 - غزوة بدر الكبرى، لمحمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1402هـ 1982م.

114 - غزوة بدر الكبرى لمحمد أحمد باشميل، طبع دار الفكر، الطَّبعة السادسة، سنة 1394هـ.

115 - غزوة تبوك لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر - بيروت.

(ف)

116 - فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

116 - الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الشَّهاب، القاهرة، بدون تاريخ.

117 - الفتح الرَّبَّاني لأحمد عبد الرحمن السَّاعاتي، في ترتيب مسند الإمام أحمد: أحمد عبد الرحمن السَّاعاتي، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة، الطَّبعة الأولى.

118 - فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير: محمد بن علي الشُّوكاني، دار الفكر.

119 - فقه التّمكنين في القرآن الكريم لعليّ محمّد الصّلاّبي، دار البيارق - عمّان، الطّبعة الأولى 1999م.

120 - فقه السّيرة النّبويّة، لمنير الغضبان، معهد البحوث العلميّة، وإحياء التراث - مكّة المكرّمة.

121 - فقه السيرة، لمحمّد سعيد رمضان البوطي، الطّبعة الحادية عشرة، 1991 م، دار الفكر، دمشق - سورية.

122 - فقه السّيرة للغزالي، الطّبعة الرابعة، 1409 هـ 1989 م، دار القلم، دمشق - سورية.

123 - في السّيرة النّبويّة جوانب الحذر والحماية، الدّكتور إبراهيم علي محمّد أحمد، الطّبعة الأولى رجب 1417 هـ، وزارة الأوقاف - بدولة قطر.

124 - في ظلال السّيرة النّبويّة، الهجرة النّبويّة، الدّكتور محمّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمّان - الأردن، الطّبعة الثانية، 1408 هـ 1988 م.

125 - في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشّروق، الطّبعة التّاسعة، 1400 هـ 1980 م.

126 - الفن الحربي في صدر الاسلام ، عبد الرؤف عون ، دار المعارف.

(ق)

127 - القاموس المحيط لمجد الدّين محمد الفيروز ابادي، مطبعة مصطفى البابي وأولاده - بمصر، الطّبعة الثانية 1371 هـ 1952 م.

128 - قراءة سياسية للسّيرة النّبوية، لمحمد قلعجي، دار النفائس، الطّبعة الأولى 1416 هـ 1996 م، بيروت - لبنان.

129 - قيادة الرسول السّياسيّة، والعسكريّة لأحمد راتب عرموش، دار النّفائس، الطّبعة الأولى 1419 هـ 1989 م.

130 - القيادة العسكريّة في عهد الرّسول (ﷺ)، دار القلم، الطّبعة الأولى، 1410 هـ 1990 م.

(ك)

131 - الكامل في التّاريخ لابن الأثير، لأبي الحسن علي بن محمّد، دار صادر - بيروت.

132 - الكبائر ، شمس الدين الذهبي ، دار الندوة الجديدة.

(ل)

133 - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر - بيروت.

134- لطائف المعارف ، زين الدين الدمشقي ، دار ابن كثير .

(م)

134 - المجتمع المدني في عهد النبوة، د. أكرم العمري، الطبعة الأولى 1404 هـ 1984 م.

135 - مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الطبعة الثالثة، سنة

1402 هـ 1982 م، دار الكتاب العربي - بيروت.

136 - مجموع فتاوى: شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي،

المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

137- المجموع ، ابو زكريا النووي ، بيت الافكار الدولية .

138 - مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، دار التفائس، الطبعة الخامسة، 1405 هـ

1985م.

139 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي،

تحقيق المجلس العلمي بفاس، طبعة 1395 هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

140- محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون، دار القلم، الطبعة الثانية، 1415 هـ 1995 م.

141 - محمد رسول الله، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية - بيروت، 1975 م.

142 - محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة

الأولى، 1412 هـ 1992 م.

143 - مختصر سيرة الرسول (ﷺ) لمحمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود.

144 - مدخل لفهم السيرة، د. يحيى اليحيى، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.

145 - المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،

1993م بيروت.

146- مرصد الاطلاع ، صفى الدين البغدادي ، دار الجليل .

147 - مرويات غزوة أحد، حسين أحمد الباكري، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية،

إشراف د. أكرم العمري، عام 1400 هـ 1399 م.

148 - مرويات غزوة الحديبية، د. حافظ الحكمي، دار ابن القيم، الطبعة الأولى 1411 هـ

1991م.

- 149 - مرويّات غزوة بدرٍ لأحمد باوزير، مكتبة طيبة، الطبعة الأولى 1400 هـ 1980 م.
- 150 - المستدرك على الصّحّاحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النّيسابوري، وبذيله التّلكيخ للذهبي، ط 1390 هـ 1970 م، دار النّشر مكتب المطبوعات الإسلاميّة.
- 151 - المستفاد من قصص القرآن للدّعوة والدّعاة لعبد الكريم زيدان، مؤسّسة الرّسالة، الطبعة الأولى 1418 هـ 1997 م.
- 152 - المسلمون والرّوم في عصر النّبوة لعبد الرّحمن أحمد سالم، دار الفكر العربي، طبعة 1418 هـ 1997 م.
- 153 - المسند لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.
- 154 - معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، الطبعة الرابعة 1989 م، المؤسّسة العربيّة للدراسة والنّشر.
- 155 - معالم قرآنيّة في الصّراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم محمّد، دار المسلم - الرّياض، الطبعة الأولى، 1415 هـ 1994 م.
- 156 - المعاهدات في الشّريعة الإسلاميّة والقانون الدّولي، د. محمد الدّيك، الطبعة الثانية، 1418 هـ 1997 م، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع.
- 157 - المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطّبراني، 260 هـ 360 هـ، دار مكتبة العلوم والحكم، ط 2، 1406 هـ 1985 م.
- 158 - معجم الحجاز ، عاتق البلادي ، دار مكة.
- 159 - المغازي النبويّة، للرّهري، تحقيق سهيل زكّار، دار الفكر - دمشق 1401 هـ 1981 م.
- 160 - مغازي رسول الله (ﷺ) لعروة بن الرّبير، تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشر مكتب التّربية العربي لدول الخليج - الرّياض، الطبعة الأولى 1401 هـ 1981 م.
- 161 - المغازي للواقديّ، المتوفى 207 هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثالثة 1404 هـ 1984 م.
- 162 - المفصّل في أحكام النّساء، لعبد الكريم زيدان، مؤسّسة الرّسالة، الطبعة الأولى، 1413 هـ 1993 م.

163 - مقومات الدّاعية النّاجح، د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء - جدّة الطّبعة الأولى 1417 هـ 1996 م.

164- وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، أحمد فريد ، دار العقيدة.

165 - مكّة والمدينة في الجاهليّة وعصر الرّسول (ﷺ)، للأستاذ أحمد الشّريف.

166 - ملامح الشّورى في الدّعوة الإسلاميّة، لعدنان النّحوي، الطّبعة الثانية.

167 - من معين السّيرة لصالح أحمد الشّامي، المكتب الإسلامي، الطّبعة الثانية، 1413 هـ 1992 م.

168 - المنهج التربويّ للسّيرة النّبويّة - التّربية الجهاديّة لمنير محمّد الغضبان، مكتبة المنار، الطّبعة الأولى، 1411 هـ 1991 م.

169 - المنهج الحركيّ للسّيرة النّبويّة لمنير محمّد الغضبان، مكتبة المنار - الأردن، الطّبعة الثالثة 1411 هـ 1990 م.

(ن)

170 - نظام الحكم في الشّريعة والتّاريخ الإسلامي، لطافر القاسمي، دار النفائس، الطّبعة السادسة 1411 هـ 1990 م.

171- نضر النعيم ، صالح حميد و عبد الرحمن ملوح ، دار الوسيلة.

172 - النّهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزّاوي، ومحمود محمّد الطناحي.

173 - نور اليقين، لمحمّد الخضري، دار القلم، دمشق - سورية.

(هـ)

174 - الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، دار طيبة للنّشر - الرّياض، الطّبعة الأولى 1419 هـ.

175 - هجرة الرّسول (ﷺ) وصحابته في القرآن والسّنة لأحمد عبد الغني النجولي الجمل، دار الوفاء، الطّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.

176 - الهجرة النّبويّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة - مصر، الطّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.

177 - الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرّشد - الرّياض، الطّبعة الأولى

1417 هـ 1996 م.

178 - هذا الحبيب محمد (ﷺ) يا محبُّ لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينة.

(و)

179 - الوحي والرِّسالة، د. يحيى اليحيى، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.

180 - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326 هـ.

181 - وقفاتُ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الثَّالثة، 1417 هـ 1997 م.

182 - وقفاتُ تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة، لعبد الحميد البلالي، الطَّبعة الثَّالثة، 1411 هـ 1991 م، المنار، الكويت.

183 - ولاية الشُّرطة في الإسلام، لنمر محمَّد الحميداني، دار عالم الكتب، الطَّبعة الثَّانية، 1414 هـ 1994 م.

(ى)

184 - اليهود في السُّنَّة المطهَّرة، د. عبد الله الشقاري، دار طيبة - الرِّياض، طبعة أولى، 1417 هـ 1996 م.

تقويم ذاتي

أجب على الأسئلة التالية وعددها ثمانية في الفراغ المحدد لكل سؤال

1. بين أهمية دراسة السيرة النبوية؟

2. بين من خلال 3 نقاط نظرة العرب في الجاهلية للمرأة.

3. عمل النبي صلى الله عليه وسلم في طفولته في رعي الغنم. بيني خمسا من

الخصال التربوية التي تدرب عليها هذه المهنة.

4. عنما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته آمن معه الكبير والصغير والذكر والأنثى والقريب والبعيد والغني والفقير.. ما الدروس المستفادة من هذا التنوع؟

5. ما أهم ما تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عندما جهروا بالدعوة؟

6. بين أربعة أسباب لهجرة المسلمين إلى الحبشة.

7. لماذا سمي عام الحزن بهذا الاسم؟

8. بين أهم الدروس المستفادة من محنة ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف.

اختر الاجابة الصحيحة فيما يلي :

1. واحدة من الجمل التالية المتعلقة بقصة أصحاب الفيل غير صحيحة:

A. قائل عبارة للبيت رب يحميه هو عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم

B. قصة أصحاب الفيل تبين شرف ومكانة الكعبة عند الشرف

C. تعد قصة أصحاب الفيل من دلائل النبوة

D. أسلم أبرهة الحبشي بعد ما رأى من دلائل قدرة الله تعالى

2. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام)

واحدة من الجمل التالية غير صحيحة ولا يدل عليها هذا الحديث:

A. أن الشام تكون في آخر الزمان معقلا للإسلام

B. أن أم النبي صلى الله عليه وسلم أدركت النبي صلى الله عليه

وسلم شابا يسمع منها

C. أن دعوة الأنبياء واحدة

D. أن الله تعالى سينير بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم هذه البلاد

3. في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها ووقوفها معه

يتبين لنا:

A. أن أهم شيء في العلاقة الزوجية: التقارب العمري والعمل

المشترك (التجارة)

B. أن أول تجارب النبي صلى الله عليه وسلم في العمل التجاري

كان على يد السيدة خديجة رضي الله عنها

C. أن حسن اختيار شريكة الحياة أهم ما يقوي الداعية على

احتمال أعباء الدعوة

D. زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة هو ما فتح عليه

آفاق العمل التجاري.

4. أول نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل يبين لنا:

A. أن الوحي كان تلقيا داخليا وحديث نفس ومكاشفة نفسية

B. أن الشدة التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم كانت لبيان

عظمة هذا الدين وأهميته واحتياجه للصبر والتحمل

C. أن جبريل أول ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم كان على هيئة

رجل أبيض الثياب

D. اهتمت السيدة عائشة بالنبي صلى الله عليه وسلم فور نزول

الوحي عليه وأخذته إلى عمها ورقة.

5. كان الترتيب في الدخول إلى الإسلام على النحو التالي:

A. خديجة ثم أبو بكر ثم علي ثم زيد

B. خديجة ثم علي ثم زيد ثم بنات النبي صلى الله عليه وسلم

C. خديجة ثم بناتها ثم أبو بكر ثم علي

D. خديجة ثم علي ثم أبو بكر ثم زيد

6. من أسباب اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مقرا للقيادة الإسلامية في صدر الإسلام:

A. أن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه

B. أن الأرقم لم يكن من أهل مكة

C. لكبر سنه وجهل الناس به

D. بعدها عن مكة

7. كان من أهم اعتراضات المشركين على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم القضايا التالية:

A. وحدانية الله

B. اليوم الآخر

C. القرآن الكريم

D. جميع ما ذكر

8. كان حصار قريش لبني هاشم والمسلمين في شعب أبي طالب في السنة:

A. الخامسة للبعثة

B. السنة السابعة للبعثة

C. السنة السادسة للبعثة

D. السنة التاسعة للبعثة

9. الذي مزق الصحيفة التي تعاهدت فيها قريش على مقاطعة المسلمين هو:

A. أبو بكر الصديق

B. أبو طالب

C. المطعم بن عدي

D. حمزة بن عبد المطلب

10. كان سبب هجرة الصحابة إلى الحبشة:

A. الفرار بالدين ونشر الدعوة

B. إغابة قريش

C. التمهيد لهجرة النبي إلى الحبشة

D. الوقوف مع النجاشي بعد إسلامه

11. عام الحزن الذي فقد فيه النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب

وزوجه خديجة كان في:

A. العام العاشر للبعثة بعد محنة الطائف

B. في العام التاسع للبعثة بعد رحلة الإسراء والمعراج

C. في العام العاشر للبعثة قبل محنة الطائف

D. في العام الحادي عشر للبعثة قبل رحلة الإسراء والمعراج

12. من الدروس المستفادة من رحلة الإسراء والمعراج:

A. الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى يشعر المسلمين

بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى.

B. فرض الصلاة في السماء السابعة دليل على أهمية الصلاة

وعظمتها وشرفها

C. إمامة النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء دليل على مكانته

ومكانة أمته بين الأمم وأنها الأمة الشاهدة على الأمم

D. جميع ما ذكر

الاجابات : D.B.C.B.B.A.D.B.C.A.C.D

أجيب عن الأسئلة التالية وعددها 7 في الفراغ المتروك بعد كل

سؤال دون أي زيادة

1. ما أهم دعائم الدولة التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة؟

2. متى حدثت غزوة بدر الكبرى وما سببها؟

3. ماذا تستنتج من مشورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم حول مكان نزول الجيش في بدر؟

4. من خلال دراستك لغزوة أحد، أجب عن الأسئلة التالية:

- كيف علم النبي صلى الله عليه وسلم بإعداد قريش جيشاً لقتال المسلمين في المدينة؟

- ماذا كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج لملاقاة العدو في أحد؟ وماذا تستنتجين من ذلك؟

5. بين أهمية غزوة حمراء الأسد بالنسبة للمسلمين.

6. ما حكمة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين أم سلمة؟

7. أجيب بنعم أو لا:

- نقض يهود بني قريظة العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد.
- وقعت غزوة الأحزاب في السنة السابعة من الهجرة
- تمت بيعة الرضوان بعد أن وصل خبر للمسلمين بمقتل عثمان رضي الله عنه.
- كان من بنود صلح الحديبية أن من أتى محمد من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه.
- كان فتح خيبر قبل صلح الحديبية.
- كان أهم سبب لغزوة مؤتة سنة 8 هـ مقتل سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحارث بن عمير الأزدي.
- جهز النبي صلى الله عليه وسلم الجيش لفتح مكة بعد نقض قريش عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم.
- انتصر المسلمون في غزوة تبوك سنة 9 هـ بعد قتال شديد بينهم وبين الروم.

فهرس الموضوعات

1.....	مُقَدِّمة
6.....	الفصل الأول
6.....	أهمُّ الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي
6.....	المبحث الأول
6.....	الحضارات السائدة قبل البعثة ودياناتها
6.....	أولاً: الإمبراطورية الرومانية
7.....	ثانياً: الإمبراطورية الفارسية
7.....	ثالثاً: الهند
7.....	رابعاً: أحوال العالم الدينيَّة قبل البعثة المحمّدية
8.....	المبحث الثاني
8.....	أصول العرب وحضارتهم
8.....	أولاً: أصول العرب
11.....	المبحث الثالث
11.....	الأحوال الدينيَّة والسياسية والاقتصاديَّة والاجتماعية والأخلاقية عند العرب
11.....	أولاً: الحالة الدينيَّة
11.....	ثانياً: الحالة السياسية
12.....	ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة
12.....	رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة
15.....	خامساً: الحالة الأخلاقيَّة
17.....	المبحث الرابع
17.....	أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم
17.....	أولاً: قصَّة حفر عبد المطلب جدِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لزمنم
19.....	ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل

23	المبحث الخامس
23	من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول
23	أولاً: نسب النبي صلى الله عليه وسلم
23	ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب
24	ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم
24	رابعاً: مرضعاته عليه الصلاة والسلام
28	خامساً: وفاة أمه، وكفالة جدّه، ثم عمّه
29	سادساً: عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي
30	سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة
31	ثامناً: لقاء الراهب بحيرا بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلام
33	تاسعاً: حلف الفضول
35	المبحث السادس
35	تجارته لخديجة وزواجه منها وأهم الأحداث إلى البعثة
35	أولاً: تجارته لخديجة، وزواجه منها
38	ثانياً: اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة الشريفة
40	ثالثاً: تهيئة الناس لاستقبال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
42	الفصل الثاني
42	نزول الوحي والدعوة السريّة
42	المبحث الأوّل
42	نزول الوحي على سيّد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم
43	أولاً: الرؤيا الصالحة
44	ثانياً: ثمّ حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه
44	ثالثاً: حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء
45	رابعاً: الشدّة التي تعرّض لها النبي ﷺ، ووصف ظاهرة الوحي
45	خامساً: معنى الوحي

45	سادساً: أنواع الوحي
47	سابعاً: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة.....
48	المبحث الثاني
48	الدعوة السريّة
48	أولاً: الأمر الربانيّ بتبليغ الرسالة.....
48	ثانياً: بدء الدعوة السريّة
54	ثالثاً: انتشار الدعوة في بطون قريش، وعلميتها.....
55	المبحث الثالث
55	الجهر بالدعوة
55	أولاً: الجهر بالدعوة
57	ثانياً: سنّة الابتلاء.....
58	ثالثاً: أساليب المشركين في محاربة الدعوة
58	أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة، وحماية رسول الله ﷺ
58	ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ
60	ثالثاً: ما تعرّض له رسولُ الله ﷺ من الأذى والتّعذيب.....
62	رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتّعذيب.....
67	خامساً: حكمة الكفّ عن القتال في مكّة
69	المبحث الرابع : هجرة الحبشة.....
69	أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة
74	ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكّة بعد هجرتهم الأولى
75	ثالثاً: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة
87	المبحث الخامس:
87	الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة:
92	المبحث السادس: عام الحزن ومحنة الطائف: أولاً: عام الحزن
93	ثانياً: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

102	المبحث السابع
102	الإسراء والمعراج .. ذروة التَّكْرِيم
103	أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث
112	الفصل الثالث
112	الطَّوَّاف على القبائل، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة
112	المبحث الأوَّل
112	الطَّوَّاف على القبائل طلباً للنُّصرة
113	أولاً: من أساليب النَّبِيِّ ﷺ في الردِّ على مكائد أبي جهل
113	ثانياً: المفاوضات مع بني عامر
116	المبحث الثَّاني
116	مواكب الخير وطلائع النُّور
116	أولاً: بدء إسلام الأنصار
117	ثانياً: بيعة العقبة الأولى
118	ثالثاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما
123	المبحث الثَّالث
123	بيعة العقبة الثَّانية
127	المبحث الرَّابع
127	الهجرة إلى المدينة

129 **الفصل الرابع**

129	هجرة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه
129	المبحث الأوَّل
129	فشل خَطَّة المشركين، والتَّرتيب النَّبَوِيُّ الرَّفِيع للهجرة
129	أولاً: فشل خَطَّة المشركين لاغتيال النَّبِيِّ ﷺ

130	ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة
131	ثالثاً: خروج الرَّسول ﷺ ووصوله إلى الغار
132	رابعاً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ
132	خامساً: سراقه بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ
133	سادساً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ
135	سابعاً: أول من هاجر من الصحابة
143	المبحث الثاني
143	دعائم دولة الإسلام في المدينة
143	الدِّعامة الأولى بناء المسجد الأعظم بالمدينة
144	أولاً: بيوتات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم التابعة للمسجد
144	ثانياً: الأذان في المدينة
145	ثالثاً: الصُّفَّةُ التابعة للمسجد النَّبويِّ
148	الدعامة الثانية
148	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
148	أولاً: المؤاخاة في المدينة
153	الدعامة الثالثة
153	الوثيقة أو الصَّحيفة
153	أولاً: كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود
159	ثالثاً: موقف اليهود في المدينة
164	المبحث الثالث
164	أهم السَّرايا، والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى
172	المبحث الرابع
172	أحداثٌ وتشريعات
172	أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية
175	ثانياً: زواجه صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها:

178	 الفصل الخامس
178	 غزوة بدر الكبرى
178	 المبحث الأول مرحلة ما قبل المعركة
179	 العزم على ملاقاتة المسلمين ببدر
180	 مشاورة النبي ﷺ لأصحابه
182	 المسير إلى لقاء العدو، وجمع المعلومات عنه
184	 مشورة الحُباب بن المنذر في بدر
186	 المبحث الثاني
186	 النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في ساحة المعركة
186	 من نعم الله على المسلمين قبل القتال
188	 المبحث الثالث
188	 نشوب القتال وهزيمة المشركين
188	 أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة
189	 ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين
192	 المبحث الرابع
192	 مشاهد وأحداث من المعركة
192	 أولاً: مصارع الطُّغاة
193	 ثانياً: من مشاهد العظمة
194	 المبحث الخامس
194	 الخلاف في الأنفال والأسرى
194	 أولاً: الخلاف في الأنفال
196	 ثانياً: الأسرى
200	 المبحث السادس
200	 نتائج غزوة بدر
200	 نتائج غزوة بدر

203	المبحث السابع
203	بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر
206	المبحث الثامن
206	غزوة بني قَيْنُقَاع
211	الفصل السادس
211	غزوة أُحُدٍ
211	المبحث الأول
211	أحداث ما قبل المعركة
211	أولاً: أسباب الغزوة
213	ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة
214	ثالثاً: الاستخبارات النَّبَوِّية تتابع حركة العدو
216	رابعاً: مشاورته (ﷺ) لأصحابه رضي الله عنهم
218	خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أُحُدٍ
221	سادساً: خطَّة الرَّسُول (ﷺ) لمواجهة كفار مكَّة
223	المبحث الثاني
223	في قلب المعركة
223	أولاً: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين
225	ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسُول (ﷺ)
228	ثالثاً: خطَّة الرَّسُول (ﷺ) في إعادة شتات الجيش
230	رابعاً: من شهداء أُحُدٍ
234	خامساً: من دلائل النَّبُوَّة
236	المبحث الثالث
236	أحداث ما بعد المعركة
236	أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسُول (ﷺ) وأصحابه
238	ثانياً: تفقد الرَّسُول (ﷺ) الشُّهداء

238	ثالثاً: دعاء الرسول (ﷺ) يوم أُحُدٍ
239	رابعاً: معرفة وجهه العدو
240	خامساً: غزوة حمراء الأسد
244	سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحُدٍ
244	سابعاً: دروس في الصبر تقدّمها صحابيَّاتٌ للأُمَّة
247	المبحث الرَّابع
247	بعض الدُّروس، والعبر، والفوائد
255	الفصل السابع
255	أهمُّ الأحداث ما بين أُحُدٍ والخندق
255	المبحث الأوَّل
255	محاولات المشركين لزعة الدولة الإسلاميَّة
255	أولاً: غدر قبيلتي عَضْلُ والقَارَة، وفاجعة الرّجيع
261	ثانياً: طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (4هـ):
264	المبحث الثَّاني
264	زواج النّبي (ﷺ) بأمّ المساكين، وأمّ سلمة، وأحداث متفرّقة
264	أولاً: زينب بنت حُرَيمَة أمّ المساكين رضي الله عنها
264	ثانياً: زواج النّبي (ﷺ) بأمّ سلمة رضي الله عنها
266	ثالثاً: مولد الحسن بن عليّ رضي الله عنهما
266	رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (4هـ)
267	المبحث الثَّالث
267	إجلاء يهود بني النّضير
267	أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها
268	ثانياً: إنذار بني النّضير بالجلّاء وحصارهم
269	ثالثاً: الدُّروس، والعبر في هذه الغزوة
271	المبحث الرَّابع

271	غزوة بني المصطلق
271	أولاً: ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟
272	ثانياً: زواج رسول الله (ﷺ) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها
273	ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار
277	الفصل الثامن
277	غزوة الأحزاب (5 هـ)
277	المبحث الأول
277	تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها
277	أولاً: تاريخ الغزوة، وأسبابها
278	ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب
279	ثالثاً: اهتمام النبي (ﷺ) بالجبهة الداخلية
282	المبحث الثاني
282	اشتداد الحنة بالمسلمين
282	أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد
283	ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين
285	ثالثاً: محاولة النبي (ﷺ) تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان
290	المبحث الثالث
290	مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب
290	أولاً: شدة تضرع الرسول (ﷺ) ونزول النصر
291	ثانياً: تحريي انصراف الأحزاب
293	ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب، ونتائجها
295	رابعاً: التخلص من بني قريظة
298	الفصل التاسع
298	ما بين غزوة الأحزاب، والحديبية من أحداث مهمة

298	المبحث الأول
298	«الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»
298	أولاً: سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء
301	ثانياً: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر
306	ثالثاً: غزوة بني لحيان
309	المبحث الثاني
309	تصفية المحرضين على الدولة
309	سرية عبد الله بن رواحة إلى اليسير بن رزام اليهودي
311	الفصل العاشر
311	الفتح المبين (صلح الحديبية)
311	المبحث الأول
311	تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله (ﷺ) إلى مكة
311	أولاً: تاريخه، وأسبابه
313	ثانياً: وصول النبي (ﷺ) إلى عسفان
314	ثالثاً: الرسول (ﷺ) يغير الطريق، وينزل بالحديبية
314	رابعاً: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيل» ..
316	خامساً: الوفود النبوية إلى قريش، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين
317	سادساً:بيعة الرضوان
319	المبحث الثاني
319	صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث
319	أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله (ﷺ)
322	ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد
324	ثالثاً: احترام المعارضة التزيهة
325	رابعاً: التحلل من العمرة ومشورة أم سلمة رضي الله عنها
326	خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح

328 الفصل الحادي عشر

328 أهم الأحداث ما بين الحديبية، وفتح مكة

328 المبحث الأول

328 غزوة خيبر

328 أولاً: تاريخها، وأسبابها

328 ثانياً: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر

329 ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر

331 رابعاً: قدوم جعفر بن أبي طالب، ومن معه من الحبشة

331 خامساً: تقسيم الغنائم

332 سادساً: مشاركة المرأة في غزوة خيبر

334 المبحث الثاني

334 دعوة الملوك والأمراء

340 المبحث الثالث

340 سرية مؤتة (8 هـ)

340 أولاً: أسبابها، وتاريخها

341 ثانياً: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة

343 ثالثاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً

345 رابعاً: معجزة الرسول (ﷺ) ، وموقف أهل المدينة من الجيش

349 الفصل الثاني عشر

349 غزوة فتح مكة (8 هـ)

349 المبحث الأول

349 أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

349 أولاً: أسبابها

351 ثانياً: الاستعداد للخروج

354		ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداث في الطَّرِيق
358		المبحث الثاني
358		خُطَّة النَّبِيِّ (ﷺ) لدخول مَكَّة وفتحها
358		أولاً: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة
358		ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ
361		ثالثاً: إعلان العفو العام
362		رابعاً: هدم بيوت الأوثان
363		المبحث الثالث
363		دروس وعبر وفوائد
366		الفصل الثالث عشر
366		غزوة حنين، والطَّائِف (8 هـ)
366		المبحث الأوَّل
366		أسبابها، وأحداث المعركة
366		أهمُّ أحداث غزوة حنين
370		المبحث الثاني
370		دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد
375		الفصل الرابع عشر
375		غزوة تبوك (9 هـ) وهي غزوة العُسْرة
375		المبحث الأوَّل
375		تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها
375		أولاً: أسبابها
375		ثانياً: الإنفاق في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد
378		ثالثاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك
378		رابعاً: إعلان النَّفير، وتعبئة الجيش

381	المبحث الثاني
381	العودة من تبوك إلى المدينة، وحديث القرآن الكريم في المخلفين عن الغزوة
381	أولاً: المخلفون الذين لهم أعدار شرعية، وعذرهم الله - سبحانه وتعالى - ..
382	ثانياً: المخلفون الذين ليس لهم أعدار شرعية، وتاب الله عليهم
383	ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة
383	رابعاً: المخلفون من منافقي المدينة
384	المبحث الثالث
384	أهم نتائج الغزوة
385	المبحث الرابع
385	أهم الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجة الوداع
385	أولاً: وفد ثقيف وإسلامهم
386	ثانياً: حجُّ أبي بكر رضي الله عنه بالنَّاس
388	ثالثاً: عام الوفود (9 هـ)
392	المبحث الخامس
392	حجة الوداع (10 هـ)
393	أولاً: كيف حجَّ النَّبِيُّ (ﷺ) ؟
398	ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد
400	المبحث السادس
400	مرض رسول الله (ﷺ) ووفاته
400	أولاً: مرض الرَّسول (ﷺ)
401	ثانياً: من وصايا رسول الله (ﷺ) في أيامه الأخيرة
401	ثالثاً: أبو بكر يصلي بالمسلمين
402	رابعاً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى (ﷺ)
420	تقويم ذاتي

429 فهرس الموضوعات

د. علي محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقه



- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ / 1963 م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993 م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996 م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999 م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفاً أبرزها:
 - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
 - سير الخلفاء الراشدين
 - الدولة الحديثة المسلمة
 - الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط
 - فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح
 - وسطية القرآن الكريم في العقائد.
 - صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
 - تاريخ كفاح الشعب الجزائري
 - العدالة والمصالحة الوطنية